الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
كلية الآداب والحضارة الإسلامية
قسم اللغة العربية

محاضرات في مقياس الخلافة الأموية والعباسية

مطبوعة مقدمة لطلبة السنة الثانية ليسانس جذع مشترك

"تخصص: لغة عربية وحضارة اسلامية

إعداد: د. ابراهيم بن مهية

السنة الدراسية 1441 – 1442 هـ/ 2020 - 2021 م

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على النبي الكريم محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

وعلى من اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين

أما بعد ،

فهذه محاضرات تختصر في طياتها أحداثا تعاقبت على مر التاريخ الاسلامي بعد الخلافة الراشدة ،وحملت في ثناياها أخبار دول المسلمين أثناء أدائهم لدورهم الريادي والسيادي والقيادي في العلم أجمع ،فقد حملوا تحت لوائها رسالة دينهم إلى أقصى ما وصلوا إليه من القارات الثلاث ،ونشروا تعاليمه في أصقاع بعيدة من العالم القديم ، وإن كانت تلك الأسر الحاكمة تتقلب بين سياسات عادلة وأخرى ظالمة ،لكنها في عمومها كانت محكومة بتطبيق هذا الدين الخاتم وتبليغه...

ومن هنا كان لزاما على طلبة العلوم الاسلامية بصفة عامة ،وطلبة التاريخ الاسلامي بصفة خاصة ،الإلمام ليس فقط بالسيرة النبوية والفتوحات الراشدية ،بل بكل الدول التي جاءت بعد تلك الانطلاقة المباركة إلى مابعد انتهاء ألف عام أو أكثر من نشر الاسلام، أو بالأحرى إلى ماقبل مجيء الإستدمار الأوروبي–المسمى زورا بالاستعمار– والذي جثم على صدور العالمين مدة قرن أو قرنين...

ولقد توخيت في هذه المحاضرات سرد الأحداث بالتركيز على الجوانب السياسية والعسكرية، مؤجلا الغوص في المجالات الحضارية إلى محاضرات أخرى إن شاء الله ، ونظرا إلى كثرة الأخبار وكثافة التفاصيل الكمية الكبيرة للمعلومات عمدت إلى الإختزال مع تبسيط العبارات وانتقاء أهم الأحداث وابرز الشخصيات...

هذا ، وحرصا مني على على تسهيل عملية الإستيعاب لدى الطلبة أضفت إلى الشرح المختصر–إن صح التعبير– بعض الخرائط التوضيحية والجداول البيانية ...وإمعانا في تذليل عملية إمتلاك الطالب لناصية الأحداث الكثيرة نظمتها في متون شعرية علمية وجعلتها في آخر أكثر المحاضرات لكل من يتذوق الأراجيز التعليمية.

والله أسأل أن يوفقنا إلى إصلاح حاضرنا وتجديد مستقبلنا، وذلك بالإهتداء بأنوار تاريخنا ومافيه من إيجابيات، مع الاعتبار بما فيه أيضا من مساوئ بتجنب السلبيات...

ونسأله سبحانه تسديد الخطى وغفران الأخطاء وتكفير الخطايا...إنه سميع مجيب.

وصلى الله على سيدنا محمد

وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

محاضرات

الخلافة

الأموية

المحاضرة الأولى:

نهاية الخلافة الراشدة

• أسباب الفتنة الكبرى

لعل من السذاجة الواضحة ان ترد اسباب الفتنة الكبرى إلى قضية بعينها، فقد تراكمت العوامل و تزاحمت الدوافع و خاصة في السنوات الإثني عشر التي حكمها عثمان رضي الله عنه ، و قد قسمها بعضهم إلى نصفين الاول هادئ و الثاني مضطرب ... وهذا خطأ أيضا، لأن الفتنة لم تطل برأسها إلا في آخر عام أو عامين من عهده ، أما جذورها فكانت تنسج مع الوقائع الصغيرة هنا و هناك ... حتى تفاقمت و اتسع الخرق على الراقع ، و مع ذلك فسنلخص اسبابها فيما يلي :

- شخصية عثمان من حيث السن (اذ تجاوز السبعين) و من حيث الطبع (الحياء و لين العريكة).
- تزايد تدفق غنائم الفتوحات في عواصم الامصار و بالاخص في العاصمة المركز (المدينة المنورة) فبرزت مظاهر الثروة بشكل ملفت للانتباه بينما كان هذا الامر في عهد عمر محتشما و في بداياته .
- التحرك السري لبعض الفئات الحاقدة على الاسلام و المسلمين و على رأس هؤلاء الحركة السبئية و زعيمها ابن سبأ ... و هنا لا بد من ملاحظة ان بعض الكتاب المعاصرين انجرفوا بل انحرفوا نحو التشكيك في اصل وجود شخصية عبد الله بن سبا و قالوا إن أهل السنة عموما، و إن الطبري خصوصا، و إن الإخباري سيف بن عمر التميمي بصفة أخص، هم المختلقون لتلك الشخصية الوهمية لئلا تمس شخصيات الصحابة في هذه الفتنة و بالتالي تعلق المصائب كلها بهذا الشخص ... لكن الدراسات التي تعقبتها أثبتت بما لا يدع مجالا للشك أن أخبار هذا الرجل (ابن سبأ) و طائفته السبئية موجودة تلميحا و تلويحا بل و تصريحا في مصادر غير سنية بل إن تحركاته المشبوهة مذكورة تأصيلا و تفصيلا عند قدامى المؤرخين تماما كما عند الطبري ، ثم إن إخباريين آخرين غير سيف بن عمر اعتمدهم الطبري قد أشاروا بشكل أو بآخر إلى ما تعمق فيه سيف من امر هذا الرجل المشبوه ...
- التحولات العميقة الحاصلة في بنى المجتمع الاسلامي المتسارع في النمو و التمدد و التجدد...
- بعض اجتهادات عثمان المميزة و بعض الانتقادات الموجهة له، وخاصة منها تلك الهامة التي كانت لها تداعياتها العامة ... فمثلا نجده قد حمى الحمى أي توسع في تأميم المراعي المخصصة للمصالح العامة ، كما أنه سمح

للصحابة بالانسياح في الاقاليم و الاستقرار بها بعد أن كان عمر يلزمهم بالمدينة المنورة ، ثم إن عثمان سمح للحكم بن العاص الاموي و هو ابن عمه بالمجئ للمدينة بعد أن كان النبي صلى الله عليه و سلم قد نفاه إلى الطائف و ألزمه ابو بكر و عمر بالبقاء فيها ... أما الصحابي أبو ذر الغفاري فإنه أصر على رأيه في انتقاد ظاهرة اكتناز الأموال الفائضة عن الحاجة، و مظاهر الثراء الفاحش، فدله عثمان على ترك المدينة و البقاء في باديتها (الربذة) إلى أن وافاه أجله بها بعد عام أو أكثر ... و لعل أخطر الاجتهادات أثرا هو تعيين عثمان لولاة الامصار من أقاربه، فقد ثبت معاوية على دمشق و ضم أجناد الشام لولايته ، وعين الوليد بن عقبة بن أبي معيط على الكوفة فاتهم بالخمر و جلده عثمان ، و عين عبد الله بن سعد بن أبي سرح على مصر ...[1]

• تصاعد أحداث الفتنة الاولى أواخر عهد عثمان :

كانت الكوفة وسط العراق تعج بالقبائل المتلاحقة، و حاول الوالي الجديد (الوليد) أن يشرك الروادف (اللواحق) بالسابقين في الأعطيات فحصل التبرم منه، و جاء اتهامه بالخمر في هذا السياق، فحل محله سعيد بن العاص الذي رجع إلى السياسة التقليدية المتمثلة في أولوية السابقين في العطاء ، و تأتي حادثة الملطاط (اراضي كسرى بضواحي الكوفة) في جلسة سمر الوالي القائل: " إنما هذا السواد بستان لقريش " فتصايح الزعماء كالاشتر النخعي " أتزعم أن ما أفاء الله علينا بأسيافنا بستان لك و لقومك ". و في حركة احتجاجية عارمة رفض الكوفيون هذا الوالي، بل رضخ عثمان لمطلبهم لما جعل الوالي عليهم أبا موسى الأشعري، و الذي بدوره كان واليا على البصرة و ما عزله عنها سوى احتجاج بعض أهلها عليه ، و كذلك هو حال بعض المصريين مع الوالي ابن ابي سرح ، و قد ارسل عثمان وفدا فيه عمار بن ياسر للنظر في احوال المصريين، لكن عمارا انضم إلى الناقمين على الخليفة، و خصوصا منهم المحمدين (ابن ابي حذيفة و ابن ابي بكر الصديق) اضافة إلى بعض زعماء القبائل مع الانتهازيين دنيويا او الحاقدين دينيا ...

وهكذا، اكفهرت الأجواء و تلبدت الغيوم و تبادل الطاعنون في عثمان رسائل مهيجة ضده، و بعضها منسوب زورا لأعيان الصحابة رغم نفيهم لذلك ، و بسرعة تتفق الجماعات المعارضة على تسيير حشودها بشكل متخف ضمن الحجيج والتي ستصل المدينة مع رمضان من سنة 35 هـ نحو مكة لكن الثوار سيتوقفون ليجبروا الخليفة على تغيير سياسته جذريا مهددين إياه بالقتل مع اختلاف نواياهم و سجاياهم بين مناصح و منافق، و رغم أن هذا الاستعراض المسلح حول المدينة فاجأ أهلها إلا أن الخليفة استقبل ممثليهم و حاورهم بل

[1] العبيدي (محمد المختار) ، قراءة جديدة للفتنة الكبرى، مؤسسة الانتشار العربي 2008 ط1 بيروت ، ص55 – 62
د. شندب (محمد حسين) ، تاريخ الخلفاء الراشدين تجربة الجيل القرآني، المؤسسات الجامعية 2003 ط1 بيروت، ص 135 – 145

إنه أقنعهم بصوابه في بعض الأشياء و اعترف ببعض الأخطاء و سايرهم في أمور أخرى حتى اقتنعوا بالرجوع عنه و إعطائه فرصة أخيرة، إلا أن هؤلاء الثوار أوقفوا عملية الرجوع بسرعة، و عادوا هائجين إلى المدينة و اقتحموها و حاصروا عثمان متهمين إياه بإرسال برقية عاجلة إلى واليه على مصر آمرا إياه بقتل رؤوس الثورة ... و لم يأبه الثوار بما لاحظه علي كرم الله وجهه من عودة العراقيين مع المصريين في نفس اللحظة رغم بعد مسافة الافتراق و سرعة الرجوع معا إلى المدينة !!! أما الثوار فوجهوا أصابع الاتهام إلى كاتب عثمان و هو مروان بن الحكم و طالبوا الخليفة بأن يسلمه لهم ليقتلوه، لكنه رفض بشدة فاستقر اتهامهم عليه هو شخصيا، فضيقوا عليه في الحصار في داره حتى قتلوه .[2]

• تطورات احداث الفتنة في عهد الامام علي كرم الله وجهه :

مع مطلع عام 36 هـ بويع علي بن ابي طالب بالخلافة بعد أن اشترط أن تكون بيعته علانية بالمسجد و عن رضى العامة و الخاصة كأهل الحل، فتحقق له ذلك، رغم تحفظ القليل بسبب ظروف الفتنة أو خشية ابقاء الخلافة في آل بيت النبوة ... و بايع البعض مع توقعهم مسارعة الخليفة الجديد للاقتصاص من قتلة الخليفة السابق، لكن عليا أصر على أن يفتتح عهده بتهدئة الأمور عبر معالجة أسباب الفتنة أولا، حيث قرر عزل كافة ولاة عثمان و أرسل ولاته إلى كافة الأمصار ... و كاد أن ينجح لولا إصرار والي الشام معاوية على الثأر لعثمان، بل و استعداده لجعل ما في ولايته من جنود و أموال في خدمة هذا المبدأ. و مما زاد الخرق اتساعا أن ظهر في مكة صحابيان جليلان هما طلحة و الزبير، وكانا قد بايعا عليا و نصحاه بالثأر لعثمان، ثم انسحبا للعمرة فالتقيا قرب الكعبة بأم المؤمنين عائشة، و اتفقا معها على مساعدة علي و معاوية في تنفيذ مبدأ الصلح و الثأر لعثمان ... و هكذا تسامعت الأمة بهذه الخطوة المفاجئة و أن عائشة انطلقت إلى مدينة البصرة جنوب العراق، فالتفَّتْ الحشود حول فكرة هؤلاء الثلاثة، لولا أن عليا سارع إلى مدينة الكوفة وسط العراق بل و جعلها عاصمة له، حيث انتصر بجيشه على جيش عائشة قرب البصرة و سميت المعركة بموقعة الجمل لأن عائشة رضي الله عنها كانت تركب على جمل، فأكرمها الإمام أيما إكرام، و ترحم على أخويه القتيلين طلحة و الزبير رضي الله عن الجميع .

هذا، و بعد أن أعاد الإمام ترتيب صفوفه بإعادة ضم البصرة إليه عاود الالتفات إلى الشام، و انطلق بجيوشه إلى نهر الفرات الشمالي، حيث التقى في منطقة صفين شمال البادية السورية بجيش معاوية، و كلاهما مصمم على رأيه، مما أجهض كل محاولات الصلح أو مفاوضات التسوية مع مطلع عام 37 هـ ، فكان لابد من

[2] ابن الأثير (الجزري ت 630 هـ) الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي 1980 ط3 بيروت، ج 3 ص 69 – 90
د. الغبان (محمد) فتنة مقتل عثمان ... مكتبة العبيكان 1999 ط1 الرياض، ج1 ص 143 – 192

القتال الذي اندلع و استمر أواره أسبوعا كاملا، و كاد غباره ان ينجلي عن هزيمة معاوية لولا أن عمرو بن العاص أشار على صاحبه معاوية برفع المصاحف، فأمر جنوده بذلك فرفعوها على أسنة الرماح و رآها جيش علي فتوقف القتال، و تنادوا ليحكم القرآن بينهم، و رغم تردد علي في الأمر بوقف القتال، إلا إنه اضطر لذلك تحت إلحاح أغلبية جيشه بل إنه أُضطر أيضا إلى تعيين أبي موسى الأشعري ممثلا عنه في هذا التحكيم مقابل تمثيل ابن العاص لمعاوية، فرجع جيش علي إلى العراق في خصام بين صفوفه، بينما رجع جيش معاوية وقد أنقذ من الهزيمة بل ازدادت صفوفه تماسكا فيما بينها ... و بقي الحال على ذلك عاما كاملا إلى أن أُعلن رسميا عن فشل الحكمين فازداد موقف علي حراجة بينما تقوى موقف معاوية، و كان من المفروض أن تندلع معركة اخرى بينهما تكمل معركة صفين لولا انشغال علي بقمع التمرد المسلح الذي أعلنه منتقدوه من جيشه ممن تطرفوا في انتقادهم فكفروه و كفروا من يدافع عنه، بل و حملوا السلاح ضد الجميع، فتغلب عليهم بالمفاوضات أولا و باستخدام القوة ثانيا، إذ قضى عليهم في موقعة النهروان سنة 38 هـ ، و سموا الخوارج لخروجهم على الامام العادل، و سموا أيضا المحكمة الأولى لندائهم الشهير " لا حكم إلا لله " و سموا (الحرورية) لتجمعهم في قرية حروراء العراقية ...

في المقابل كان معاوية يتسلم الأمصار، الولاية تلو الأخرى، كمصر و الحجاز و اليمن، رغم نجاح علي في استعادة بعضها عام 39 هـ ، لكن مجموعة من بقايا الخوارج اتفقت بداية 40 هـ على اغتيال زعماء النزاع الثلاثة، و تطوع للتنفيذ ثلاثة منهم، و قد فشل اثنان في اغتيال معاوية بدمشق، و ابن العاص بمصر، بينما نجح الثالث و هو عبد الرحمان بن ملجم المرادي في اغتيال الامام علي بمسجد الكوفة فجر السابع عشر من رمضان 40 هـ، فأوصى علي بإيقاع القصاص على قاتله فقط، و أما اقتراح تولية ابنه الحسن مكانه فقال:" لا آمركم و لا أنهاكم" ... و هكذا بويع الحسن السبط رضي الله عنه بالخلافة و بقي أشهرا يتجهز عسكريا لملاقاة جيش معاوية، لكنه نظر في مطلع عام 41 هـ إلى تطورات الفتنة عموما، و منازعات جيشه خصوصا، فراسل معاوية لإنهاء الأزمة بتسليمه الخلافة رسميا فيما يسمى عام الجماعة .[3]

[3] ابن كثير (الدمشقي 774 هـ) البداية والنخاية مكتبة الصفا 2003 ط1 القاهرة مجلد 4 ج7 ص 172 – 270 .
د. العمري (أكرم ضياء) عصر الخلافة الراشدة ، مكتبة العبيكان، الرياض 1998 ط2 ص 450 – 489 .

وفي ختام هذه المحاضرة أضع بين يدي الطلبة منظومة تاريخية تشتمل على هذه التفاصيل وغيرها... وذلك لتسهيل عملية استيعاب أحداث تلك الفترة الصعبة من تاريخ الاسلام والصحابة.

• مقتطفات من منظومة (إخبار أولي الفطن بأخبار أولى الفتن)

فصْل في بدء أحداث الفتنة ويوم الجرعة سنة 34 هـ

وتلك من أنباء فتنة أتتْ ... عن فئة عن أمر ربها عتت
وأصبحتْ من بعدها مناهجا ... وشيَعًا وفرقا خوارجا
أول ما قد جاء من هذا النبأ ... مؤامراتٌ من يهودِ ابنِ سبأ
من يمنٍ إلى الحجازِ فالشئَامْ ... إلى العراق ثم في مصرَ المُقامْ
مؤسسا للشيعة الغلاةِ ... بالطعن في الأصحاب والولاةِ
مؤجِّجًا لنار الإنتقادِ ... في كل ما يبدو منِ اجتهاد
وقائلا برجعة النبيِّ ... وأنه أوصى إلى عليِّ
ثم سعى في الأرض بالإفسادِ ... كآمرٍ بالعُرْف والجهادِ
فساق كلَّ لاهثٍ ولاعقِ ... أتباع كلّ ناهق وناعق
أكثرهم ذوو نوايا سيئهْ ... ذو الخير لم يفطنْ لذي المختبئهْ
فبعضهم عزره عثمانُ ... عمارُ في الأخيارِ أو حمرانُ
وبعضهم خيَّبَ كالمحمديْنْ ... فدَيْنُهُ عليهما وأيُّ ديْنْ
و البعض كالرِّعاع و الغوغاءِ ... عبدانهم أعراب أهل الماء
كاللِّصِّ و المغامرِ المنافق ... مثل حكيمٍ أشترِ وغافقي
فكل رأس قد سعى في مِصْرِهْ ... منتظرا لابن سبا و أمرِهْ
في كوفةٍ و بصرةٍ فسطاطِ ... منطلقاً من حادثِ (المِلْطَاطِ)
إذ شَغَبَ الغواةُ من بعد الوليدْ ... بقصرِ كوفةٍ على الوالي سعيدْ
نفاهمُ عثمان نحو الشامِ ... عادوا و فيهمْ نيةُ انتقامِ
تكاتَبوا أَنَ انْفِروا بسرعهْ ... فأفلح الكوفة يوم (الجرعهْ)
وبعد أن أرضاهمُ في الوالي ... تجهَّزوا لغزوهِ في التالي
وأرسلوا الرسائلَ المزورهْ ... أَنَ انْقذوا المدينَةَ المنورهْ

فصل في يوم الدار ومقتل عثمان رضي الله عنه سنة 35 هـ

وأظهَــروا الحــجَّ إلــى طيبــةَ فــي ... ســنةِ خمــسٍ وثلاثــين تفــي
فاقتربــوا وفارقــوا الحجيــجا ... واقترفــوا الثــورةَ و الضجيجــا
بفتنــةٍ ذات ثــلاث شُــعَبِ ... بــأحوصِ ذي مــروةٍ ذي خُشُــبِ
حــاورهمْ عثمــانُ حتــى اقتنعــوا ... بــردِّه و وعْــدِه فرجعــوا
ثــوارَ مصــرَ دلّ فــي الإيــاب ... مــولى لعثمــان لــذا الكتــاب
يقــولُ لِابــنِ ســرحِ:((اقْــتلهمْ فَهُــمْ ... خونــةٌ شــرِّدْ بهــم مــن خلفَهُــمْ))
كيــف وذا طلبــهُ الخليفــهْ ... قبــل انقــلاب ابــن أبــي حذيفــهْ ؟!
فغضــبوا واقتحمــوا المَدينــهْ ... وأَسكتــوا أصواتَهــا المُدِينــهْ
ســألهمْ علــيٌّ : ((يــا أهــل العــراقْ ... كيــف عــرفتم بعــد طــول الافتــراقْ ؟))
فأعرضــوا و ســألوا عثمانــا ... عــن عبــده واتهمــوا مروانــا
وطلبــوا تسليمــهُ للقتــلِ ... فلــمْ يجِــبْ فهــددوا بالعــزلِ
وشــددوا عليــه فــي الحصــارِ ... واقتحمــوا عليــه وسْــط الــدارِ
قتلــه ســودانُ والتُّجيبِــي ... والغافقِــي بعُجْبِــهِ العجيــبِ

فصل في بيعة الإمام علي كرم الله وجهه
وخروج أصحاب الجمل سنة 36هـ

وقيــل: مــن للأمــة المسكينــهْ ... يقــود فــي العواصــف السفينــهْ ؟
لكــنَّ أهــلَ طيبــةٍ أَلحُّــوا ... علــى علــيٍّ فهــو الأصــحُّ
فقــال:إن بيعتــي بالجــامِعْ ... إنْ يَــرْضَ كــلُّ شاهــدٍ وسامــعْ
فبــايَعُوا مــن دونِ مــا إكــراهِ ... والسيفُ فــي الأعنــاق قــولٌ واهِــي
فَسَــعْدُ لــمْ يأتــهِ إذْ تحيَّــرا ... وطلحــةُ مــع الزبيــر خُيِّــرا
فبايعــا مَــعَ الشعــورِ السَّــارِي ... بــأنَّ ذا مــنْ سطــوة الثــوارِ
والأمــرُ لا يَــتِمُّ إلا بالقصــاصْ ... تعزيــرهمْ وقَــتْلُهم فيــه الخــلاصْ
قــال علــيٌّ : إن هــذا ياتــي ... بعــد اعتــزال كــافة الــولاة
وبيعــةٍ تبعثهــا الأمصــارُ ... تَتْبعهــا الجيــوش و الأنصــار
ورَجْعــةِ الجُمــوع بــالتفرُّقِ ... قوَّتُهــمْ تُصــاب بالتمــزق
فَيُعْــرَفُ القاتِــلُ باستقصــاءِ ... وقبْــلَ ذا فــالأمرُ فــي استعصــاء

نـــوى الحَوَارِيَّـــان ذاك الثـــأرا ... فـــإن فـــي تعجيـــله لأَجْـــــرا
لأن مقتـــولا بـــلا استحقـــــاقِ ... بيعتُـــه تظـــل فـــي الأَعنـــــاق
واقترحـــا البصـــرة ثـــم الكوفـــه ... ليذهبـــا وينصُـــرَا الخليفـــــهْ
واســـتأذناه إذْ أبـــى فارتحـــلا ... قصْـــد أداءِ عمـــرةٍ واعتـــزلا
وأُخْبِـــرَتْ عائشـــةٌ عنـــد (سَـــرَفْ) ... أن حصـــار الـــدار جـــاوز الســـرفْ
فرجعـــتْ واتفقـــتْ فـــي الكعبـــهْ ... معهمـــا علـــى الحلـــول الصعبـــهْ
لأنهـــا أمُّ علِـــي والمسلميـــنْ ... إذ تُصْـــلِحُ الإخـــوةَ ضـــد الظـــالمينْ
فوصـــف الإمـــامُ ذا بالنكْـــثِ ... ومـــا اطمـــأن بعدهـــا للمُكْـــث
إذْ شـــاع أمْـــر أُمِّـــهِ شيوعـــا ... وقـــررتْ أن تجمـــع الجموعـــا
عامـــلُ صـــنعا مدَّهـــا بالمـــالِ ... وخصَّهـــا بأفضـــل الجِمـــال
فركبتْـــهُ ودعـــتْ للنصـــرهْ ... فـــي مكـــةٍ وفـــي طريـــق البصـــره
تـــردَّدتْ إذ نُبِحـــتْ فـــي (الحـــوأبِ) ... لـــولا أنُ اقنعـــتْ بـــدور المـــرأبِ
وقـــرّروا الإصـــلاحَ بـــين النـــاسِ ... وكشْـــفَ كـــلِّ فـــاتنٍ خنّـــاس
والثـــأرَ للخليفـــةِ المظلـــومِ ... ليأخـــذوا بحقـــه المهضـــوم
واقتحمـــوا البصـــرةَ فـــي تـــردّدِ ... بـــين قتـــالِ البعـــض أو تـــودّدِ

فصل في أخبار يوم الجمـــل سنة 36 هـ

وانضـــمتِ الكوفـــةُ للإمـــامِ ... وانطلقـــوا فـــي الجـــيش للأَمَـــام
واقتـــربَ الجيشـــان فـــي تعـــارضِ ... لكنـــه أُزِيـــلَ بالتفـــاوض
بـــاتوا علـــى الصـــلح وقبْـــل الفجـــر ... أســـرع كـــل ثائـــرٍ للغـــدْرِ
فســـارعَ الغوغـــاءُ للقتـــالِ ... وعرَّضـــوا الأمـــةَ للأهـــوال
فاســـتقتلوا واســـتقبلوا ذا حائريـــنْ ... وكلهـــم يلعـــن كـــل الثـــائرينْ !
وكـــلُّ مـــن دعـــا للاِحتكـــام ... لمصـــحفٍ غُمِـــرَ بالسِّهـــام
أُصـــيب طلحـــةُ بســـهم غُـــربِ ... لـــذا أُصـــيب حيـــدرٌ بالكَـــرْب
وحـــين بُشِّـــر بمقتـــل الزبيـــرْ ... لـــم يـــر فـــي قتـــل أخيـــهِ أيَّ خيـــر
هـــودجُ أمِّ المؤمنيـــن عائشـــهْ ... أضـــحى مغطـــى بالنبـــال الطائشـــهْ
عســـكرُ بصـــرةٍ أحـــاطوا (عســـكرا) ... وثَبَتُـــوا مـــن حولـــه فعُقِـــرا
وَمَنَـــعَ الإمـــامُ مـــن غُنْـــمِ الســـلاحْ ... والمـــالِ والأســـرى وقتْـــلِ ذي جـــراحْ

وبصـــــرةٌ قـــد بايعتْـــهُ فـــــورا ... فجعـــل الوالـــــي عليهـــا الحبْـــرا
واســـتنكر الأشـــترُ ذَا مُمْتَعِضَـــــا ... توليـــةَ القريـــبِ قـــــام ناهضـــا
وهـــددَّ الجيـــشَ بِالإنفضـــــاضِ ... وذا الخلافـــــة بِالإنقضـــــاض
فســارع الإمـــام لِـــلإِرْضـــــاءِ ... وقابـــل التهـــديدَ بِالإِغضـــــاء
ســار مـع الفـــرات فـي الشِّمـــالِ ... متَّجهًـــا للشـــام بالشَّمـــال

فصل في أخبار يوم صفين والتحكيم سنة 37 هـ

كـــل الغـــلاة شوهـــوا معاويـــــهْ ... رواتُهُـــم مثـــل الـــذئاب العاويـــهْ
وكـــلُّ مـــا فـــي الأمـــر أنـــه اجتهـــدْ ... فـــي ثـــأر عثمـــانَ فأخطـــا مـــا قصـــدْ
برفضـــــه لبيعـــــة المَدينـــــهْ ... إذ دَيْـــنُ عثمـــــانَ بـــه مَدينـــــهْ
ونَعْيِـــهِ لهيبـــــة الخلافـــــهْ ... علـــى علـــيٍّ مُظْهِـــرًا خلافـــــهْ
وظـــنَّ فيـــه أنـــــه قـــد آوى ... كـــلَّ الجنـــاة مـــن بنـــات آوى
قُبيـــل ســـبع وثلاثيـــنَ الْتقـــى ... طلائـــعُ الجيشـــين كـــلٌّ قـــد ســـقى
ثـــم التقـــى الجيشـــان فـــي صِفِّيـــنِ ... تقابـــــلا ثَمَّـــــةَ كالصَّفَّيْـــن
تفاوضـــوا فـــي شهـــره (المحـــرَّم) ... غايَتُهـــــمْ تجنُّـــبُ المحَـــــرّمِ
فالصـــلحُ خيـــرٌ دونَ حـــقٍّ مُـــدَّعَى ... كِلاهمـــا لنصـــرة الحـــقِّ دعـــــا
ثـــم انقضـــى الشـــهرُ بـــلا تنـــــازلِ ... فكـــان لابـــــدَّ مـــن التقاتـــــل
تبـــارز الفرســـان و الكتائـــــبِ ... لـــم يُبْـــدِ فـــيهم نادمـــاً كالتائـــب
ومـــرَّ أسبـــــوعٌ بـــذا القتـــــالِ ... فقـــرَّرُوا الحسْـــمَ ليـــومٍ تالـــــي
وشـــمّر الإمـــــامُ قـــــال لِفتـــــاهْ ... مـــن بعـــد مـــا تضعضـــعتْ مَجْنَبَتَـــاهْ
((هـــاتِ اللِّـــوَا واستَنْفِـــرَنْ ربيعـــــهْ ... وهمـــــدانَ يمـــــنَ الْمُطيعـــــهْ))
عـــادتْ جيوشُـــــهُ إلـــى الهجـــوم ... حتـــى أُصـــيب الشـــامُ بالوُجـــوم
كتائـــب الشـــام تضعضـــعتْ عـــدا ... كتيبـــة المـــوت تصـــدت للعـــدا
فقـــد حمـــتْ قـــائدهـــا معـــاويـــه ... عمّـــارُ حينَهـــا نعَتْـــهُ الناعيـــــهْ
تأوَّلـــــوا حـــديثَ قتْـــلِ الباغيـــــهْ ... بـــواطن المعنـــى لـــذاك لاغيـــــه
بـــل ربمـــا قَتَلَـــهُ مَـــنْ أَمَّـــــــهُ ! ... أَيَقْتُـــلُ النبِـــي بأُحْـــدٍ عَمَّـــهُ ؟!
رَدَّ عَلِـــي، و الجـــيشُ كـــان زاحفـــاَ ... فاضـــطرهمْ أنْ يرفعـــوا المصـــاحفا
مشـــورةُ ابـــنُ العـــاص حقْنـــاً للـــدِّما ... ولـــيس خدعـــةً كمـــا قـــد فُهِمَـــــا

إذْ حَـــارَ بَـــيْنَ الإِبْـــنِ ذَاك الراويـــهْ ... وبـــين مـــا أوَّلَـــهُ معـــاويـــــهْ
قـــال علـــيٌّ لهـــمُ :((أنـــا لهـــا ... كنت الإلى أولى بهـــا و أَهْلهـــا))
وشـــاع رأيُ أشـــعثٍ لا أشتـــرِ ... بهدنـــةٍ وباحتكـــام الأشعـــري
وقَبِـــلَ الإمـــام فـــي الصَّحيفـــهْ ... تنـــازلا عـــن لقـــب الخليفـــه
فعـــاد جـــيشُ الشـــام ذا موحَّـــدَا ... وعـــاد جـــيشُ كوفـــةٍ مُبَـــدَّدا
وانســـحب الـــبعض إلـــى (حَـــرُورَا) ... وندمـــوا ممـــَّـــا بـــدا كُفُـــورا
ورفعـــوا شعـــارَهم كمـــا يلـــي: ... ((الحُكْـــمُ لله ولـــيس لعلـــي)) !!
جـــادلهم علـــيٌّ ثـــم حبـــرُهُ ... فـــانتظروا كيـــف يـــؤول أَمـــرُهُ
ثـــم أتـــى ذا الحَكَمَـــانِ (أذْرَحَـــا) ... مـــن بعـــد أنْ دارتْ لـــدينا رحـــى
تكلَّمـــا فـــي عـــزلِ صاحبَيْـــنِ ... وبعـــدها تخالفـــا بالبيْـــنِ
تبـــادلا الوصـــف بـــ (عيـــرٍ) (كلـــبِ) ... مـــن غيـــر خدعـــةِ جنـــاب الكلبـــي

فصل في أخبار الخوارج ويوم النهروان سنة 38هـ

تجهَّـــز الإمـــامُ بعـــد ذا الفشـــلْ ... ليغـــزو الشـــامَ ولكنـــَّـــهُ شُـــلْ
خـــوارجٌ عـــادَوْهُ مـــن جديـــدِ ... لـــم يكتفـــوا بالقـــول والتهديـــد
قائـــدهمْ هـــو ابـــنُ وهـــبِ الرَّاســـبي ... بفتنـــةٍ لخاســـرٍ وراســـب
أُوارُهـــا عـــلا لِـــذات الحُبُـــكِ ... مُســـعِرها مســـعرٌ اِبـــنُ فـــدَكي
أقوالهـــم كـــرائمُ النصـــوصِ ... أفعالـــهم جـــرائم اللصـــوص
إذ قتلـــوا وَلَـــدَ خبَّـــاب الأرتْ ... دمـــاءُ زوج حامـــلٍ لـــه جـــرتْ
رأى الإمـــامُ أن ذا حرابـــهْ ... بغـــيٌ أعـــدَّ لَهـــمُ حِرَابَـــهْ
فجـــاء بالجيـــش بـــلا توانـــي ... حتـــى التقـــوا بقـــرب نهـــروان
ونصَـــبَ الرايـــةَ للأمـــانِ ... ليرعـــوِي متبـــعُ الأمانـــي
مـــا إنْ أتـــى الحُمـــاة والكُمـــاةُ ... كأنمـــا قـــد قيـــل (موتـــوا)ماتـــوا
وجـــيءَ بالثديَّـــة المخـــدوج ... علامـــةِ المُـــروقِ و الخُـــروجِ
وطلبـــوا الراحـــةَ إذ تسلَّلُـــوا ... لأهلهـــمْ كأنمـــا تحلَّلـــوا
مـــن بيعـــة القتـــالِ إذْ لـــم ينفـــروا ... مَـــعَ إمَـــامِهِمْ لـــذا لـــم يظفُـــرُوا
فـــزاد أَمْـــرُ كوفـــةٍ تفتيتـــا ... أَنْ أَصْبَـــح الأمـــرُ بهـــا شتيتـــا
فبصـــرةٌ أهاجهـــا معاويـــهْ ... بالحضـــرمِي لـــولا قـــدومُ جاريـــهْ

وفـــارسٌ إضـــطربتْ لـــولا زيـــــادْ ... وكـــانَ أمـــر الخـــارجين فـــي ازديـــادْ
واهتـــــزَّتِ الأهـــــوازُ بالخريـــــــتِ ... ذاك الـــذي قـــد ثـــار كالعفريـــت
فـــي ثـــأر عثمـــانَ وأهـــل النهـــرِ ... وثـأرِ بصـرةٍ وأهـــلِ الكفـــر !!
دعـــا النصـــارى ودعـــا الأعلاجـــا ... ليمنعـــوا الجزيـــةَ و الخراجَـــا
أثـــارَهُمْ خريـــتُ ذاك النـــاجِي ... مـــعْ قومـــه فلـــم يكـــن بالناجـــي

فصل في اضطراب أمر الإمام علي في سائر الأمصار سنة 39 هـ

وعـــامُ تســـعٍ وثلاثيـــنَ أتـــى ... بفقْـدِ مصـــرَ بعـد ذلـك الفتـــى
قـيسِ بْـنِ سـعد بـن عبـادةَ الـذي ... هـــدَّأَ مصـــرَ بـدهاءِ الأَحْـــوَذِي
إذْ هـــادَنَ الـــذين مـــعْ عثمـــان فـــي ... (خَرَبْـــتَ) كـــان لعلِـــي خيـــرَ وَفِـــي
ظـــنَّ الإمـــــامُ أَنـــــه جـــاسوسُ ... أو أنـــــه بالحـــــزم لا يســـــوس
ســـعيٌ مـــن الوشـــاةِ والخصـــومِ ... تعويضُـــهُ بالأشتـــر المسمـــوم
ولَّـــى محمـــــدَ بـــن ذا الصديـــقِ ... أوصـــاه بالحـــــزم وبالتضييـــق
بقولـــه" إنْ بايعـــتْ (خَرَبْتَـــــا) ... أصْـــلحتَ لكـــنْ دون ذا خرَّبتـــا"
فجاءهـــــا مـــن دون مـــا إعـــدادِ ... قابلـــه ابـــنُ العـــاص بالأمـــداد
وصـــاح:" ياجيوشَنَـــا أجيبـــي ... ذانِ المحمـــــدانِ والتُّجيبـــي
هـــمُ الذيـــن قتلـــوا عثمانـــا" ... فكـــانَ مـــن أمـــورهم مـــا كانـــا
خصـــمُ علـــيٍّ حـــاز جـــلَّ الأمـــرِ ... إذ هـــدَّد الأنبـــارَ عـــينَ التمـــرِ
ووزَّع الجـــيشَ علـــى الأطـــرافِ ... ونـــال فـــي الحجـــاز بالإشـــراف
فـــي يمـــنٍ قُتـــل بعـــضُ ذي الشـــرفْ ... ولـــم يكـــن بـــالحرمين مـــن ســـرفْ

فصل في مقتل الإمام علي كرم الله وجهه سنة 40هـ

وتسليم الحسن الخلافة لمعاوية رضي الله عنهما

ثـــم التقـــى ثلاثـــة ممـــن بقِـــي ... مـــن الخـــوارج وهُـــمْ جمـــعٌ شقِـــي
فـــي المســـجد الحـــرام عـــام الأَربعـــينْ ... وكـــان إبلـــيسُ لهـــمْ هـــو المعيـــنْ
وقـــرروا فـــي طاعـــة الله العلـــي ... بـــأن حُكْـــم الله فـــي قتْـــل علـــي
وابْـــنِ أبـــي ســـفيانَ وابـــنِ العـــاص ... وهـــل يطـــاعُ الله بالمعاصـــي ؟ !
تواعـــدوا يومـــا كبـــدر قَتْلَهُـــمْ ... فـــي رمضـــان شـــهر صـــومٍ ويلهـــمْ
عـــن مقتـــلٍ طعنـــةُ بُـــرْكٍ خارجـــهْ ... وطعنـــةُ البِكْـــرِ أصـــابتْ خارجـــهْ

ولـــم تُصِـــبْ مـــن مبتغـــى مـــــرادِ ... ســـوى التـــي أتـــتْ مـــن المـــــرادي
ذا عابِـــدُ الرحمـــان ذا ابْـــنُ ملجـــمِ ... وعـــن هـــواهُ مَالَـــــهُ مـــن مُلْجِـــــمِ
كَشَـــفَ زَيْـــفَ دِينـــهِ الحُطَـــــامُ ... إذْ أخـــــذتْ بلُبِّـــــه (قطـــــامُ)
واشـــترطتْ رأس عَلِـــي فـــي المَهْـــرِ ... ثـــأرًا لقتْـــلِ أهلِهـــا فـــي النهـــــر
ثـــم تهيَّـــــأَ لفعـــــل القُبْـــــحِ ... بمســـجدٍ عنـــد صـــــلاةِ الصبـــــحِ
ضـــربهُ علـــى الجبـــينِ الطاهـــــرِ ... بســـيفهِ المســـمومِ ضـــرْبَ مَاهـــــر
وبعـــد مـــا أَوصـــى الإمـــامُ بالتُّقـــــى ... وبالقصـــاص وحـــدَهُ مـــن ذي الشـــقا
وقـــال: "لسْـــتُ آمـــرًا أو ناهيـــَـــا ... عمَّـــن يلـــي بعـــديَ" مـــات راضيـــَـا
بـــه انتهـــتْ خلافـــــةُ النبـــــوهْ ... مُلْـــكٌ عضـــوضٌ بعـــدَهُ بالقـــــوهْ
إذ بويـــع الحَسَـــنُ خيـــــرُ سِبْـــــطِ ... وقـــال: سِـــلْمِي ســـلمُكُمْ ذا شـــرطي
واضـــطربَ الأَمْـــرُ لنصـــفِ عـــامِ ... فسلَّـــم الحُكْـــمَ لأهـــل الشـــــام
بِفَضْـــلِه قـــد تَّمَّـــتِ الجماعـــــــهْ ... وذا حـــديثٌ قـــد رَوَوْا سَمَاعَـــــــهْ

أقاليم الشرق الاسلامي

المحاضرة الثانية:

الخلافة الأموية في العهد السفياني

- **أهم ملامح سياسة معاوية :**

قبيل انتصاف ربيع الأول 41 هـ ابتدأ حكم معاوية بن أبي سفيان للأمة الإسلامية قاطبة و استمر عشرين سنة ، و كان حريصا في سياسته على تطوير بنية الجيش ليغدو ثابتا و قويا بل و متطورا ... و أيضا على هيكلة الإدارة و تحقيق التوازنات بين العصبيات القبلية و على الإحسان إلى كبار الشخصيات و لو عارضوه ... كما حرص على مواصلة الفتوحات خارجيا مع إجهاض معارضات الخوارج و قمعها داخليا ، و كان يباشر أمور الدولة بنفسه بأكبر قدر ممكن ... هذا، و لئن كان معاوية شديدا مع الخوارج المسلحين- خصوصا بالعراق- فإنه كان يتغاضى عن سياسة اللين التي انتهجها والي العراق المغيرة بن شعبة تجاه المعارضة السلمية التي تحبذ عهد علي و تحن إليه و تنتقد معاوية من خلال ذلك ، لكن الأمر تغير في منتصف عهده إذ توفي هذا الوالي و حل محله زياد بن أبيه الذي صحح معاوية نسبته المجهولة بأن اعتبره أخا له (أي ابن أبي سفيان) و هذا الوالي مارس الشدة على من يشم منهم رائحة الانتقاد أو التشيع و قد ذهب ضحية ذلك حجر بن عدي الكندي الذي أعدم بتسرع قرب العاصمة دمشق ... لكن أخطر ما أخذ على معاوية في سياسته هو تنصيبه لابنه يزيد وليا للعهد و مطالبته للأمة أن تبايعه على ذلك في حياته و هو بعمله هذا قد أزاح كل مرشح محتمل يومها للخلافة فيما لو كانت شورى بعده ، فضلا عن تخوفه من عودة الفتن ، و قد تمكن معاوية من تهيئة الأمور لنجاح هذه البيعة سنة 56 هـ و لم يثبت على معارضته إلا عدد قليل من أبناء كبار الصحابة كالحسين و ابن الزبير و ابن عمر و ابن أبي بكر و ابن عباس ...

- **أهم الفتوحات و التنظيمات في عهد معاوية :**

حاولت جيوش الاسلام تثبيت فتح بلاد فارس و تجاوزها إلى ما وراءها لكن التركيز على قمع بعض محاولات التمرد لدى الفرس أو قمع ثورات الخوارج بالمشرق حال دون توسع هذه الفتوح بشكل كبير مشرقا ، أما بلاد الروم التي في شمال الشام فقد أقام معاوية فيها مراكز دفاعية و ثبت معها حاميات عسكرية حدودية

تسمى الثغور بل أصبحت هناك حملات منتظمة تسمى الشواتي و الصوائف ... و أيضا بنى معاوية البحرية الاسلامية ليغير بها على السواحل البيزنطية بل وصل الأمر بالجيوش البرية و البحرية إلى التقدم نحو العاصمة القسطنطينية ذاتها و محاصرتها في منتصف عهد معاوية و في أواخر عهده دون جدوى لشدة حصانتها و تطور اسلحتها الدفاعية و للظروف الطبيعية ... و لذا اكتفى معاوية بهدنة طويلة الأمد ...أما بلاد تونس(افريقية) التي كان القائد معاوية بن حديج بصدد فتحها فإن تعيين قائد جديد يدعى عقبة بن نافع ساهم في استكمال فتح صحاري ليبيا و جنوب تونس ثم بنى عقبة مدينة القيروان لتكون قاعدة للفاتحين ، و قد حل القائد ابو المهاجر دينار محل عقبة و قام بفتح المغرب الاوسط (الجزائر) إلى غاية تلمسان مرتكزا على مدينة ميلة المحصنة طبيعيا و معتمدا على سياسة اللين التي اكتسب بها قلوب السكان البربر و على رأسهم زعيمهم كسيلة ، لكن القائد عقبة عاد من جديد بعد وفاة معاوية ليلغي كل هذه الاجراءات ...

و تبقى الاشارة إلى أن حكم معاوية قد نجح في تطوير و استكمال النظم الادارية التي ورثها عن العهد الراشدي كدواوين الجند و الخراج و الرسائل ... أو حتى التي ورثها عن النظم البيزنطية و الفارسية السابقة مضيفا إليها ديوان الخاتم و ديوان البريد ... بل إنه كان يعتمد على بعض النصارى الذين كانوا في الإدارات المحلية مثل سرجون و ابنه منصور ...و قد توفي معاوية منتصف عام 60 هـ افريل 680 م.[4]

- **اضطرابات خلافة يزيد بن معاوية :**

بايع الناس يزيدا مباشرة بعد أبيه مراعاة لبيعتهم السابقة له على ولاية العهد ، و لم يعكر الصفو إلا امتناع الحسين و عبد الله بن الزبير بالمدينة بل و إسراعهما نحو مكة حيث لم يتمكن واليها من إجبارهما ... وهكذا وجد الخليفة الجديد نفسه أمام تحديات تفرض نفسها عليه تمثلت في تحرك الحسين من مكة نحو اهل العراق و اعتصام ابن الزبير بالكعبة بل و تمرد اهل المدينة ....

فأما العراقيون فلطالما انتظروا فرصة وفاة معاوية لتعود الخلافة اليهم كما كانت أيام علي ، و لذا بادروا بمراسلة الحسين و استدعائه من مكة ليقودهم نحو تصحيح وضع الخلافة ، و كان الوالي النعمان بن بشير يتغاضى عن هذه التحركات بل إن الحسين أوفد قبل انطلاقه ابن عم له يدعى مسلم بن عقيل بن ابي طالب ليجس نبض اهل الكوفة فلما جاءها وجدها تتأهب لاستقبال الحسين فأرسل إليه يشجعه على المجيء بسرعة ، لكن الخليفة يزيدا عزل الوالي و عين مكانه والي البصرة عبيد الله بن زياد بن أبيه مكلفا إياه بضرورة الحسم و الحزم لاجهاض

[4] د. الغيث (خالد بن محمد) مرويات خلافة معاوية ... في تاريخ الطبري ، دار الايمان الاسكندرية 2004 ص 179 – 447 .
الغضبان (منير محمد) معاوية صحابي كبير وملك مجاهد ، دار القلم دمشق 1989 ط2 ص 242 – 379

حركة الحسين ، و هو ما قام به ابن زياد فور دخوله الكوفة إذ هدد أشرافها حتى انفرط عقد المتحمسين حول مسلم بن عقيل إلى أن تم القبض على هذا الأخير و أعدم أمام الناس فازدادوا خوفا و رهبا ، في الوقت الذي كان فيه الحسين مع أهله و بعض أنصاره في الطريق الصحراوي نحو العراق يحثون الخطى بتشجيع من رسائل ابن عقيل السابقة ،و لم يعلم بانقلاب الوضع ضده إلا عند الاقتراب من الكوفة ، و هناك أحاط به الجيش الأول ، و كان الوالي ابن زياد قد أمر جيشا كبيرا –كان يستعد للتوجه إلى الجهاد نحو الحدود ضد الكفار بقيادة عمر بن سعد بن ابي وقاص– بألا ينطلق نحو الفتوحات إلا بعد أن يقضي على الحسين ... و هكذا التفت هذا القائد عمر مع جيشه على مضض نحو كربلاء حيث يصمد الحسين رافضا الاستسلام ، فأحاطوا به إحاطة السوار بالمعصم و عرض عليهم اقتراحات كالسماح له بالرجوع إلى مكة أو الذهاب إلى أحد ثغور الجهاد أو إلى الخليفة بالعاصمة دمشق ، و قد رفضت كلها و لم يتركوا أمامه إلا الاستسلام أو القتال فاستمهلهم إلى الغد و كان ذلك اليوم هو عاشوراء من مطلع عام 61 هـ و يومها تقدم الرجال و الفتيان من أنصاره و أقاربه و أبنائه يقاتلون بشكل مستميت الجيش الذي يحاصرهم فيقتلون الواحد تلو الأخر ، ثم قاتلهم الحسين بنفسه الشريفة حتى استشهد رضوان الله عليهم أجمعين ، ثم أخذ الصبيان و النسوة أسارى مع رأس الحسين إلى الوالي ابن زياد ثم بعث بهم جميعا إلى الخليفة يزيد بدمشق فأظهر التأسف لما حصل و أكرم أهل البيت ...

هذا و لقد كان لكربلاء دوي هائل و صدى مماثل في أرجاء الأمة الإسلامية ، و حاول يزيد التظاهر بالحكمة إزاء الانتقادات الموجهة إليه ، لكنها تصاعدت ضده في الحجاز بصفة خاصة فالتف أهل مكة حول ابن الزبير و فشلت محاولات الوالي لاحتواء الموقف ، بل إن الامر ازداد سوءا عندما احتج أهل المدينة ضد الوالي و ضد مبعوث الخليفة و حاول يزيد ان يتفاوض مع وفد من أهلها لكن هذا الوفد الذي اظهر له الرضا سرعان ما أعلن التمرد عليه فور وصوله إلى المدينة فأعلنوا العصيان ثم جاءتهم جيوش الشام بقيادة مسلم بن عقبة المري محملا بصلاحيات واسعة لقمعهم ، و هو ما حدث فعلا بعد انهزام الثوار في وقعة الحرة قرب المدينة ، لتنتهك الحرمات بعد هذه الهزيمة و ليجبر الناس على بيعة ذليلة نهاية عام 63 هـ ، و مع انطلاق الجيش الشامي نحو مكة توفي القائد مسلم بن عقبة و تولى مكانه نائبه الحصين بن نمير السكوني فحاصر مكة حصارا شديدا إلى أن جاءهم خبر وفاة يزيد في ربيع الأول 64 هـ.[5]

[5] ابن الأثير ، الكامل ، 3 ص 263 - 316

- **الاضطرابات السياسية بعد يزيد :**

شهد منتصف عام 64 هـ انفجارا للوضع السياسي برمته في أقطار الأمة الإسلامية إذ أن استقالة معاوية الثاني (ابن يزيد) و تركه الأمر شورى من جهة و إعلان ابن الزبير نفسه خليفة من جهة أخرى جعل الأمصار كلها تولي وجهها شطر مكة لتبايع الخليفة الجديد دون تردد أو أدني أسف على أسرة بني أمية المثقلة بالأخطاء و المثخنة بالانتقادات ، و قد هرب والي العراق ابن زياد نحو العاصمة دمشق خوفا على نفسه و رجع الجيش الشامي المحاصر لمكة تاركا الحجاز وراءه نحو العاصمة أيضا ، و التقت القوى القبلية الشامية المحالفة لبني أمية في منطقة الجابية بالجولان السوري و تقرر هناك تنصيب شيخ بني أمية (مروان بن الحكم) خليفة يواصل المهمة التي بدأها معاوية، لكن قوى شامية أخرى لم تعد تتحمس للأمويين التفت حول القبائل القيسية و ضغطوا على زعيمها الضحاك بن قيس (و هو آنذاك الوالي على العاصمة ذاتها) ليعلن ولاءه لابن الزبير لكنه تردد ثم حزم أمره ضد بني امية فاندلعت الحرب بين الطرفين قرب دمشق في مرج راهط و قتل الضحاك و انهزمت القيسية لينتصر مروان آخر عام 64 منتصف 684 م .

و لم تأت سنة 65 هـ حتى أسرع مروان نحو فلسطين و مصر فأخذهما من ابن الزبير كما بعث بجيشين احدهما نحو الحجاز حيث ظل يراقب الزبيريين عن كثب دون تقدم يذكر ، اما الجيش الآخر فزحف نحو شمال العراق حيث تحصن بقايا القيسية المنهزمين و هذا الجيش الثاني كان يقوده عبيد الله بن زياد أي الوالي السابق للعراق.

أما بقية العراق فكان جنوبها خالصا لابن الزبير في البصرة حيث كان أخوه مصعب يحاول تثبيت ولاء زعماء القبائل لصالح أخيه من جهة و يحاول قمع الخوارج من جهة ثانية ، أما وسط العراق فكانت تتجاذبه الاهواء إذ كان يتولاه في الكوفة ولاة لصالح ابن الزبير و تنهشه ثورات الخوارج و المغامرين ... و كان يضج بشعارات الشيعة المنادية بالثأر للحسين و خاصة منهم المخلصون الذين نادوا بالتوبة من خذلانه فسموا (التوابين) و كان يقودهم سليمان بن صرد الخزاعي، و كونوا جيشا متسرعا واجهوا به جيش ابن زياد فقتل أكثرهم في (عين الوردة) 66 هـ في الوقت الذي انقض على حكم الكوفة شيعي مغامر يدعى المختار الثقفي منفصلا عن ابن الزبير و مناديا بثارات الحسين و منتميا لأخ غير شقيق للحسين يدعى محمد بن الحنفية فالتف حوله كافة أنواع الشيعة بمن فيهم بقايا التوابين ، و لقد تمكن جيشه من إيقاع الهزيمة بالجيش الاموي في (الخازر) بل و قتل قائده ابن زياد في عاشوراء 67 هـ ... ثم راح المختار يتتبع كل من اتهم بالمشاركة في كربلاء من الكوفيين و قتل الآلاف منهم و هرب من بقي من الأشراف جنوبا نحو البصرة يستنجدون بواليها مصعب الذي خرج معهم بجيشه زاحفا على الكوفة ، فهزم جيش المختار ثم حاصره في الكوفة ، و قد قتل المختار و هو يحاول اختراق

صفوف محاصريه في رمضان 67 هـ بل إن أشراف الكوفة ضغطوا على مصعب حتى أمر بقتل من استسلم له من أتباع المختار من الموالي غير العرب .

أما الشام فقد اضطرب حكمها بعد وفاة مروان أواخر 65 هـ و تسلم الحكم ابنه عبد الملك ، لكن هذا الأخير انشغل قبل سنة 70 هـ بالقضاء على ابن عمه الاشدق ، (عمرو بن سعيد بن العاص) و كان قد نافسه على الحكم فاستدرجه عبد الملك حتى قتله ، وهكذا اطمأن على عرشه و التفت بعدها إلى العراق زاحفا على مصعب مكاتبا زعماء القبائل حتى سهلوا له هزيمته و قتله في موقعة (باجميرا) منتصف عام 72 هـ نهاية 691 م و بادر عبد الملك بإرسال جيش آخر يقوده الحجاج بن يوسف الثقفي ليحاصر عبد الله بن الزبير في مكة و يضيق عليه الخناق إلى أن هزمه و قتله هو الآخر منتصف عام 73 هـ ليخلو الجو السياسي تماما لعبد الملك و يصبح خليفة على المسلمين بصفة كاملة دون منازع .[6]

[6] ابن كثير ، البداية والنهاية ، مجلد 4 ج 8 ص 191 – 281 .

ترتيب أهم أحداث اضطرابات
نهاية العهد السفياني 60-64 هـ

منتصف رجب 60 هـ =قبيل انتصاف 680 م

وفاة مؤسس الدّولة الأموية معاوية بن أبي سفيان وتولي ابنه يزيد للخلافة.

10 محرم 61 هـ = 11 اكتوبر 680 م

مقتل الحسين بن علي رضي الله عنهما في كربلاء قرب الكوفة على يد جيش والي العراق عبيد الله بن زياد .

62 هـ =681 – 682 م

إعلان عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما للثّورة في مكّة باعتباره عائذا بالبيت وقد فشلت الحملة التي بعث بها والي المدينة الأشدق (عمرو بن سعيد)، بقيادة أحد إخوة ابن الزّبير، كما أنّ وفدا مدنيا بقيادة عبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصاري يعود من العاصمة دمشق محملا بهدايا الخليفة يزيد وجوائزه لكّن أعضاء الوفد قاموا بالتحريض ضدّه .

أواخر 63 هـ = صيف 683 م

الجيش الأموي بقيادة مسلم بن عقبة المرّي يهزم جيش أهل المدينة في وقعة الحرّة ويقتحمها ويذلّ أهلها، وفي الطّريق نحو مكّة توفي القائد مسلم وتولى مكانه الحصين بن نمير السّكوني .

بداية 64 هـ = نهاية 683 م

الحصين يحاصر بجيشه الأموي مكّة (الحصار الأوّل) ويضيّق الخناق على ابن الزبير الذّي تحالف معه الخوارج وغيرهم

انتصاف عام 64 هـ= مطلع 684 م

توارد الأخبار حول وفاة يزيد واستقالة ابنه معاوية الثّاني ثمّ وفاة هذا الأخير، ووصولها تباعا إلى الأمصار ليرفع الحصين الحصار عن مكّة وينسحب بالجيش الأموي عن الحجاز كلّه نحو العاصمة دمشق والتّي فرّ إليها الوالي ابن زياد من البصرة لتبدأ الاضطرابات في كافة الأقاليم.

ترتيب أهم أحداث اضطرابات
بداية العهد المرواني 64 – 73 هـ

الأشهر الأخيرة 64 هـ =ربيع سنة 684 م

ابن الزّبير يعلن نفسه خليفة للمسلمين فتبايعه أكثر الأمصار بما فيها الشّام، بل إنّ والي العاصمة دمشق الضّحاك بن قيس الفهري كاد أن يبايعه لولا أنّ أنصار الأمويين كقبائل كلب وغيرها من حلفائهم تجمعوا بالأردن، ثمّ إنّهم بعد مشاورات بمنطقة الجابية في الجولان بايعوا شيخ بني أميّة مروان بن الحكم .

مطلع عام 65 هـ = صيف 684 م

انهزام الضّحاك في موقعة مرج راهط قرب دمشق بين القبائل القيسية وحلفائها ممّن أراد مبايعة ابن الزبير، والقبائل اليمنية وحلفائها من أنصار الحكم الأموي الذّي استعاد الخلافة بقيادة مروان ومقتل الضّحاك وتراجع المنهزمين نحو شمال الفرات، ونجاح مروان في استعادة فلسطين ومصر وإرساله لجيشه بقيادة الوالي السابق للعراق عبيد الله بن زياد نحو الفرات ...

ويقابل هذا كلّه اضطرابات فارس وخراسان الّتي تسبب فيها عبد الله بن خازم السّلمي حين استلم مقاليد الأمور من الوالي المنسحب (سلم بن زياد أخي والي العراق) فأثار ضدّه قبائلها وإن ادّعى ولاءه الزّبيري دون جدوى، أمّا البصرة فقد هاجت قبائلها ضدّ ابن زياد حتى اضطرته للفرار، واتفقت على توليت بعض الشّخصيات، إلى أن عيّن عليهم ابن الزّبير أخاه مصعبا، وكذلك فعلت الكوفة إلا أنّ شيعة هذه المدينة هاجوا مظهرين شعارات النّدم على كربلاء، والثّأر للحسين خصوصا مع سماعهم أخبار اقتراب الجيش الأموي .

أواخر 65 هـ =صيف 685 م

وفاة مروان بعد تثبيته الحكم بدمشق والشّام كلّها وفلسطين ثم مصر، وجعل ولاية العهد لابنه عبد الملك دون ابن عمّه الأشدق (عمرو بن سعيد) ناقضا بذلك اتفاق الجابية، أمّا ابنه عبد الملك فتولى الحكم برباطة جأش قوية في ظروف عصيبة ... وأبرزها ما كان يحدث بالكوفة من التفاف الشّيعة التوّابين حول الصّحابي سليمان بن صرد الخزاعي متلهفين للثّأر لدم الحسين ومتحرقين بالنّدم عليه، فسارعوا إلى الذّهاب شمالا لملاقاة ابن زياد وجيشه الأموي الذي أوقع بهم مقتلة عظيمة في عين الوردة.

منتصف 66 هـ = مطلع 686 م

يدخل المختار بن عبيد الثقفي الكوفة (وكان محالفا لابن الزّبير في حصاره الأوّل بمكّة ثمّ انفصل عنه) ورفع بها شعارات الشّيعة، مدعيّا أنّ ابن الحنفية الأخ غير الشقيق للحسين قد بعثه إليهم، فالتف حوله الشّيعة خاصة بعد مقتل التّوابين، وانقضّ بهم على ولاة ابن الزّبير ليتسلم حكم الكوفة محاولا استرضاء أشرافها، وقرّب إليه أحدهم – وهو ابراهيم بن الأشتر النّخعي – ليجعله قائد جيشه ضدّ الأموين لكنّه – بعد تجهيزه إياه – عاد واستدعاه للقضاء على ثورة الأشراف ... ثمّ أمر بتقتيل كلّ من شارك ضدّ الحسين في كربلاء، وهكذا طارت شهرته في الآفاق.

مطلع 67 هـ = منتصف 686 م

موقعة (الخازر) قرب الموصل وسحق الجيش الأموي على يد جيش شيعة المختار، بل ومقتل القائدين اللذين توليا مأساة كربلاء وحصار مكّة – وهما ابن زياد والحصين – مما زاد في رفع قيمة المختار على حساب النفوذ الزّبيري المتراجع .

رمضان 67 هـ = مارس 687 م

زحف مصعب من البصرة، بإلحاح من الناجين من أشراف الكوفة – نحو جيش المختار، وقضى عليهم في موقعة المذار، ليحاصر فلولهم بالكوفة إلى أن قُتل المختار واستسلم الباقون – وهم ألوف – فقتلوا جميعا .

68 هـ = 687 – 688 م

افتراق الخوارج بين غلاة و معتدلين (نجدات و إباضية و صفرية و قعدة ...) واضطراب البصرة بعد أن عزل عبد الله بن الزبير أخاه مصعبا عنها، ليولي ابنه الضّعيف حمزة والذّي فشل في مواجهة تهديدات الخوارج، فأعيد مصعب إليها ... أمّا الشّام فتعرضت قبل هذا العام وبعده لتهديدات الرّوم وبعض أذنابهم ممّن يسمون الجراجمة، لولا حنكة عبد الملك ودهاؤه.

69 – 70 هـ = 688 – 689 م

عبد الملك بن مروان يؤجّل زحفه نحو مصعب ليلتفت إلى العاصمة دمشق الّتي تحصّن فيها ابن عمّه الأشدق، والّذي راح يطالب بحقّه في الخلافة ... وبعد مفاوضات ووساطات تظاهر عبد الملك بقبول الحلول الوسطى، وحاول ترضية منافسه، ثمّ استدعاه إلى قصره ملاطفا إياه، ليأمر بعد ذلك بقتله، وينهي بذلك مسألة التمرّد داخل البيت الأموي.

71 – 72 هـ = 690 – 691 م

موقعة (باجميرا) قرب الكوفة، حيث الانتصار المدوّي لعبد الملك على زبيرية العراق، حيث استبسل كلّ من مصعب وقائده المخلص ابن الأشتر في القتال إلى أن قتلا، بينما تمكّن عبد الملك من استمالة أشراف القبائل ... وكذلك الأمر مع ابن خازم في خراسان وفارس، إذ سئمت قبائل العرب بها سياساته، فمالت إلى عبد الملك، بينما ثبت ابن خازم على ولائه الزّبيري إلى أن قتله منافسوه تقرّبا لعبد الملك.

73 هـ =692 م

الجيوش الأموية بقيادة الحجّاج بن يوسف الثّقفي تحاصر مكّة الحصار الثّاني، فيستبسل ابن الزّبير في الدّفاع عن معقله الأخير، ونظرا لاستمرار تضييق الخناق عليه انفضّ عنه أتباعه شيئا فشيئا، بينما استمات ابن الزّبير في القتال حتى قُتل ليتستتب الأمر في كلّ الأقاليم لعبد الملك وأسرته المروانية.

مقتطفات من (المنظومة الملحمية في أخبار ملك بني أمية)

أمـــا التـــى بعـــد الجماعـــة فقـــل: مـــا بـــين رشْـــد و عَضـــود تنتقـــلْ
وعـــن خلافـــة غـــدتْ بـــالقهر نظمـــتُ مُلْكـــا دام ألـــف شـــهر
و عـــن ملـــوك بعضـــهم كالشـــمس نســـل أميـــةَ بـــن عبـــد شـــمس
منظومـــة ســـميت: ملحميـــه عـــن خلفـــا ملـــك بنـــي أميـــه

فصل في خلافة معاوية رضي الله عنه

أوَّلهـــمْ هـــو معاويـــةُ مـــنْ نـــال الخلافـــة بتســـليم الحســـن
عشـــرون عامـــا ملكـــه عضـــوضُ و كـــان للفـــتح بهـــا نهـــوض
كـــابن خُـــديج –أي سَـــمِيُّهُ– فَـــعِ لمغـــرب فعقبـــة بـــن نـــافع
ثـــم أبـــو مهـــاجرٍ دينـــارُ فـــالقيروان للجيـــوش دار
كـــان الربيـــع بـــن زيـــاد الحـــارثي لمـــا وراء الفـــرس خيـــر وارث
و قـــادة ضـــد ثغـــور الـــروم و منتهـــى مختـــرق التخـــوم
مدينـــة القيصـــر بالحصـــار مـــع أبـــى أيـــوبٍ الأنصـــاري
حكْـــم معاويـــة بالمُلْـــك بـــدا فـــي أمـــره خـــلافُ رُشْـــد قـــد بـــدا
مُسْـــتَلْحِقًا اِبـــن الزنـــا زيـــادا أهـــل العـــراق لـــم يـــروا حيـــادا
كقتْـــل حجـــر بـــن عـــدي الكنـــدِي أو فـــرْض بيعـــة ولـــي العهـــد
لنجْلـــه اليزيـــد دون شـــورى فاســـم الخلافـــةِ غـــدا قشـــورا

فصل في خلافة يزيد بن معاوية ومقتل الحسين رضي الله عنه

فـــي رجـــب الســـتين بالتبيـــانِ قـــد بـــدأت إمـــارة الصـــبيان
طولـــب بعـــضُ الصـــحب بالمبايعـــه ممـــن لهـــم بـــين الـــورى مشـــايعه
فـــابنُ الزبيـــرِ والحســـينُ هربـــا لمكَّـــةٍ ،كلاهمـــا الملـــكَ أبـــى
أهـــل العـــراق كـــاتبوا الحســـينا: (أقـــدم وســـارع بـــالخطى إلينـــا)
وغـــرَّروا بـــابن عقيـــلٍ مســـلمِ مبعوثِـــه مكاتبـــا: أن أقـــدم
هـــو ابـــن عمـــه الـــذي قـــد خُـــذِلا بكوفـــة فـــي قصـــرها قـــد قُـــتِلا
بـــأمر واليهـــا عبيـــد الله ابـــن زيـــاد مـــا لـــه مـــن نـــاه
وأُخبـــر الحســـين حينمـــا دنـــا بـــالأمر قـــرب كوفـــة فمـــا انثنـــى
بـــه أحـــيط وبكـــل مـــن معـــهْ هـــم مئـــة ولـــيس فـــيهم إمعـــه

رجـــالهم هـــم شـــهداء كـــربلا ... والله إنهـــــا لكـــــرب وبـــــلا
دون الحسـين استشـهدوا ثـم مضـى ... ســـبطٌ إلـــى الجنـــة واللهُ قضـــى
لـــم يـــرْض أن يُـــذل فـــي عاشـــورا ... أو أنْ يصـــير الحكـــم دون شـــورى
أو أنْ يُـــــرى مبايِعـــــا مأســـــورا ... أو أن يعـــيش مُكْرَهًـــا مقهـــورا
فلعنـــة الله علـــى مـــن انتضـــى ... فيـــه بســـيف أو بقتلـــه ارتضـــى

فصل في ثورة أهل المدينة وابن الزبير بمكة أواخر خلافة يزيد

وبعـــد عـــام ثـــارتِ الحجـــازُ ... فـالبعض مـن أهـل الحجـى أجـازوا
فبـــايعوا نجـــل الزبيـــر العائـــذ ... بمكـــــة وبحماهـــــا لائـــــذ
وكـــلُّ ســـاكنِ المدينـــة مطيـــعْ ... لابـــن الغســـيل معقـــلٍ وابـــن مطيـــع
خليفـــةُ الشَّـــئَام قـــد رمـــاهم ... بجيشـــــه فانتُهكـــــت حمـــــاهم
فمســـرف بـــن عقبـــة المـــرِّيُّ ... أيْ مســـلم بـــل مجـــرم عتـــيُّ
فـــاقتحم المدينـــة المنـــوره ... مـــعْ أنهـــا بخنـــدق مســـوره
فقَتـــل الأنصـــار يـــوم الحَـــرَّه ... وافـــتضَّ ألـــف أَمَـــةٍ وحُـــرَّه
ومـــن بقِـــي فَخَـــوَلٌ عَبيـــدُ ... ولـــولا الاكـــراه لقـــد أُبيـــدوا
ثُمـــة مـــات مـــن يســـمى المســـرفا ... أضـحى الحُصـين بـن نُميـر الخَلفـا
محاصـــرا ابـــنَ الزبيـــر بالشـــعابْ ... مـــن حـــول مكـــة فـــزادت الصـــعاب

فصل في اضطراب أمر بني أميّة
وتوليتهم لمروان بن الحكم وابنه عبد الملك

ورُفـــع الحصـــارُ مـــعْ مـــوت يزيـــدْ ... قـــال معاويـــة الابـــن: "لـــن أزيـــد"
أضـــحى بنـــو أميـــةٍ فـــي ضـــير ... تـــــداعتِ الامصـــــار للزبيـــــري
بيعتـــــه ســـــرتْ إلـــــى دمشـــــق ... فأيقنـــــت أميـــــةٌ بـــــالمحق
أحلافهـــم أتـــت مـــع اليمانيـــه ... إليهمـــــو فاعتصـــــموا بالجابيـــــه
صـــاروا بجنـــد للحصـــين فـــي ازديـــادْ ... وقـــد أتـــاهمْ هاربـــا اِبـــن زيـــاد
واستصـــغروا خالـــدا ابنـــا ليزيـــدْ ... وقـــد رأوا تكالـــب النـــاس يزيـــد
(تـــأتي إلينـــا عَـــرَبٌ فـــي عُصَـــبِ ... ببيعـــة الشـــيخ ونـــأتي بصـــبي)

فبـــايعوا مـــروان ثـــم الأشـــدقا لمـــا رأوا موتـــا بهـــم قـــد أحـــدقا

فهزمـــــوا قيســـــيةَ الضـــــحاك يـــا مـــرج راهـــط وذي رحـــاك

وبصـــرةٌ قـــد ركنـــتْ لمصـــعب مـــعْ قـــامع الخـــوارج المُهلَّبـــي

وكوفـــةٌ بهـــا الأمـــور اضـــطربت ونـــار شـــيعة الغـــلاة اضـــطرمتْ

واســـتثنِ تـــوَّابينَ مَـــنْ قـــد نـــدِما إذ قـــدَّموا فـــي عـــين وردةَ الـــدِّما

فجـــيش مختـــار تـــلا بالخـــازر منتقمـــا مـــن جـــيش شـــام خاســـر

بمقتـــلِ لابـــن زيـــادٍ والحصـــينْ ثـــأرا لأهـــل حَـــرة وللحســـين

مطلـــع عـــام الســـبع والســـتينِ واضـــطرب الأمـــر إلـــى الســـبعين

مـــعْ مقتـــل الاشـــراف لـــولا مـــن نجـــا ممـــن إلـــى بصـــرةِ مصـــعبِ الْتجـــا

جـــاءوا بجـــيشِ مصـــعبٍ مهلـــبِ وقتلـــــوا الشـــــيعة بالتغلـــــب

وكـــان عبـــدُ مَلِـــكٍ قـــد مُلِّكَـــا بعـــــد أبيـــــه لعـــــداه مهلكـــــا

كأشـــدقِ الدمشـــقِ ثـــم مصـــعبٍ بكوفـــةٍ مِـــنْ بعـــدها لـــم يتعـــبِ

حدود الدولة الأموية

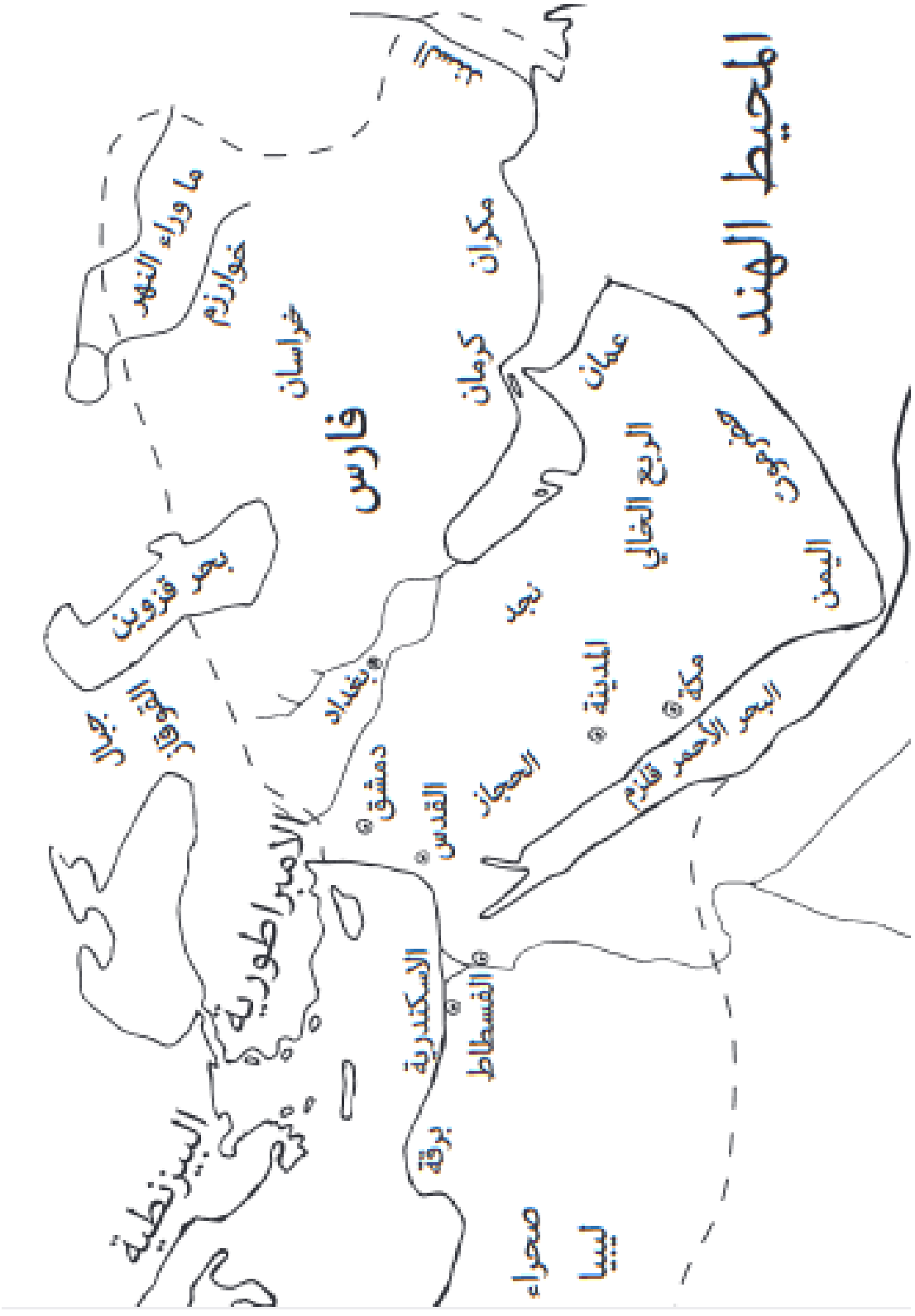

المحاضرة الثالثة :

من تفاصيل نهاية العهد السفياني

لقد كان انتقال نظام الحكم عند المسلمين –وهو الخلافة– من الشورى إلى الوراثة، أو بالأحرى من الطريقة الراشدة إلى الطريقة الكسروية خطوة خطيرة في التاريخ الإسلامي، ولا تزال آثارها باقية إلى اليوم في جميع طوائف المسلمين، ولئن كان المعتدلون من كل طائفة يحاولون إعذار المخالفين عند تقييم أحداث الثلاثين سنة بعد وفاة النبي ε رغم انتهائها بمأساة الفتنة الكبرى، والتي قد تتراجع فيها نبرة الاعتدال قليلا أمام لغط المتعصبين، إلا أننا سرعان ما نلاحظ انضمام المعتدلين في كل طائفة إلى صفوف متعصبي طائفتهم عندما يتعلق الأمر بكل السنوات الهجرية –بله القرون– التي تلت عام الجماعة؛ وهو العام الذي تسلم فيه معاوية بن أبي سفيان الخلافة من الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

والسبب في هذا الانقلاب المفاجئ في المواقف واضح؛ لأنه راجع –أصلا– إلى الطبيعة الجوهرية في ممارسة الحكم؛ وذلك أن الطابع العام لفترة الراشدين هو تحري العدل وطلب النصح والتعاون والتشاور والتواضع... رغم اختلاف الطوائف في أحقية بعض الأشخاص وتقييم بعض المواقف، إلا أن الاتفاق حاصل على توفر الحد الأدنى مما سبق ذكره من مواصفات الراشدين، لكن نظام الحكم بعد عام الجماعة بدأ يأخذ منحى آخر وطابعا مغايرا لسابقه؛ لقد أعلن الاستبداد عن نفسه شيئا فشيئا، وصودر حق الأمة الإسلامية في تعيين حاكمها، بل إن الخليفة بعد ذلك صار يعتبر الحكم ملكا له ومتاعا خالصا لأسرته من بعده، وقد جر الرأي العام طوعا أو كرها إلى اعتناق هذا التصور الغريب للحكم، البعيد عن مبادئ الإسلام، وإن استثنيت بعض المحاولات للاقتراب من الطابع الراشدي كعمر بن عبد العزيز أو مشاورة بعض الخلفاء للعلماء، إلا أن أصل الاستبداد باق تزداد شدته حينا وتخف حدته حينا آخر، كما أن أصل التوارث في الحكم باق وإن اختلفت صورته مع تعاقب الأسر الحاكمة من إعطاء ولاية العهد للابن أو الأخ إلى إعطائها لابن العم...ولقد أثبت التاريخ أن أول محاولة لتثبيت دعائم هذا النوع من الحكم وتكريسه في الواقع وترسيخه في أذهان الناس ما كانت لتمر دون أن تصطدم بمقاومة عنيفة من الأمة كلها، وقد جابهها الحكم القائم بالقمع الشديد بمقامع من حديد، ففي عهد يزيد بن معاوية –وهو أول من ورث الخلافة عن أبيه– وقعت مأساة كربلاء في العراق وموقعة الحرة

بالحجاز، وانتهى حكم الأسرة السفيانية لتبدأ الأسرة المروانية –وهي أموية أيضا- بظهور ثورة الشيعة في العراق وانتشار ثورة الزبيريين من الحجاز[7].

• اضطرابات نهاية العهد السفياني:

إذا كانت الخلافة الأموية التي تأسست سنة 41 ه قد أُقيمت على أنقاض العهد الراشدي وولدت من رحم الفتنة الكبرى والتي هي الحرب الأهلية الأولى بين المسلمين؛ فإن الاضطرابات السياسية التي أعقبت وفاة مؤسسها معاوية سنة 60ه تعد بمثابة حرب أهلية ثانية أدت إلى نهاية حكم الأسرة السفيانية لتحل محلها الأسرة المروانية في ظروف صعبة ومتشابكة يقول عنها برنارد لويس: "كانت الحرب الأهلية الثانية أكثر تعقيدا وأشد خطرا من سابقتها؛ إذ أخذت الميول نحو التفكك تعمل على نطاق أوسع وبصورة أشد، بينما تكونت عوامل جديدة جلبت معها مشاكل وصعوبات جديدة ..."[8].

• بداية الاضطرابات بالحجاز:

كانت وفاة الخليفة معاوية بدمشق في منتصف سنة 60ه بينما كان ابنه يزيد غائبا عن العاصمة فأسرع هذا بالعودة وصلى على قبر أبيه ثم رثاه بأبيات وخطب في الناس[9]، وكان أول إجراء قام به هو إرساله بخبر الوفاة

---

7 -د. عبد الرحمن أحمد سالم –نظام العهد في ضوء مبدأ الشورى في الإسلام، مجلة ندوة التاريخ الإسلامي، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، 1994، عدد 12 ص: 86، 115. د.العمد (إحسان صدقي): الجذور التاريخية للدولة الأموية (حوليات كلية الآداب جامعة الكويت؛ الحولية 17) الكويت، ص94-108. وأنظر : محمود السيد : تاريخ الدولة الأموية، مؤسسة شباب الجامعة 2000 الإسكندرية، ص45-53. د.الريس (محمد ضياء الدين): النظريات السياسية الإسلامية، دار التراث 1976 ط7 القاهرة؛ ص187-205. وأنظر : د.صبحي الصالح: النظم الإسلامية، دار العلم للملايين 1976 ط3 بيروت ص267-269، القاسمي (ظافر): نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الاسلامي، دار النفائس 1985 ط5 بيروت؛ ص 82-108، د.عطوان (حسين): نظام ولاية العهد... دار الجيل 1991 ط1 بيروت؛ ص46-51 و80-81. د.الشمري (غازي): دراسات في النظم الإسلامية، مكتبة الرشاد، 2002 ط2 الجزائر ص13. دلو (د.برهان الدين): مساهمة في إعادة كتابة التاريخ العربي الإسلامي، دار الفارابي 1979 ط2 بيروت؛ ص168-194. ه.جب (هاملتون): دراسات في حضارة الإسلام، ترجمة د.احسان عباس وآخرين، دار العلم للملايين، 1979 ط3 بيروت؛ ص45-60. د.الدوري (عبد العزيز): مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، المطبعة الكاثوليكية 1962 ط2 بيروت؛ ص62-68.

8- برناردلويس : العرب في التاريخ، ترجمة نبيه أمين فارس ومحمد يوسف زايد، دار العلم للملايين ط1 بيروت 1954، ص93.

9- الطبري، المصدر السابق، ص166.د.واضح الصمد : ديوان يزيد بن معاوية، دار صادر ط1 بيروت 1998 ص10-16.

إلى والي المدينة وهو ابن عمه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وأرفق الرسالة بأخرى سرية جدا يأمره فيها أن يبدأ بالحسين بن علي ليأخذ منه البيعة بالرفق ويأخذها من ابن عمر وابن الزبير[10].

وربما لا تحدد الروايات توقيت مبادرة والي المدينة تجاه رؤوس المعارضة، هل بادر حين بلغه خبر وفاة معاوية إلى استدعاء الحسين وابن الزبير بمشورة مروان بن الحكم، أم أنه انتظر الرسالة لينفذ مضمونها، أم أن وصول الرسالة كان مع وصول الخبر؟...فإذا أخذنا في الاعتبار كون يزيد غائبا عند وفاة أبيه وأن دفنه في النصف من رجب ومسافة الأسبوعين الاعتيادية بين دمشق والمدينة[11] وكون الرسالة قد وصلت أول شعبان، فإن كلا الاحتمالين اللذين تتضمنهما الروايات ممكن وقوعهما معا، أي أن الوالي قد علم بالأمر وتوقع حرص الخليفة الجديد على بيعة الرجلين فاستشار مروان وبادر إلى استدعائهما لتأتيه الرسالة بذلك أثناء التنفيذ...

ومهما يكن من الأمر فلقد تضمنت مشورة مروان ألا يدع الوالي كُلا من الحسين وابن الزبير حتى يبايعا وإلا قتلهما، فما كان من الوالي سوى استدعاءهما والإلحاح عليهما إذ تباطآ، وقد ذهبت روايات البلاذري إلى أنهما سارعا في ليلتهما تلك إلى الخروج من المدينة هربا نحو مكة[12]، بينما تثبت روايات خليفة بن خياط حضور ابن الزبير لدى الوالي ودخوله[13] في مشادات كلامية مع مروان اضطرت الوالي إلى إيقاف النقاش وإخراجهما معا من مجلسه، ثم حضر إليه الحسين فترفق معه وأذن له بالانصراف، مما أغضب مروان وحذّر الوالي من هروبهما، وهو ما حدث فعلا، وباءت محاولات اللحاق بهما بالفشل[14].

هذه الأمور كلها دفعت مروان إلى مراسلة الخليفة يزيد بضعف سياسة الوالي، فاستبدله في الشهر الموالي (رمضان) بوال أموي حازم هو عمرو بن سعيد بن العاص الملقب بـ (الأشدق)[15].

• بداية الاضطرابات بالعراق:

ما إن استقر المقام بالحسين في مكة حتى بدأت تصله رسائل أهل الكوفة حين علموا بوفاة معاوية، بل إن رؤساء العشائر قد كاتبوه أيضا، وطالبوه بالمجيء إليهم ليبايعوه فهو وحده الإمام الذي يريدونه خليفة لهم،

---

[10]- الطبري، المصدر السابق، ص171.

[11]- أحمد عادل كمال، الطريق إلى دمشق، ص253-254.

[12]- البلاذري، أنساب الأشراف 5، ص314-315.

[13]- خليفة بن خياط، تاريخ، ص174.

[14]- الطبري، تاريخ، 3 ص172.

[15]- البلاذري، أنساب، 5، ص322، بقوله "قال الواقدي..." ولم يذكر له سندا وكذلك اكتفى الطبري بالإشارة إلى التولية فقط عن الواقدي بغير سند، الطبري، تاريخ، ص 174 .

وألحوا عليه في ذلك قائلين: "إنه ليس علينا إمام ... فأقبل لعل الله يجمعنا بك على الهدى والحق..." ونظرا لما يمليه عليه الموقف الخطير من التروي فإن الحسين لم يحزم أمره بالذهاب إليهم فورا، بل أرسل إليهم ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب وطالبه بأن يطلع على حقيقة أمرهم ويكتب إليه تقريرا عنهم[16].

هذا وقد كان عدد الذين كُتبت أسماؤهم في تلك الرسائل يتجاوز المائة ألف[17]، والذين أوصلوها إلى الحسين بمكة هم ثلاثة أشخاص: قيس بن مسهر الصيداوي وعبد الرحمن بن عبد الله الأرجبي وعمارة بن عبيد السلولي، وقد انطلقوا عائدين إلى الكوفة متجهين نحو المدينة أولا، ومعهم رسول الحسين مسلم بن عقيل الذي اصطحب معه دليلين من أهل المدينة، ولكنهم في الطريق تاهوا بل مات أحد الدليلين أو كلاهما عطشا، مما حدا بمسلم إلى مراسلة الحسين بهذا الخبر وبتشاؤمه، وطلب منه إعفاءه من هذه المهمة، لكن الرد كان بالرفض والتثبيت والمواصلة[18]...

وهكذا وصل مسلم الكوفة، وجعل مقره فيها بيت أحد الشخصيات البارزة التي استقبلته، وإن اختلفت الروايات في تحديد اسم هذه الشخصية (المختار الثقفي في رواية أبي مخنف[19]، وابن عوسجة في رواية الدهني[20]، وهانئ بن عروة في رواية الحصين السلمي)[21] ويمكننا الجمع بينها إذا استحضرنا الأجواء السياسية المتوترة بالكوفة والضرورات الأمنية التي تفرض على مسلم تغيير المقر أكثر من مرة...لكن مجرد وصول مبعوث الحسين إلى الكوفة جعل أهلها يتطلعون إليه، وبايعه منهم أكثر من اثني عشر ألفا[22] وأوصلت بعض الروايات العدد إلى ثمانية عشر ألفا[23] مما جعل مسلما يكتب إلى الحسين قائلا: "...فعجِّل الإقبال حين يأتيك كتابي فإن الناس كلهم معك"[24].

مكث الحسين بمكة مترقبا رسالة ابن عمه من الكوفة، وظل هناك يمتنع عن ممثل السلطة الأموية لئلا يجبر على أداء البيعة، وفعل ابن الزبير مثل ذلك في هذه المدينة المقدسة، حيث احتمى كل منهما بالمسجد الحرام

---

[16]- الطبري، تاريخ، 3 ص178-179 .

[17]- الطبري، تاريخ، 3ص198 .

[18]- الطبري، تاريخ، 3 ص176و179-180.

[19]- المصدر نفسه، ص180.

[20]- المصدر نفسه، ص176.

[21]- المصدر نفسه، ص198.

[22]- المصدر نفسه، ص176.

[23]- المصدر نفسه، ص186

[24]- المصدر نفسه، ص190

يستقبلان وفود الناس إذ طارت أخبارهما في الآفاق[25]، فلما جاءت رسالة مسلم بن عقيل تبشر الحسين بأن الوضع في الكوفة إنما يسير لصالحه، مستعجلا إياه في المجيء إليها، حزم أمره وبدأ يستعد للخروج معرِضًا عن كل الناصحين له والمشفقين عليه؛ من أمثال أخيه ابن الحنفية[26] وابن عمه الصحابي ابن عباس[27] والصحابي ابن عمر[28]...وآخرون أسدوا إليه التحذيرات واقترحوا عليه البدائل؛ إما مكاتبة وإما مشافهة، بل انخرط في ذلك حتى بعض ممثلي السلطة؛ فقد علم والي مكة وهو عمرو بن سعيد بن العاص(الأشدق) بما عزم عليه الحسين فبادر بإرسال أخيه يحي ليثنيه عن عزمه دون جدوى[29].

• خروج الحسين من مكة وتغير الموقف بالعراق :

وكان خروج الحسين من مكة بعد انتهاء الأسبوع الأول من آخر شهر في عام 60هـ ألا وهو شهر ذي الحجة، أي أن ذلك اليوم كان يوم التروية (قبيل عرفة)[30]، وحينها كان الوضع في الكوفة قد انقلب لغير صالحه بشكل شبه كامل؛ إذ أحكم ممثلو السلطة فيها قبضتهم، وخذَل الناس ابن عمه مسلمًا الذي تمَّ إعدامه على الملأ قبيل يوم الأضحى، والحسين ينطلق من مكة لا يدري شيئا عن هذه التطورات حتى اقترب من الكوفة ! فما هي هذه التطورات الحاصلة بالعراق؟

كان الصحابي النعمان بن بشير الأنصاري هو الوالي على الكوفة، فعلم بتحركات ابن عقيل، فاكتفى بخطبة يحذر الناس فيها من الفتنة، وكانت نبرته فيها تدل على المسالمة وطلب العافية، وتنم عن شخصيته إذ كان حليما ناسكا، فلما نبهه عبد الله بن مسلم من سعيد الحضرمي –حليف الأمويين– إلى نهج الاستضعاف الذي في لهجته اكتفى النعمان بتذكيره بالله –سبحانه–[31].

وهكذا بادر هذا الحضرمي وعمارة بن عقبة بن الوليد وعمر بن سعد بن أبي وقاص إلى مراسلة الخليفة بخطورة الوضع، فاستشار يزيد نصرانيا يدعى سرجون –مولى معاوية *و أحد أبرز كتابه* ومخلصيه– فأشار عليه

---

[25]– المصدر نفسه، ص178

[26]– المصدر نفسه، ص173

[27]– المصدر نفسه، ص194

[28]– المصدر نفسه، ص174

[29]– المصدر نفسه، ص195

[30]– الطبري، تاريخ، ص193.

[31]– الطبري، تاريخ، ص180.

بضم ولاية الكوفة إلى عبيد الله بن زياد والذي كان واليا على البصرة منذ سنة 55هـ، فسارع يزيد بإرسال التعيين إلى ابن زياد كي ينتقل إلى الكوفة ويحكم منها كل العراق، وحدد له أولى مهامه الاستعجالية بقوله: "...سر حين تقرأ كتابي هذا، حتى تأتي أهل الكوفة فتطلب ابن عقيل كطلب الخرزة حتى تثقفه؛ فتوثقه أو تقتله أو تنفيه، والسلام"[32].

وفور استلام عبيد الله الرسالة قام خطيبا في أهل البصرة متهددا ومتوعدا، وأخبرهم بمسيره إلى الكوفة، وأن أخاه عثمان هو نائبه عليهم. ومع الغد كان ابن زياد يغذ السير مع أهله وبعض الأعيان من أمثال مسلم بن عمرو الباهلي وشريك بن الأعور الحارثي...، وحين دخل مدينة الكوفة كان متلثما فراح الناس يستقبلونه باعتباره الحسين وبعبارة (مرحبا بك يا بن رسول الله) وظل يتقدم إلى القصر دون أن يردّ عليهم حتى نبههم مسلم الباهلي بأنه الأمير[33]، ولما دخل القصر نادى في الناس بالصلاة، وحين اجتمعوا إليه حذرهم الفتنة... ثم اجتمع بالعرفاء (وهم ممثلو السلطة في أحيائهم وعشائرهم وحلقة اتصالهم بها) فأمرهم بتحديد أسماء المعارضين والغرباء لدى الأهالي، وهدّد المتهاون منهم بالصلب ومصادرة الأملاك[34]، وفعلا بدأت أمور الكوفة تنضبط لصالح الوالي الجديد الذي لم يكتف بذلك؛ بل كلف أحد الجواسيس بأن ينخرط في صفوف أتباع مسلم بن عقيل، وحمّله بأموال عظيمة لتدعيم حركته، خصوصا إذا علمنا أن مجيء هذا الوالي وإجراءاته الأولية قد أحدثت اختلالا في صفوف حركة مسلم الذي اضطر إلى السرية والتكتم والتحرك في الخفاء وتغيير مقر القيادة عدة مرات، لكن جاسوس الوالي نجح في الوصول إلى أحد قادة الحركة وهو مسلم بن عوسجة الأسدي، وبعد أن اطمأن إليه وأظهر له الأموال أوصله إلى مسلم بن عقيل الذي كان يختبئ في دار هانئ بن عروة المرادي، وقد سبق للوالي يومها أن زار هذه الدار لعيادة الزعيم البصري –وهو رفيقه الذي جاء معه شريك بن الأعور الحارثي– إذ كان يمَّرض عند صديقه هانئ، وفشلت محاولة اغتياله هناك بسبب تردد صاحب الدار (هانئ) وتورُّع ضيفه المختبئ عنده (ابن عقيل)[35]، وقيل أن ابن زياد شعر بحركة غير عادية دفعته لإنهاء الزيارة، وبعدها توفي شريك، وعلم الوالي بما كان يخطط له من الاغتيال...[36] أما مكان اختفاء ابن عقيل فقد عرفه من خلال جاسوسه الذي تسنى له الوصول إليه للتظاهر بمبايعته وتسليم الأموال إليه لدعم حركته ؛ فأصبحت أخباره تصل

---

[32]– الطبري، تاريخ، ص181 .

[33]– الطبري، تاريخ، ص181.

[34]– الطبري، تاريخ، 3 ص181-182 .

[35]– المصدر نفسه، ص183-184 .

[36]– المصدر نفسه، ص182 .

الوالي بسهولة، وقد لاحظ هذا الأخير أن هانئا لم يأت القصر كسائر الأشراف فسأل عنه[37]، بينما نصح بعض هؤلاء الأشراف هانئا أن يحضر لدى الوالي ليبعد عنه الشكوك، وهم لا يعلمون أن مسلما عنده، فتردد ثم ذهب معهم، ففاجأه الوالي بسؤاله عن مكان مسلم، فتظاهر بعدم المعرفة، عندئذ أخرج إليه الجاسوس فاضطر هانئ للاعتراف بأنه إنما قدم عليه طالبا اللجوء وأنه لم يسعه إلا القبول، فطلب الوالي تسليمه، فرفض بشدة، فازداد الحوار بينهما توترا بحيث ضربه الوالي بقضيب فأدمى وجهه وسجنه، فظن قومه من مذحج أنه قد قُتل؛ فسارعوا لمحاصرة القصر لولا أن الوالي سمح للقاضي شريح الكندي بأن يطمئن على حياة هانئ، وكذلك فعل مع أحد الأشراف وهو زوج أخت هانئ (عمرو بن الحجاج الزبيدي) اللذين طمأنا الناس حتى انصرفوا[38].

• ثورة مبعوث الحسين بالكوفة وفشلها:

أما مسلم بن عقيل فلم يَرَ بُدًّا من ضرورة التعجيل بإعلان الثورة بالكوفة حين بلغه خبر اعتقال مضيفه هانئ، فنادى بشعاره ليأتيه كل من بايعه، فانضم إليه بضعة آلاف، فتقدم بهم نحو القصر الذي تحصن فيه ابن زياد ومعه جل الأشراف، الذين راحوا يطلّون على محاصريهم وينصحونهم بلزوم ديارهم، لأن الوالي قد هدد كل مشارك بأقسى العقوبات وحرمان أهله من العطاء، ثم راحت النسوة تطلب من كل مشارك أن يعود إلى بيته ويترك المهمة لغيره، وراح غير المشاركين يحدثون أقاربهم ممن شارك في الثورة بقرب مجيء جيش الشام ...فلم ينته اليوم إلا بانصراف أكثر المشاركين إلى بيوتهم، ولم يبق مع مسلم غير مئات قليلة أكثرهم من قبيلة هانئ، فأرسل إليهم الوالي أحد أشرافهم ليخوفهم، كما أرسل آخرين لرفع رايات الأمان في أقوامهم، وهنا تقلص العدد إلى عشرات أحيط بهم من كل جانب ووقعت معركة قصيرة استبسل فيها المقاتلون، لكن الأشراف سمحوا لمن يريد منهم الفرار بالانسحاب، وهكذا وجد مسلم نفسه وحيدا طريدا فريدا شريدا، ينتقل بين أزقة الكوفة وأحيائها، فأدخلته امرأة إلى بيتها ليشرب الماء لكنه لم ينصرف، فلما عرّفها بنفسه خبّأته عندها، لولا أن ابنها بعد ذلك علم بأمره، فأخبر أحد الأشراف والذي بدوره سارع بإخبار الوالي عن مكانه، وكان ابن زياد يخطب في الناس متوعدا متهددا، ورصد جائزة لمن يأت بخبر عن مسلم، وأمر العرفاء والشرطة بالبحث عنه[39]، وحين حدّد مكانه أرسل فرقة تحيط به وتقاتله، ومعهم بعض الأشراف، الذين أقنعوه بتسليم نفسه، وبعد قتال قصير سلّم نفسه جريحا، فجيء به إلى القصر حيث أيقن بحكم الإعدام الذي ينتظره من خلال حواره القصير مع بعض الأشراف الشامتين أو المشفقين ثم مع ابن زياد نفسه، فاستأذنه بأن يُسرّ بوصيته لأقرب الأشراف إليه من ضمن الحاضرين

---

[37]- المصدر نفسه، ص184 .

[38]- المصدر نفسه، ص184-186.

[39]- الطبري، تاريخ، ص186-189.

في القصر، وكان هو عمر بن سعد بن أبي وقاص، فأذن له بذلك، فتحادث معه مسلم على ضرورة إبلاغ الحسين بعدم المجيء إلى الكوفة، ووصاه بدفن جثته وقضاء دينه، ثم أمر الوالي بإلقائه من أعلى القصر ليراه الناس فقُتل، وأمر الوالي بإخراج هانئ بن عروة المرادي من سجنه إلى السوق وقتله أمام الناس، حيث لم تنفعه صيحات الاستنجاد بقبيلته، وصُلبت الجثتان وسط مدينة الكوفة، وضُمّت لهما جثتان لآخرين أرادا نصرتهما... وإلى هذا المنظر المحزن والنهاية الأسيفه لحركة مسلم بالكوفة يشير أحد الشعراء (الفرزدق أو غيره) بقوله:

إن كنتِ لا تدرين ما الموت فانظري إلى هانئ في السوق وابن عقيل

أصابهما أمر الأمير فأصبحا أحاديث من يسري بكل سبيل[40]

• مسيرة الحسين من مكة إلى الكوفة:

في اللحظة التي فشلت فيها ثورة مسلم بالكوفة كان الحسين متشجعا للخروج بفضل رسائل ابن عمه، ورغم نصائح الناصحين بعدم الذهاب انطلق (رضي الله عنه) نحو العراق بأهل بيته ومن انضم إليه من المناصرين، وقد لقي في حدود الحرم الشاعر الفرزدق قادما من الكوفة، فسأله عن أهلها فأجابه بجواب مبهم، ولكنه يتضمن إشارة إلى بدء انقلاب الأمور لغير صالحه[41]، وواصل الحسين مسيرته الطويلة في صحراء العرب لا يلوي على شيء ولا يدري بشيء حتى اقترب من صحراء العراق، وكان الوالي ابن زياد قد أمر بتضييق الخناق على حركة المسافرين بين الكوفة والبصرة، وكذلك بين الكوفة وطريق الشام وما بينهما وبثّ العيون والحرس، وأرسل طلائع بعض الجيش في طريق القادمين من مكة، حيث ألقي القبض على مبعوثي الحسين نحو أهل البصرة وأهل الكوفة وإلى مسلم بن عقيل (عبد الله بن بقطر وقيس بن مسهر الصيداوي)، ولما جيء بكل واحد منهما إلى الوالي أمرهما بإعلان براءتهما من الحسين أمام الناس لينظر في أمرهما، فأعلنا للناس الولاء للحسين، فتمّ إعدامهما مباشرة... كل هذا والحسين يقترب وهو يلاحظ –ويخبره الأعراب– ألاّ أحد يلج أو يخرج من الكوفة، إلى أن وصل منطقتي (زبالة) و(شراف) حيث بلغه الخبر اليقين عبر بعض بني أسد[42] وكذا بعض بني طيئ وغيرهم ...أو عن طريق مبعوث أحد الأشراف الذين وعدوا مسلما بإخبار الحسين، وهنا أذن لمن معه بالانصراف فانصرفوا، إلا قليلا منهم أصروا على الثبات معه حيثما ذهب، أما أهل بيته فاشتد بهم الحزن والذهول، وراح الحسين يقلّب الأمور، لكن أبناء مسلم بن عقيل بكوا أمامه وأصروا على مواصلة الثورة للثأر،

---

[40]– الطبري، تاريخ، ص189-192.

[41]– الرواية المطولة لأبي مخنف عن أبي جناب عن حرملة بن عدي عن شاهدين ورواه الطبري عن هشام عن عوانه عن ابن الفرزدق.

[42]– الطبري، تاريخ، ص199-202 .

فحزم الحسين أمره ثانية بالإتجاه نحو الكوفة، خصوصا وقد قال له بعض مرافقيه: "...لو قدمت الكوفة لكان الناس إليك أسرع"[43] لكن سيره هذه المرة اصطدم بجيش من ألف فارس يقودهم الحر بن يزيد التميمي، وهذا القائد أخبره بأنه مأمور بملازمته ما دام متجها نحو الكوفة ويمنعه عمّا سوى ذلك، ورفض دعوى الرسائل الكوفية التي أظهرها له الحسين كتبرير لقدومه، كما رفض الحر طلب الحسين بتركه يعود من حيث أتى، وكان الحل الوسط هو مراسلة الحر للوالي بالأمر وانتظار رأيه، في مقابل مراسلة الحسين ليزيد بن معاوية في دمشق، وبإمكان الحسين أثناء ذلك أن يتحرك يمينا وشمالا دون تقدم أو تأخر ! وفعلاً تحرّك الحسين بمن معه يسارا ليقترب من العذيب والقادسية ويتوقف بين مناطق كربلاء والطف ونينوى وغاضرة، من أرض بني أسد[44] قرب الكوفة.

- **وقعة كربلاء:**

وانطلاقا من ظاهر مدينة الكوفة اقتربت من الحسين جيوش الوالي في أربعة آلاف جندي، يقودهم هذه المرة عمر بن سعد بن أبي وقاص، وكان هذا الجيش الكبير مكلفا بالتوجه إلى شمال فارس لجهاد كفار الديلم، مثلما كان القائد موعودا من ابن زياد بتوليته على الري شمال فارس، فكان الأمر الطارئ هو البدء بالقضاء على حركة الحسين أولاً وقبل شيء، ورغم تردد القائد عمر إلا أنه قَبِل بالمهمة الجديدة، فلقي الحسين في كربلاء وتكلم معه بما كلّم به الحر من قبله[45] فكتب عمر إلى ابن زياد بالقول: "...فإني حيث نزلت بالحسين...فسألته عما أقدمه...فقال كتب إليّ أهل هذه البلاد... فأما إذا كرهوني...فأنا منصرف عنهم" فعلّق الوالي على ذلك ببيت شعري قائلا:

الآن إذ علقت مخالبنا به يرجو الخلاص ولاة حين مناص

وكتب إلى قائده عمر بقوله: "...فاعرض على الحسين أن يبايع ليزيد...فإذا فعل ذلك رأَينا رأْينا"[46] فكانت ملاحظة عمر بأن الوالي لا يريد حلاّ سلميّا لهذه القضية، ولما عرف الحسين مضمون الرسالة رفضها، وطلب مقابلة عمر ليعرض عليه إحدى ثلاث: إما أن يتركوه يعود أو أن يذهب إلى يزيد بالشام أو أن يذهب للجهاد في الثغور (الحدود) ضد الكفار، وإزاء هذه التنازلات تمنّى القائد عمر أن يقْبل الوالي بإحداها وراسله بذلك، وكاد أن يقنعه لولا تدخّل أحد المستشارين من الأشراف وهو (شمر بن ذي الجوشن الضبابي العامري)

---

[43]- المصدر نفسه، ص201.

[44]- الطبري، تاريخ، 3 ص202-206 .

[45]- المصدر نفسه، ص206-207 .

[46]- المصدر نفسه، ص208.

الذي أكّد على ضرورة استسلام الحسين للوالي ليحكم فيه هذا الأخير بما يراه مناسبا –خاصة وأنه يملك الآن كافة الصلاحيات من الخليفة– فأمره الوالي أن يحمل هو الرسالة الأخيرة إلى القائد بهذا المضمون، بل وأن يقتل القائد ويتولى هو مكانه إن رأى فيه ترددا [47]! وهكذا لم يكن هناك بدٌّ من إبلاغ الحسين بهذا القرار، والذي رفضه رفضا قاطعا بطبيعة الحال، لكنه طلب إمهاله إلى الغد الذي يصادف يوم الجمعة العاشر من محرم (أي عاشوراء 61هـ) فكان له ذلك، والتفت الحسين إلى جميع من معه يخبرهم بالصدام المحتوم بينه وبين الجيش المحيط بهم، ويطلب منهم تركه لمصيره هذا، وأذن لهم بالانصراف، فلم يفعلوا بل أصروا على الثبات معه، وقد انضم إليهم أحد القادة وهو الحر بن يزيد الذي سبق له أن التقى مع كتيبته بالحسين وحاصره، ولكنه لم يكن يظن هذه النهاية المأساوية أمام التنازلات التي قدمها الحسين، فانضم إليه ودافع عنه حتى قتل شهيدا[48].

وفي صبيحة ذلك اليوم المشؤوم نظّم الحسين من معه من الرجال والفرسان، وكانوا أقل أو أكثر من مائة شخص، وجعل النسوة والصبية خلفهم، في بيوت من القصب، ونظّم عمر بن سعد جيشه الضخم، ورغم عدم التكافؤ إلاّ أنّ المبارزات الفردية كانت من جانب أصحاب الحسين فدائية، بل كانت لهم فيها الغلبة ! لذلك سارع عمر بإعلان اندلاع المعركة التي أبدى فيها المدافعون عن الحسين ضروبا من الشجاعة والاستشهاد[49]، وتناقص عددهم حتى تقدم الرجال والفتيان من آل البيت كإخوة الحسين غير الأشقاء (العباس وجعفر وعبد الله وعثمان ومحمد) وأبناء الحسن أخيه الشقيق (أبي بكر وعبد الله والقاسم) وابني الحسين (علي الأكبر وعبد الله) وابني مسلم بن عقيل قتيل الكوفة (عبد الله ومحمد) وأعمامهما من إخوة مسلم (جعفر وعبد الرحمن وعبد الله) وابني عبد الله بن جعفر الطيّار (عون ومحمد)[50] وأخيرا قاتلهم الحسين بمفرده، وكان الجنود يتحاشونه لهيبته وشجاعته وتمنيّ استسلامه، لكن شمر بن ذي الجوشن حثّ كتيبته على ضرورة التعجيل بالإجهاز عليه فأحاطوا به حتى أثخنته الجراح فطعنه زرعة بن شريك التميمي ! وقطع سنان بن أنس النخعي رأسه !! وحمله خولي بن يزيد الأصبحي ليطالب بالجائزة لنفسه [51]! وبدأت بعد ذلك عملية نهب ألبسة القتلى ومتاعهم، بل إن الأيدي

---

[47]– المصدر نفسه، ص209-210 .

[48]– الطبري، تاريخ، 3 ص210-221 .

[49]– المصدر نفسه، ص217-225 .

[50]– المصدر نفسه، ص226-228 .

[51]– المصدر نفسه، ص228-229 .

امتدت إلى النسوة والصبيان، لولا تدخل القائد عمر الذي منعهم من ذلك، لكنه أصدر الأوامر بأن يدوس عشرة فرسان بخيولهم جثة الحسين تنفيذا لرغبة الوالي ! وكان شمر بن ذي الجوشن على رأس المنفذين[52].

- **أسرى كربلاء في الكوفة وفي دمشق:**

وتجدر الإشارة هنا إلى أن أحد الجرحى من أنصار الحسين استفاق وواصل القتال[53] حتى قتل، كما أن عدد الناجين من الرجال قليل جدّا –بضعة أفراد– منهم أحد أبناء الحسين وهو التابعي الشهير علي زين العابدين المعروف بعلي الأصغر –تمييزا له عن علي الأكبر الذي كان من قتلى كربلاء– ومن الناجين أيضا عقبة بن سمعان مولى الرباب زوجة الحسين وهو أحد شهود العيان القلائل الذين نُقلت عنهم تفاصيل كربلاء، ورجل آخر من بني أسد يدعى المرقع بن ثمامة من الرماة المدافعين عن الحسين إذ أمّنهُ قومه، وآخرون قليلون تمكنوا من اختراق الجيش المحاصر لهم، لكن مطارديهم تمكنوا من قتل بعضهم، ومن الغد انطلق الجيش بالرأس والأسرى نحو الكوفة، وتُرِكت الجثث يومين إلى أن دفنهم بنو أسد الذين كانوا يسكنون بتلك القرى المجاورة[54].

وقد رويت أخبار حول إعطاء الأوامر من القائد عمر أوشمر أو الوالي ابن زياد لكي يُقْتَلَ علي الأصغر باعتباره مقاتلا، ولم ينجه من القتل سوى المرض، وفي روايات أخرى أنه لم يُبعد عنه شبح القتل إلاّ صراخ أخته زينب، أو حسن جوابه، أوأن أحد الحاضرين كشف عن عورته وشهد كذبا بأنه لم ينبت (أي لم يبلغ الحلم) فأُلغي أمر إعدامه باعتباره من الصبيان [55]!

وكان ابن زياد بعد إرسال خبر كربلاء إلى الخليفة بدمشق قد استقبل الأسرى وجعلهم في بيت خاص وأعطاهم ما يحتاجونه في انتظار إرسالهم إلى الخليفة، وقد علّق هذا الأخير على الخبر بالقول: "...والله لو أني صاحبه لعفوت عنه فرحم الله الحسين"[56] بل وصل الأمر ببعض الروايات إلى القول بأنه صرّح قائلا: "أما والله لو كنت صاحبه ثم لم أقدر على دفع القتل عنه إلا ببعض عمري لأحببت أن أدفعه عنه"[57] على عكس الروايات التي تظهره فرحا منتشيا لمقتله بل ومتذكرا بشعر أجداده الكفار الذين قتلوا في بدر !!!

---

[52]– المصدر نفسه، ص229–230. و أنظر: هبة الدين، نهضة الحسين، دار الكتاب العربي بيروت 1969. ص 57–75.

[53]– الطبري، تاريخ، 3 ص229.

[54]– المصدر نفسه، ص229–230.

[55]– المصدر نفسه، ص229–231 .

[56]– المصدر نفسه، ص232 .

[57]– ورد معنى هذا الكلام عند الطبري أيضا ص233 .

وحينما وُضع رأس الحسين أمام والي الكوفة جعل يمسه بقضيب في يده، فنهاه أحد الصحابة[58] (زيد بن أرقم) وتكررت الحادثة في مجلس الخليفة بدمشق فنهاه أحد الصحابة أيضا (أبو برزة الأسلمي)[59]

وعموما فقد أكّدت الروايات على استقبال الخليفة لآل الحسين، موبخا مبعوث الوالي الذي رافقهم ويدعى محفز بن ثعلبة، وقد أقامت نساء بني أمية المآتم والبكاء على مقتل الحسين عندما انضمت إليهن نساء بني هاشم –باعتبار أن الجميع من بني عبد مناف– كما أقام يزيد المآدب لعلي زين العابدين، وحاوره مظهِرا الإكرام، ولما استدل عليّ بالقضاء والقدر طلب يزيد من ابنه)خالد(أن يجيبه، فلم يستطع، فأجاب يزيد بأن استدل هو أيضا بالقدر، أما النسوة فقد عوّضهن يزيد ما سُلِبنه من المتاع، وأغدق عليهن الأموال، وأظهر بعض بني أمية الحزن شعرا في تلك المجالس[60]، وإن حاولت بعض الروايات أن تشير إلى محاولة البعض معاملة النسوة كسبايا معروضات للبيع !...[61]

• نظرة تحليلية عامة لاضطرابات العراق في نهاية العهد السفياني:

حاول أقطاب الأمة الإسلامية –يمثّلهم أبناء الصحابة في مكة والمدينة– أن يرفضوا الاستسلام للأسرة الأموية حينما سعى معاوية لأخذ البيعة بولاية العهد لابنه يزيد، وفور وفاة مؤسس هذه الأسرة الحاكمة كان لابد للأمة من قائد يتقدم مسيرتها ويوجّه حركتها نحو استرداد حقها المسلوب، وضروري في مثل هذه اللحظات التاريخية أن تتوفر في هذا الزعيم أن يكون بعيدا كل البعد عن تحقيق أهدافه الخاصة، وقد رأى الإمام الحسين τ في نفسه أن يكون قائد الأمة في هذه اللحظة العصيبة والمحطة الحاسمة، ولذا سارع فورا إلى الرحيل نحو مكة لأنه لو بقي في المدينة فسيُجْبَرُ حتما على إعطاء البيعة ليزيد، وإذا حدث ذلك فإنه يكون قد فَقَدَ الفرصة النادرة في توجيه الأمة لاسترداد حقها. وهنا يأتي السؤال الموالي:

- لماذا ذهب الحسين إلى بلاد العراق ؟

---

[58]– المصدر نفسه، ص230 .

[59]– الطبري، تاريخ ، 3 ص234-235 .

[60]– المصدر نفسه، ص232-235 .

[61]– المصدر نفسه، ص233. وأنظر : التباني، تحذير العبقري من محاضرات الخضري دار الكتب العلمية 1984 ط2 بيروت. ص200-301. الخضري، محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، الدولة الأموية، المكتبة العصرية ط1 بيروت 2000. ص 317-325.

إن العراق هو أشد الأقاليم الإسلامية معارضة للأمويين ويوجد بها كثير من أنصار الإمام علي τ، فلو بقي الإمام الحسين في مكة لكان بإمكان الأمويين القضاء عليه عن طريق محاصرته هناك.

ثم إن الحسين لما علم بما حدث لابن عمه ومبعوثه مسلم بن عقيل من تخلي الكوفيين عنه ومقتله ؛ أصر على إكمال طريقه متجها نحو الكوفة، رغم يقينه بالنهاية المأساوية لأنه سيكون مخيّرًا بين الخضوع ليزيد وهذا ما سوف لن يقبله أبدا، وإما القتل...بل إن الأمويين لن يتركوه في حال سبيله، لذلك كله وجدناه يصر على مواصلة طريقه لاعتقاده الجازم أنه إذا لم ينجح في إعادة الحق المسلوب إلى هذه الأمة فإنه –على الأقل– يكون قد أضاء أملا على طريق المستضعفين، لأنه سيكون قد ضحى في سبيل الأمة الإسلامية بنفسه.

ويبقى السؤال بعد هذا مطروحا: لماذا فشلت حركة الحسين ؟

إن مسؤولية فشل حركة الحسين تقع على عاتق أهل الكوفة، فهم الذين غرروا به وراسلوه، خصوصا لما تحرك أشراف الكوفة القابضين للأموال التي أغرقهم فيها الوالي ابن زياد؛ فراحوا يثبطون الناس عن مناصرة مسلم بن عقيل، وهو ما فعلته نسوة أهل الكوفة أيضا، حتى انخذل عنه جميع من بايعه وتركوه ليُقبَض عليه ويكون مصيره الإعدام !... وهكذا فإن الكوفيين هم الذين استدعوا الحسين ولم يكتفوا بخذلانه !! بل كانوا هم الجيش الذي تكفل بقتله في كربلاء التي لم يحضرها شامي واحد !!!.

أما الخليفة يزيد فمسؤوليته في مقتل الحسين واضحة كل الوضوح، إذ تحتوي مسؤولية الوالي ابن زياد بل تزيد عليها أضعافا مضاعفة؛ فلقد كان في عاصمته دمشق راضيا عما فعله واليه ابن زياد، وإن أبدى –بشكل عفوي أو مصطنع– بعض الأسف على النهاية غير المرغوب فيها، فهو لم يعزله عن الكوفة بعد قتله الحسين، بل ذهبت بعض المصادر إلى ما يدل على سرور يزيد ![62].

• بداية تحرك ابن الزبير في مكة:

عرفنا أن ابن الزبير قد تملّص من إلحاح والي المدينة لما جاء الخبر بوفاة معاوية، فأسرع مع الحسين نحو مكة، وفشلت محاولات الوالي (الوليد) لإرجاعهما كي يرغمهما على البيعة ليزيد، خاصة وقد وبّخه مروان على تساهله معهما... ولقي هذان الصحابيان بالأبواء –في منتصف الطريق– صحابيين آخرين هما عبد الله بن عمر

[62]– محمد جمعة عبد العزيز يوسف موسى: المعارضة في العصر الأموي وموقف الأمويين منها، ماجستير بإشراف د.محمد حلمي أحمد، قسم التاريخ، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة 1983، ص 52–55. أبو الغيط، الأحوال السياسية للدولة الأموية في خلافة عبد الملك؛ المركز الوسيط للدراسات العليا للتاريخ والحضارة، الازهر 1990 القاهرة. ص 20–30.

بن الخطاب وعبد الله بن عياش بن أبي ربيعة[63]، فنصحاهما بالرجوع أو التريث فلم يقتنعا وواصلا مسيرتهما للاحتماء بالمسجد الحرام في مكة، فكان ابن الزبير ملتزما بالكعبة يصلي ويطوف ويسمي نفسه (العائذ بالبيت)...[64] وظل الوالي يراقب الوضع عن كثب، وهو أحد رجالات الحكم الأموي والمعروف بالأشدق واسمه عمرو بن سعيد بن العاص، أما الخليفة يزيد فقد راسله مروان بضعف والي المدينة (الوليد بن عتبة) فعزله وبعث إلى الأشدق في مكة لينتقل إلى المدينة ويكون واليا على الحجاز كله وهو ما حدث فعلا.

وخلال تلك الأشهر القليلة (أي قبل رمضان وبعده) من عام 60هـ كانت وفود القبائل والأمصار تتوإلى على مكة لتتواصل مع هذين الصحابيين الممتنعين عن بيعة الخليفة الجديد يزيد، وحينما علم ابن الزبير بمراسلات العراقيين للحسين وجّه إليه نصائحه بالذهاب إلى العراق، واختلفت الروايات في تبيّن نية ابن الزبير من وراء هذه النصيحة؟ هل هي التخلص من قطب معارض وحيد يزاحمه على مكة وعلى استقبال الوفود؟ أم هي خطة ذكية لتوزيع الأدوار وتنسيق المعارضة وتوحيد الجهود وتشتيت قوى السلطة بين الأمصار؟[65] المهم أن الروايات ذكرت أن ابن الزبير عاد ونصح الحسين حين رآه يستعد للخروج من مكة بأن يتريث ويبقى معه فيها، لكنه شكره وأبى إلا الذهاب نحو العراق[66].

وفور وصول أخبار كربلاء صعّد ابن الزبير من لهجة المعارضة معبّرا عمّا أضحى يسري في نفوس العامة، ولم يتوان في خطبه عن الحطّ من شخصية يزيد[67]، مما حدا بهذا الأخير إلى أن يُقسِم بأنه سوف لن يقْبل من ابن الزبير بيعة إلاّ مقيّدا في الأغلال[68]، ثم ارتأى الخليفة أن يفاوضه فأرسل قيدا فضيا وبرنسا فاخرا، ليخفي تقييد يديه حين يأتيه مبايعا[69]، وكان النعمان بن بشير قد نصح ابن الزبير موفدا من الخليفة لكنه رجع خائبا، فكرر الوفد الشامي النصح في مكة وعلى رأسهم عبد الله بن عضاة الأشعري الذي عرض عليه القيد والبرنس، بينما أرسل مروان أحد أبنائه إلى ابن الزبير يذكّره ببيت شعري:

فخذها فليست للعزيز بنصرة وفيها مقال لامرئ متذلل

---

[63]- الطبري، تاريخ 3، ص174 ورد في الخبر أن الصحابي الأخير هو ابن عباس أورده الطبري بصيغة (زعم الواقدي) دون سند.

[64]- المصدر نفسه، ص174

[65]- الطبري، تاريخ3، ص194

[66]- المصدر نفسه، ص195 .

[67]- المصدر نفسه، ص239-240.

[68]- المصدر نفسه، ص240 .

[69]- المصدر نفسه، ص240 .

فردّ ابن الزبير ببيت آخر قائلا:

فلا أليــن لغيـر الحق أسأله حتى يلين لضرس الماضغ الحجر[70]

ثم أعلن للوفد أنه عائدٌ بالحرم متسائلا: هل يمكن قتل حمام الحرام؟

فأخذ ابن عضاة القوس ووجّه سهمه إلى حمامة بالحرم معلنا أنه سيقتلها إن أعلنت اتهام الخليفة أو دعت إلى رفض البيعة، ثم وجّه تهديداته إلى ابن الزبير الذي سأله عن حرمة البيت فأجابه: "إنما يحله من ألحد فيه" وأكد ابن الزبير بشكل واضح وصريح تمسكه بموقفه إلى نهايته[71].

• تصاعد المعارضة الزبيرية بمكة:

وفي آخر شهر من عام 61هـ (أي ذي الحجة) جاء الوالي (الأشدق) ليقود الحجيج فكان ابن الزبير لا يصلي بصلاته ولا يفيض من عرفة بإفاضته، ثم رجع الوالي إلى المدينة جاعلا الحارث بن خالد المخزومي نائبا له على مكة، إلا أن ابن الزبير منعه من أن يصلي بالناس عند الكعبة[72]، وأحاط نفسه بمجلس للشورى من كبار الأعيان الذين يوالونه، وعلى رأسهم المسور بن مخزمة ومصعب (ابن الصحابي ابن عوف) وعبد الله بن صفوان بن أمية... وفي المقابل كان الأشدق قد ولّى على رأس شرطته في المدينة أحد إخوة ابن الزبير واسمه عمرو وكان يُعادي أخاه ! فاشتد في تضييق الخناق على المتعاطفين مع ابن الزبير كأخيه المنذر وأحد أبناء هذا الأخير (واسمه محمد) وأحد أبناء ابن الزبير (واسمه خبيب) وأحد أبناء الصحابي عمار (واسمه محمد) وغيرهم ممن تعرضوا للسياط وفرُّوا إلى مكة...

بل إن عمرا هذا طلب من الوالي –حين قرر تجهيز جيش للقضاء على الثورة الزبيرية– أن يجعله قائدا يتكفل له بهذه المهمة الخطيرة، وهكذا زحف عمرو بن الزبير بمئات من الجند ليدخل مكة من أعلاها من جهة الأبطح، بينما يدخل مئات آخرون بقيادة أنيس بن عمرو الأسلمى من أسفلها من جهة ذي طوى[73]، وتظاهر عبد الله بن الزبير باللين[74] لمفاوضته مع أخيه عمرو، ريثما يفاجئ الزبيريون بقيادة عبد الله بن صفوان الجمحي الزاحفين من أي طوى، حيث قُتل القائد أنيس وانهزم أصحابه، ثم انقضّ زبيريون آخرون بقيادة مصعب (ابن

---

[70]– المصدر نفسه، ص240 .

[71]– البلاذري، أنساب الأشراف 5 ص323 -325

[72]– الطبري، تاريخ3، ص174

[73]– الطبري، تاريخ، 3 ص176

[74]– المصدر نفسه، ص175

الصحابي ابن عوف) على جند عمرو فهزموهم، وهرب عمرو ملتجئا إلى بعض الدور، حيث جاءه أحد إخوته وهو عبيدة فأجاره، وأخبر أخاه ابن الزبير بذلك، لكن هذا الأخير رفض إجارته[75]، وأخذ أخاه عمرا ليجعله عرضة لقصاص المقتصّين، مظهرا إسقاط حقه منه في القصاص لابنه خبيب، أما الآخرون فلهم أن يضربوه بالسياط كما ضربهم، وهكذا تعرض عمرو لضرب شديد من الناس حتى توفي فأمر به أخوه عبد الله فصُلب[76].

وبعد هذه الهزيمة التي منيت بها السلطة الأموية في المدينة عزل يزيد الوالي الأشدق، وجعل مكانه الوليد بن عتبة الذي كان واليا عليها قبله، فاكتفى بمراقبة المدى الذي وصلت إليه الثورة الزبيرية، خصوصا مع اندلاع ثورة الخوارج بقيادة نجدة الحنفي باليمامة في نجد بقلب الجزيرة العربية[77].

• بدء الاضطرابات في المدينة المنورة:

حينما لاحظ الخليفة يزيد تصاعد الأحداث في مكة، أمر بعزل الأشدق—كما ذكرنا آنفا- ليولي مكانه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان الذي جاء إلى المدينة – وكان عند وفاة معاوية واليا عليها- فعمل على سجن مئات من موالي الأشدق، لكن هذا الأخير انطلق نحو العاصمة دمشق وأرسل إلى مواليه المسجونين كلمة السر ليخرجوا بالقوة من سجنهم، وأرسل في نفس الوقت إليهم ما يحتاجونه من وسائل السفر للالتحاق به، وهو ما حدث فعلا ليدلل للخليفة على مدى ضعف السلطة السفيانية ومدى التنافر الحاصل داخل البيت الأموي[78]، بل وصل الأمر إلى أن ابن الزبير كان قد بعث إلى الخليفة طالبا تغيير هذا الوالي الجديد، فتم تعيين وال آخر هو عثمان بن محمد بن أبي سفيان مطلع سنة 63هـ، لكنه كان شابا غير مجرب، وهو حسب بعض الروايات من أرسل وفد المدنيين إلى دمشق[79]، إلا أن روايات أخرى تجعل مجئ هذا الوفد المدني إلى الخليفة يزيد بعد توليه الخلافة مباشرة، لكن الجرأة على الخلافة لم تبدأ إلا بعد كربلاء، وتكلم أهل المدينة في شخصية يزيد، وأنه فاسق، وهو السبب الذي صرحت به روايات البلاذري في كون يزيد يطلب من والي الحجاز بأن يرسل إليه وفدا لمحاولة استمالتهم[80].

---

[75]- المصدر نفسه، ص174-175

[76]- المصدر نفسه، ص175 .

[77]- المصدر نفسه، ص241-242 .

[78]- الطبري، تاريخ، ص 241-242 .

[79]- الطبري، تاريخ، ص242

[80]- البلاذري، أنساب5، ص337-338 .

جاء الوفد إلى العاصمة دمشق، ومن أفراده أحد إخوة ابن الزبير وهو المنذر، وعلى رأسهم عبد الله بن حنظلة الغسيل، وتعمد الخليفة أن يغدق عليهم الاموال وبالغ في إكراهم، إلا أن الوفد انقلب ضده فور رجوع أعضائه إلى المدينة فأكدوا للناس تشويه صورته[81]، باستثناء المنذر الذي ترك الوفد باتجاه البصرة حيث استضافه الوالي ابن زياد ثم طلب منه الإسراع بالرحيل، حينما بلغه شدة غضب الخليفة على أعضاء الوفد...[82]وأعلن ابن حنظلة لأهل المدينة أنه سيجاهد يزيدا بنفسه وبكافة أبنائه، وبرر قبوله للأموال التي أعطاها له يزيد وكذا لكل بنيه الذين كانوا ضمن الوفد أيضا بأنه يتقوى بها عليه، وفي مكة تحدث المسور بن مخرمة (وهو ابن أخت الصحابي ابن عوف) عن شرب الخليفة للخمر مما جعل يزيدا يأمر الوالي بأن يقيم عليه الحد، مما زاد من نقمة الناس عليه... إلا أننا نجد خبرا مذكورا في غير المصدرين الرئيسين (الطبري والبلاذري) يؤكد أن الخليفة يزيدا لما ولّ على المدينة عثمان بن محمد بن أبي سفيان أراد أحد عماله على أراضي الصوافي (أي الأراضي الزراعية التي استصفاها معاوية لنفسه) واسمه ابن مينا- وكان من الموالي لا من العرب- أن يعدّل في نظام الري لصالح أراضي بني أمية، فمنعه أبناء الأنصار وسائر السكان، رغم تهديدات الوالي الذي أرسل إلى يزيد يخبره فغضب هذا الأخير وأمر بإعداد الجيوش ضدهم...[83]هذا هو سبب تمرد أهل الحرة، ومهما يكن السبب فقد أعلن الأشراف خلعهم ليزيد، وأعلن الناس وراءهم ذلك، وأُسندت القيادة لعبد الله بن حنظلة، وأرسل إليهم الخليفة صحابيا كان واليا على الكوفة، ألا وهو النعمان بن البشير، الذي حاول تحذير قومه من مغبة تحدى السلطة وحذرهم الفتنة وحثهم على حقن الدماء، ورد على ابن مطيع الذي كان يترأس أبناء المهاجرين بأنه سيترك أبناء الأنصار يُقتلون ويهرب هو إلى مكة، وهو ما حدث فعلا[84]، وهذه النصائح لم تجد من يستمع إليها في أجواء تصاعد صيحات الثورة ضد السلطة الأموية.

---

[81]- الطبري، تاريخ، ص242 . المقريزي، رسائل المقريزي، تح رمضان البدوي وآخر؛ دار الحديث 1998 ط1 القاهرة. ص 13-64. شعوط، أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ، المكتب الاسلامي 1988 ط6 بيروت. ص 230-235. حسني شيخ عثمان، أباطيل الأباطيل نقد كتاب أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ، مكتبة الصديق ط1 الطائف 1989. ص111-113.

[82]- الطبري، تاريخ، ص 242-243

[83]- أبو العرب، كتاب المحن، تح الجبوري دار الغرب الاسلامي 1983 ط1 بيروت ص146-147 عن الواقدي بسنده الجماعي.

[84]- الطبري، تاريخ3، ص 243 .

- **تصاعد ثورة أهل المدينة:**

في سنة 63هـ 683م قام أهل المدينة بطرد عثمان بن محمد بن أبي سفيان، وهو الوالي عليهم من قبل السلطة الأموية، وطردوا معه كل من يمثل بني أمية وهم قرابة الألف، فاجتمع هؤلاء بدار مروان بن الحكم حيث حوصروا بشكل غير مشدد، وسُمعت الهتافات بخلع يزيد، وكان مروان ومعه عمرو بن عثمان بن عفان قد كتبا رسالة استغاثة إلى الخليفة، وتكفّل عبد الملك بن مروان بالتسلل وإيصال الرسالة إلى الشخص الذي سيسرع بها إلى العاصمة دمشق، واسمه حبيب بن كرة واتفق معه عبد الملك على أن ينتظره ومعه جواب الخليفة في مكان محدد (ثنية الوداع) وفي زمان محدد (بعد انقضاء 24 ليلة)...

وفعلا أوصل حبيب الكتاب إلى يزيد الذي ردّد هذا البيت الشعري:

لقد بدّلوا الحِلم الذي من سجيتي فبدّلتُ قومي غلظة بليان

واستغرب من عجز الأمويين بالمدينة وهم ألف عن القتال، فأكّد له حبيب أنه لا يمكن فعل شيء إزاء إجماع المدنيين ضدهم، ثم أرسل يزيد إلى الأشدق (عمرو بن سعيد العاص) ليعينه على رأس جيش يتكفل بقمع أهل الحجاز فأبدى عدم رغبته في إراقة دماء قريش، واقترح أن يعيّن من هو أبعد رحما منه، وهنا أرسل يزيد حبيبا إلى مسلم بن عقبه المري وهو من أبرز قادة الجيوش، لكنه في تلك الفترة كان كبير السن مريضا، فلما تلا عليه حبيب رسالة الاستغاثة أجاب بأنهم جبناء، واقترح أن يتركوا وشأنهم ليقاتلوا عدوّهم بأنفسهم فيظهر المخلص للدولة من غير المخلص، وأعاد اقتراحه هذا على الخليفة الذي رفضه مؤكدا على نصرة بني أمية ومعاقبة أهل المدينة وهكذا تمّ تعيين مسلم بن عقبة قائدا على اثني عشر ألف جندي متجهزين إذ أعطاهم الخليفة أعطياتهم كاملة[85] وأشرف عليهم متمثلا بأبيات منها مطلعها:

واعجبا من ملحدٍ واعجبا مخادعًا في الدين يقْفوا بالفرى

أما حبيب بن كرة –مولى الأمويين– فعاد إلى المدينة في الموعد المحدد، والتقى بعبد الملك، وأخبره بقرار الخليفة، فأسرعا معا إلى دار مروان لإبلاغ الذين حوصروا فيها بالأمر حتى يطمأنوا. أما قائد الجيش الأموي المنطلق من دمشق فقد زوّده الخليفة بصلاحيات واسعة ووصايا حازمة ضد أهل المدينة، الذين أفسدهم حلم معاوية—حسب تعبيره– فكانت الأوامر لمسلم بن عقبة بألا يتهاون في تسليط الشاميين عليهم بعد إمهالهم ثلاثة أيام، فإن رفضوا قاتلهم، وأباح المدينة ثلاثة أيام لجند الشام ينهبونها، وأضاف الخليفة توصيةً بإكرام علي زين

[85]– المصدر نفسه، ص243-244 .

العابدين الذي كان قد استقر بالمدينة بعد كربلاء، كما بدأ يزيد وصاياه هذه بأن يكون القائد الحصين بن نمير السكوني نائبا لمسلم بن عقبة...[86]

ووصلت أخبار هذا الجيش إلى المدينة فضيّق أهلها الحصار على دار مروان، وأرادوا الفتك بالأمويين فيها، ثم حصل الإتفاق على قبول الأمويين بالخروج من المدينة، بعد أن يعطوهم تعهّداتهم بعدم مساعدة الجيش القادم وبعدم إعطائه المعلومات عنها[87]، وأثناء خروج بني أمية بنسائهم طلب مروان من علي زين العابدين أن يجعل نساءه ضمن حريمه مراعاة لما بينهما من قرابة فخرج بهنّ علي إلى ساحل (ينبع)[88].

- **موقعة الحرة:**

استعدّ المدنيون الثائرون للتصدي للجيش الزاحف، وذلك بإفساد الآبار التي في طريقه، لكن الأمطار التي صادفت الجيش أثناء الطريق والثلج الذي تزوّدوا به أغناهم عن مياه الآبار[89]، كما وأن المدنيين بادروا إلى حفر الخندق[90] في الجهة الشمالية للمدينة، وهي جهة مفتوحة، لأن الجهات الأخرى محمية طبيعيا بالحرة الشرقية والغربية مع جبل (عير) في الجنوب، وقد سبق أن أمر النبي ε بحفر الخندق وصدّ به تكالب القبائل عليه في العام الخامس للهجرة[91] بل إن أهل المدينة تذاكروا حديثا نبويا "من أن عائذا يعوذ بالبيت فيُبعث إليه بعث، فإذا كانوا ببيداء من الأرض خُسف بهم"[92] وبعد أسبوعين اكتمل حفر الخندق وذلك وسط تعبئة عامة وحماسية شديدة وفورة عارمة، وقد ترأّس زعيم أبناء الأنصار الصحابي عبد الله بن حنظلة الغسيل الربع الأهم من ثوار المدينة، بينما ترأّس على ربع آخر زعيم أبناء المهاجرين الصحابي عبد الله بن مطيع العدوي، وترأّس الصحابي معقل بن سنان الأشجعي ربعا آخر يمثل سائر أبناء المهاجرين من غير قريش...[93]

في هذه الأثناء التقى بنو أمية المطرودون بالجيش القادم في منطقة وادي القرى، فتكلم قائده مسلم مع قائدهم عمرو بن عثمان بن عفان، لكن هذا الأخير رفض إعطاء أية معلومات عن المدينة احتراما منه للمواثيق

---

[86]- الطبري، تاريخ3، ص244-245 .

[87]- المصدرنفسه، ص245 .

[88]- المصدر نفسه، ص245.

[89]- المصدر نفسه، ص250 رواية مختصرة لابن شبويه عن وهب بن جرير بن حازم عن جويرية.

[90]- الرواية السابقة للطبري عن ابن مساحق عن حبيب.

[91]- ابن هشام: السيرة النبوية، دار صبح، ط1، 2007م، بيروت، ص895-909.

[92]- مسلم، صحيح، حديث رقم2209.

[93]- الطبري، تاريخ، ص246 .

التي عاهدوا بها الثوار مقابل السماح بخروجهم سالمين، فغضب مسلم وأقسم أنه لولا نسبه لأمر بضرب عنقه، وصرّح أنه لن يغفرها لقرشي بعده، وهذا التصريح جعل مروان يقدِّم ابنه عبد الملك باعتباره غير معني بالتعهّدات التي قطعت مع الثوار، فراح عبد الملك ينصح مسلما بالطريق التي يحسن به سلوكها، والمكان الأفضل الذي يتوقف به الجيش قرب المدينة، بل حدد له الزمان والمكان المناسبين لاقتحام المدينة... مما حدا بالقائد مسلم إلى إظهار الإعجاب به لدى مروان بن الحكم، ووصلت الجيوش مشارف المدينة المنورة فوجد أهلها على أهبة الاستعداد[94]، فأرسل إليهم مسلم يرغّبهم في الطاعة ويحاول ترضيتهم في بعض الأمور، وأخبرهم أن الخليفة لا يريد قتالهم، بل قتال ابن الزبير في مكة، وأنه أمره أن يمهلهم ثلاثا... وفي ذلك الحين أمر مسلم مروان بأن يتصل بمن يعرفهم من أهل المدينة كي يفتحوا له ثغرة يقتحم منها الخندق، وفعلا كان له ذلك؛ إذ وافق بنو حارثة من الخزرج على أن يقوموا بذلك عند اشتداد القتال[95].

وفور انتهاء المهلة كرر مسلم نداءه إلى أهل المدينة، فكان جوابهم أنهم سيحاربونه، فطلب منهم أن تكون حربهم ضد الملحد (أي ابن الزبير) الذي جمع إليه المرّاق والفسّاق (أي الخوارج) فما كان جوابهم له سوى شتمه وقطع طريقه إلى حرم الله الذي يريد إفساده وإخافة أهله، فلم يكن عندئذ بدٌّ من إعلانه القتال وكانت بدايته لصالح المدنيين إذ اصطدم زحف جيش مسلم باستماتة أهل المدينة، وخاصّة الفضل بن عباس الذي كان يريد اقتحام الصفوف للوصول إلى القائد مسلم، وطلب من ابن حنظلة الغسيل أن يمدّه بالفرسان، ولما تضعضعت صفوف الأمويين كاد الفضل أن يصل إلى قائدهم الذي كان محاطا بخمسمائة راجل يجثون على الرُّكب، ويوجهون رماحهم إلى صدور أعدائهم، وحين قتَل الفضل حاملَ رايتهم -وهو مولًى لمسلم- ظن أنه قد قتل مسلما بالذات[96]، في الوقت الذي راح مسلم يوبّخ جنده على تراجعهم، خاصة وأنهم على بصيرة من دينهم وإمامهم، وتهدّدهم بالحرمان من العطاء وإرسالهم إلى الثغور[97]... وهو (أي مسلم) في ذلك كله مريض محمول على كرسي وسط الصفوف التي ثبتت معه لتثبت معها سائر الصفوف، ثم لاحظ مسلم تقدّم رجل أحمر نحوه، فأمر جنده بقتله فقتلوه برماحهم فإذا هو الفضل بن عباس[98]. وقُتل في هذه الأثناء أيضا من رؤوس أهل المدينة إبراهيم بن نعيم النحام العدوي وزيد بن عبد الرحمن بن عوف... ثم أمر مسلم جنوده الخيالة بأن يركزوا

---

[94]- الطبري، تاريخ3، ص245-246 .

[95]- المصدر نفسه، والإسناد والبلاذري5ص353.

[96]- المصدر نفسه، ص246 .

[97]- المصدر نفسه، ص247 .

[98]- المصدر نفسه، ص247 .

على أهم ربع من أرباع أهل المدينة وهم الذين يقودهم ابن الغسيل، فاشتدّ القتال، فاستدعى جند حمص بقيادة الحصين بن نمير السكوني، كما استدعى الرماة بقيادة عبد الله بن عضاة الأشعري، ورغم اشتداد أوار المعركة إلاّ أن ابن الغسيل ظل يوجّه المعركة، وكلما قُتل واحد من أبناءه جعل مكانه واحدا آخر حتى قُتلوا عن آخرهم...[99] ولما علم المدنيون بدخول أعدائهم إلى ما وراء الخندق من جهة بني حارثة تراجعوا، ثم انهزموا، ليدخل عليهم جند الشام مدينتهم التي أباحها لهم قائدهم ثلاثة أيام يعبثون فيها قتلا وفسادا ونهبا واغتصابا، حتّى أن ثمانمائة امرأة حرّة حملت وعُرف بعد ذلك أولادهن ب(أولاد الحرة)، وقد وصل عدد قتلى الأشراف من قريش والأنصار إلى سبعمائة، وعدد القتلى من غيرهم إلى ستة آلاف وخمسمائة، نصفهم من الموالي... وعند انتهاء الأيام الثلاثة أمر مسلم بتوقيف نهب المدينة، وراح يتفقّد القتلى مع مروان الذي كان يعرف وجوه الناس، ثم جعل مقرّه في قباء فحسب، واستدعى الناس ليجدِّدوا بيعتهم للخليفة، ولكن بيعتهم هذه المرة لن تكون على السمع والطاعة أو على الكتاب والسنة –كما جرت العادة– بل هي بيعة على أنهم عبيدٌ ليزيد؛ يفعل فيهم وفي ممتلكاتهم ما يشاء ; وقد جاء بعض الأشراف لتجديد البيعة واحتجّوا على هذه الصيغة المهينة فكان جواب مسلم هو ضرب عنق كل متردد، حيث قطع رأس يزيد بن عبد الله بن زمعة (وكانت أمه زينب ربيبة النبي **ε**؛ إذ كانت أمها أم سلمة رضي الله عنها) وكذلك فعل مع محمد بن أبي الجهم بن حذيفة العدوي، وقد علّق مسلم على هذين الرجلين بالذات بأنه قتلهما لكيلا يشهدا على يزيد بشهادة زور أبدا !ويقصد بذلك إكرام يزيد لوفد المدينة –وكانا من ضمنه– فعاد الوفد يشهد على يزيد بالخمور والفجور... واستنكر مروان الجالس قرب مسلم هذه القسوة، فوخزه بقضيب في يده، مهددا إياه بالقتل هو أيضا، ولتأكيد ذلك رفض منه أن يؤمِّن صهره يزيد بن وهب بن زمعة فضُربت عنقه، بل إن أحد أبناء عمومة مسلم وهو الصحابي معقل بن سنان الأشجعي – (وهو من أعضاء ذلك الوفد ومن رؤساء الحرة)، ذكّره مسلم بشهادته ضد يزيد وأنه التقاه يومها وحذّره، ولذلك أمر بقتله لما جاءه الآن لتجديد البيعة... ولهذا خاف مروان وابنه عبد الملك على أحد أشراف آل البيت وهو علي زين العابدين بن الحسين، فدخلا معه على مسلم، وطلبا له الأمان فأعلن مسلم أن الخليفة أوصاه به خيرا، ولولا ذلك لرفض طلبهما، ثم أظهر لعلي زين العابدين الحفاوة والإكرام حتى انصرف. ومن أعمدة آل البيت علي بن عبد الله بن عباس الذي بسط عليه القائد الحصين بن نمير السكوني حمايته لأن أمه كانت من كندة فسمح له مسلم أن يبايع على السمع والطاعة فقط. بل إن عمرو بن عثمان بن عفان –وهو أموي وأبوه خليفة وصحابي– تعرّض للتهديد من مسلم وحتى للضرب من جنوده لما جاء ليجدد البيعة، وذكّره بأنه رفض أن يخبره

[99]– الطبري، تاريخ، ص247 .

عن ثوار المدينة لما طردوه، لا لشيء إلاّ لأنه أقسم لهم بأن يمتنع عن مساعدة عدوهم، وذكّره بأنه رجع ليستقر بالمدينة أثناء ثورتها على سلطة بني أمية، كما ذكّره بأن الشاميين يدافعون عن دولة عائلته الأموية بينما هو يُضيِّعُها، ثم عيّره بأمه إذ كانت من قبيلة (دوس)، وهنا يحاول مروان أن يُدافع عن عمرو باعتباره ابن عمه، فذكّره مسلم أن معقل بن يسار هو ابن عمه أيضا ومع ذلك فقد قتله[100].

• نظرة تحليلية عامة لاضطرابات الحجاز في نهاية العهد السفياني:

ومما تجدر الإشارة إليه أن ثورة أهل المدينة كانت عشوائية إذ لم تكن منظمة، كما لم تكن لها رئاسة واضحة، فقد ثاروا بشكل عرضي وعفوي، كنوع من الاحتجاج المسلح على نظام مفروض ومرفوض، مع عدم اهتمامهم بنتائج هذه الثورة، وهم بذلك لم يكن لديهم هدف استراتيجي محدد؛ سواء كان مذهبيا أو ماديا أو قبليا أو شخصيا يسعون لتحقيقه في أرض الواقع –حال نجاحهم–.

هذا، وقد أخطأ ثوار المدينة عندما سمحوا لبني أمية الذين كانوا رهائن عندهم بالخروج من المدينة، وهو تصرف يدل على سذاجة كبيرة في المواقف الخطيرة.

كما أنهم (أهل المدينة) لم يحاربوا الجيش الأموي تحت قيادة واحدة؛ فهذا عبد الله بن حنظلة كان يترأس أبناء الأنصار وذاك ابن مطيع العدوي يترأس بدوره أبناء المهاجرين من قريش بينما نجد معقل بن يسار الأشجعي يترأس أبناء المهاجرين من غيرهم...

هذا، بالإضافة إلى خيانة بني حارثة –من الخزرج– لأهل المدينة، حيث قاموا بفتح طريق للجيش الأموي مقابل أموال تسلموها أووُعدوا بها.

إلى جانب عدم تمويل ابن الزبير لأهل المدينة بأية إمدادات أو مساعدات، بل إنه ظل قابعا في مكة ينتظر دوره، مع أنه هو الذي شجعهم على خلع طاعة يزيد، ولما جاء الجيش الأموي لم يقدم لهم أي عون، رغم أنه كان على اتصال بهم قبل ذلك.

[100]– الطبري، تاريخ3، ص248-249 .

كما نجد أن الأمويين قد اتبعوا في القضاء على ثورة أهل المدينة الطرق المعهودة، ألا وهي الإفراط في القوة المسلحة والتهديد بها تجاه المتحمسين ضدهم، وبمقابل ذلك استخدموا أيضا الإغراء بالأموال وإظهار الوعود بها تجاه المترددين...[101]

• محاصرة ابن الزبير في مكة الحصار الأول:

في منتصف الشهر الأول (محرم) من عام 64هـ أي مع انتصاف سبتمبر من عام 683م انطلق الجيش الأموي نحو وجهته النهائية (أي ابن الزبير في مكة)، وقد عيّن مسلم على المدينة أحد رجالات أعمدة الحكم الأموي، وأحد أعمدة النظام بالشام، ألا وهو روْح بن زنباع الجذامي، وذكر الإخباري الواقدي اسم عمرو بن محرز الأشجعي... وفي الطريق توفي مسلم بعد اشتداد المرض عليه (بثنية المشلل) قرب (قديد) وخلفه على الجيش نائبه الحصين بن نمير الذي واصل السير إلى مكة[102]، فجاءت امرأةٌ ليزيد بن زمعة الذي قتله مسلم ابنها فنبشت القبر وصلبت الجثة حسبما أورده الإخباري جويرية عن أشياخ أهل المدينة[103] .

لم يكن مسلم يريد تعيين الحصين من بعده وأعلن عن رأيه أمام قادة الجيش عندما حضرته الوفاة، لكنه مع ذلك عيّنه قائدا عليهم تنفيذا منه لأوامر الخليفة يزيد، بل نجده يصرّح بتفضيله للقائد حبيش بن دلجة القيني لولا التزامه بالطاعة للخلافة[104]، ثم التفت إلى الحصين ينصحه بعدم الإطالة بمكة لحرارتها الشديدة، وألا يثق في قرشي أبدا، ونظرا لعدم وجود تحصينات في مكة فعليه أن يستولي على جبالها المحيطة بها لينصب عليها المجانيق، فإن احتموا بالكعبة فليهدمها عليهم، لأنه يستطيع إعادة بنائها بعد ذلك...[105]

وفعلا اقترب جيش الشام من مكة مع نهاية المحرم (الموافق لنهاية سبتمبر)، ليبدأ حصارها الذي سيطول لمدة تتجاوز الشهرين (صفر وربيع الأول)، وكان أهل مكة قد علموا بما حدث في الحرة مع بداية المحرم من طريق أحد موالي المسور[106]، فبدأت الاستعدادات للقتال والحصار، وتدفقت على مكة جموع ممن أفلتوا من وقعة الحرة من أهل المدينة، كما قدم ثمانون من أبطال الخوارج لمساعدة ابن الزبير في مواجهة الأمويين[107]، دونما مبايعة له،

---

[101]- محمد جمعة عبد العزيز يوسف موسى: المعارضة في العصر الأموي... ص 63-64 .

[102]- المصدر نفسه، ص250.

[103]- المصدر نفسه، والبلاذري أنساب5 ص349-350 بعبارة "قالوا...ويقال..." وص354-355.

[104]- المصدر نفسه، ص250-251.

[105]- البلاذري، أنساب5، ص357-358 .

[106]- الطبري، تاريخ3، ص249-250 .

[107]- البلاذري، أنساب5، ص358-360 .

بل وصل الأمر بملك الحبشة النجاشي إلى إرسال بعض الجنود للدفاع عن الكعبة[108]، هذا بالإضافة إلى شخصية بارزة سيكون لها دور في المرحلة الموالية وتتمثل في شخصية المختار بن أبي عبيد الثقفي الذي كان متحمسا مع حركة الحسين بالكوفة حيث سجنه واليها ابن زياد ثم أُفرج عنه بعد وساطة صهر الصحابي ابن عمر لدى الخليفة يزيد[109]، فانتقل إلى مكة حيث كانت معارضة ابن الزبير في تصاعد مستمر، وحين سأله هذا الأخير عن الكوفيين أخبره أن الظاهر فيهم هو موالاة السلطة، لكن بواطنهم تتحفّز إلى أول فرصة للانقضاض عليها، وقدّم بعض النصائح لابن الزبير تدعّمه في ثورته، ثم غاب المختار عن الأنظار سنة كاملة، ليظهر بعدها وهو يطوف بالكعبة، وقد التفّ حوله بعض أهل الطائف –إذ كان ينتمي لأهلها من ثقيف– فأسرع إليه أحد رجال ابن الزبير وهو عباس بن سهل –الذي كان صحابيا من أهل المدينة–[110] فكلمه عن اجتماع أعيان الحجاز على الزبير ضد الأمويين وضرورة أن يكون معهم في ذلك، فأجابه بأنه سيبايع ابن الزبير على أن يجعل له مكانة عنده، وقد أظهر المختار شجاعة في الحصار الأول لمكة، لكن ابن الزبير لم يهتم به، مما جعله ينطلق بعد إنهاء الحصار نحو الكوفة، حيث سيحقق مشروعه الخاص به هناك[111].

تركزت قوات ابن الزبير المدافعة حول المسجد الحرام، بل إن أهل مكة وضعوا على الكعبة خشبا وغطوها بالجلود، فأطلّت عليهم الجيوش الأموية من جبل الحجون بأعلى مكة، ونصبت المجانيق على الجبل الأحمر المشرف على جبل (قعيقعان) والمشرف بدوره على دار الندوة، وبعث القائد الحصين إلى أعيان مكة أن ابن الزبير لو أبرّ بقسم الخليفة لأصبح واليا على الحجاز، فكان جوابهم أنهم عائذون بالبيت وابن الزبير أحدهم لكنه يصلي بهم، وجاء أحد الأشراف وهو عبد الله بن صفوان الجمحي إلى الحصين الذي حاول وعظه وتخويفه بجند الشام ضد من أباح الحرم، فأجابه ابن صفوان بأن من هاجم الحرم بخيله هو المستبيح له، وأظهر له إصرارهم على القتال[112].

وفعلا ابتدأ القتال قبيل انتصاف شهر صفر، حيث ترامؤا بالنبال وتقاتلوا إلى الليل بالرماح، ثم رجع كل جيش إلى معسكره، وقد قُتل من الشاميين ثلاثة جنود ومن أصحاب ابن الزبير أربعة، فضلا عن الجرحى، وتوالت الأيام على هذه الوتيرة من القتال، وأخرج المسور ما عنده من السلاح وفرّقه على مواليه، وتعاون مع ابن

---

[108]– البلاذري، أنساب6، ص377 .

[109]– الطبري، تاريخ، ص287–288 .

[110]– الطبري، تاريخ، ص289–290 .

[111]– الطبري، تاريخ، ص290–291 .

[112]– البلاذري، أنساب5، ص366 .

الزبير ومصعب بن عبد الرحمن بن عوف وعبيد بن عمير... حتى تمكنوا من ردِّ الأعداء إلى الأبطح بين مكة ومنى[113] لكن المسور كان أصيب بحجر المنجنيق فقُتل، وقاتل أيضا المنذر بن الزبير الذي شهد الحرة وانضم إلى أخيه الذي أمره بأن يحمل عليهم فاشتبك معهم حتى قتل[114]، وظل ابن الزبير يهزم مهاجميه بل ويلاحقهم لوحده مرتجزا، فلما أخبروا الحصين عن هذا الأمر العجيب لم يتعجب لأنه أسد يُدافع بشجاعة عن مُلك يُحاول افتكاكه، ورفض طلبه للمبارزة[115]... بينما كان المختار الثقفي يُظهر أنواعا من الشجاعة الملفتة إلاّ أن ابن الزبير لم يهتم به، كما استبسل الخوارج في القتال، وحين سئل ابن الزبير عن سبب قبولهم في صفوفه أجاب بأنه يقبل الكفار بل الشياطين ضدّ جند الشام [116]! ولما حمي القتال كان المختار يقاتل بثلاثمائة ممن معه كتائب الحصين، حتى ردها على أعقابها، وكان أحيانا يستريح ليعاود الكرة حتى يكشف الشاميين عن مكة[117]، وقد قُتل أثناء ذلك كله مصعب بن عبد الرحمن بن عوف، بعد أن قتل خمسة من العدو، كما قتل المنذر بن الزبير، أمّا مصعب بن الزبير فلم يُقتل رغم إمعانه في القتال وإثخانه في العدو. هذا، وكلما وقع وقْفٌ مؤقّت للقتال انتهز الفرصة أحد فقهاء مكة ويسميه أهل الشام (الرجل الصالح) ألا وهو التابعي الشهير عبيد بن عمير بن قتادة الليثي ليُقدّم الوعظ لجنود الشام واشترطوا عليه ألا يُنقص من حرمة خلافة يزيد لديهم لأنها خلافة الله في أرضه فهي أعظم من حرمة الكعبة [118]!

وقد حدث أن أصيب المسجد بحجارة المنجنيق، ثم اندلع حريق بالكعبة، وذلك في اليوم الثالث من ربيع الأول[119]، واختُلِف في منشإ الاحتراق، خصوصا وقد كان في ليلة مظلمة ذات ريح ورعْد، وجاءت سحابة أيضا فوق أحد جبال مكة، وأرعدت وأصعقت حتى أحرقت المنجنيق ! وأوقف الحصين عمليات الرمي[120]، بينما اشتد القتال في الأيام التالية في سكك مكة، فقد قاد كلٌّ من المختار وابن مطيع وعباس بن

---

[113]- االمصدر نفسه، 5، ص 359 و364 و366 .

[114]- البلاذري، أنساب5، ص358-359، والطبري، تاريخ، ص251 هشام عن عوانة بغير سند وص290 .

[115]- البلاذري، أنساب5، ص361.

[116]- المصدر نفسه، ص360.

[117]- المصدرنفسه، ص360-361.

[118]- المصدر نفسه، ص364.

[119]- الطبري، تاريخ3، ص251 و290 والطبري 251-252. السيوطي، تاريخ الخلفاء، دار المعرفة 2000 ط5 بيروت. ص 182-194. الفاسي المكي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق د.عمر تدمري، دار الكتاب العربي ط1 بيروت 1985. ج2، ص 264-266.

[120]- البلاذري، أنساب5، ص365-366 .

سهل تنظيم الدفاع المستميت بعد احتراق الكعبة، ولما اقترب المختار وعباس من بعضهما طالبا من الأعداء المبارزة الفردية، وفعلا قتل المختار مبارِزه فإذا هو عبدٌ رومي، وقتل عباس مبارِزه فإذا هو عبدٌ حبشي فقررا ألا يبارزا أحدا إلاّ إذا عرفاه، وشيئا فشيئا تحمّس المدافعون عن مكة للقتال أكثر من ذي قبل بعد الحريق، فبايعت جماعة عباس بن سهل على الموت، وقاد المختار جماعة من خوارج اليمامة، كما قاتل ابن مطيع مع آخرين...[121]

واستمر الحصار إلى نهاية شهر ربيع الأول بينما كانت وفاة الخليفة يزيد في منتصفه، ولم يعلم جنوده في مكة بالأمر إلا بعد أربعين يوما[122]، أما ابن الزبير فقد علم بالخبر قبلهم فأرسل إليهم قائلا: "إنّ طاغيتكم قد هلك، فمن شاء أن يدخل في ما دخل فيه الناس فليفعل ومن كره ذلك فليلحق بشامه"[123] لكن القتال تواصل بسبب عدم تصديقهم للخبر، إلى أن جاءهم به المنقّع النخعي واسمه ثابت بن قيس أحد أشراف الكوفة وله علاقة مصاهرة مع الحصين، وهذا الأخير كان يراه في مجلس الخليفة بدمشق، فتيقّن من الخبر وأرسل إلى ابن الزبير ليلاقيه في الأبطح، فلما تحادثا اقترح الحصين أن يبايع جيشه ابن الزبير ويذهب معهم إلى دمشق العاصمة ليستكمل البيعة هناك، فاصطدم هذا الاقتراح بالرفض القاطع مع التهديد بالانتقام لأهل الحرة أضعافا مضاعفة ! وكان ابن الزبير يتكلم بصوت عال، بينما تكلم الحصين معه سرّا، مما جعل هذا الأخير ينفي عنه صفة الدهاء، ثم قرّر رفع الحصار ورجع بجيشه نحو المدينة أولا ثم الشام[124]... ويبدو أن ابن الزبير قد ندم على تلك الفرصة السانحة المهدورة.

وتشير رواية أخرى على أن ابن الزبير تشاور مع عبد الله بن صفوان الجمحي وغيره، فرفضوا بشكل حازم وحاسم فكرة ترك الحرم الذي نصره الله فيه عليهم، بل أكثر من ذلك، لقد رفضا فكرة الانتقال مع جيش رمى بيت الله... وعبّر عن ذلك ابن الزبير بأنه يتشاءم من ترك الحرم ومغادرته...[125]

---

[121]- الطبري، تاريخ3، ص290-291 .

[122]- المصدر نفسه، ص251.

[123]- المصدر نفسه، ص253 .

[124]- المصدر نفسه، ص253 ابن تيمية، منهاج السنة النبوية، دار الكتب العلمية بيروت، ص237-256. حسن إبراهيم حسن. تاريخ الإسلام السياسي، دار احياء التراث العربي بيروت ومكتبة النهضة المصرية القاهرة ط7 (1964) ج1، ص285-290. الشريف، دور الحجاز في الحياة السياسية العامة، دار الفكر العربي 1968 ط1 القاهرة. ص 415-450. شعبان، صدر الإسلام والدولة الأموية، دار الأهلية 1983 بيروت. ص 102-112.

[125]- البلاذري، أنساب5، ص371-372 .

كان القائد الحصين قد اقترح الخلافة على الصحابي عبد الله بن عمر، لكنه اعتذر باعتزاله السياسة وتفرغه للعبادة والحديث والفتوى...[126] وأخيرا أرسل الحصين مبعوثيه إلى ابن الزبير (زفر بن الحارث وعبد الله بن مسعدة الفزاري) ليأذن لهم في الطواف والأمان والانصراف... وبعد مشاورات وتردد سمح لهم ابن الزبير بذلك، وعلّق على طواف أهل الشام بأنه لن يزيدهم إلاّ شرًّا، وأنهم إنما ينصرفون عنهم عائدين بسخط الله...[127]

ثم التفت الخوارج إلى ابن الزبير يسألونه عن رأيه في الخلفاء الراشدين وما حصل في الفتنة الكبرى سابقا، وكان أهم السائلين له نجدة بنعامر الحنفي وعبيدة بن هلال ونافع بن الأزرق وأبو طالوت وغيرهم من رؤوس الخوارج...فاستمهلهم إلى موعد آخر، حيث تسلح جيدا وخرج إليهم، فاستنتج نجدة أنه سيعلن مخالفته الصريحة لهم، وهو ما حدث فعلا، حيث برّأ الصحابة وبرّر مواقفهم وعلى رأسهم أبوه الزبير، فانفصلوا بشكل نهائي عنه وانقطع تحالفهم معه، وغلبوا على اليمامة وسط جزيرة العرب وامتد نفوذهم إلى حضرموت اليمن جنوبا وهدّدوا البصرة بالشمال الشرقي، وكان ابن زياد والي العراق قد سجن زعيمهم نافع بن الأزرق فولّوا عليهم باليمامة ابن بحدج ثم نجدة...وكل ذلك حدث عند وفاة يزيد واضطراب الأمر وانتشار بيعة ابن الزبير في الأمصار[128].

---

[126]- المصدر نفسه، ص364 .

[127]- المصدر نفسه، ص363 الأزرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق رشدي الصالح ملحس، مطابع دار الثقافة ط6 بيروت 1994. مج 1، ص 196-220.

[128]- الطبري، تاريخ، ص284-285 ابن الوردي، تاريخ، المطبعة الحيدرية ط2 النجف 1969. ص 230-234. أبو الغيط، الأحوال السياسية للدولة الأموية في خلافة عبد الملك، ص 84-100.

المحاضرة الرابعة :

من تفاصيل بداية العهد المرواني

- **نهاية الأسرة السفيانية:**

ما إن تولى معاوية الثاني- وكان فتى مريضا – منصب الخلافة بعد وفاة يزيد –منتصف ربيع الأول 54هـ- حتى أعلن زهده في هذا المنصب ورغبته في التخلي عنهم، ولم يلبث سوى أسابيع أو أشهرا حتى توفي[129] ليسدل الستار بذلك عن البيت السفياني؛ الذي يكون قد فشل في تثبيت الملك الوراثي كأول تجربة لقيادة المسلمين بأسرة حاكمة واحدة، إلا أن فرعا آخر من بني أمية –و هو الفرع المرواني- سيتدارك الأمر ويثبت دعائم الملك الأموي وتنجح معه تجربة حكم الأمة الإسلامية بأسرة واحدة، لكنها هذه المرة الأسرة المروانية التي ستخوض غمار الاضطرابات الخطيرة المنجرّة عن إعلان نهاية الأسرة السفيانية .

ففي الوقت الذي كان القائد العسكري الحصين يتراجع عن مكة والحجاز كله نحو العاصمة دمشق، كان الأمويون –و على رأسهم شيخهم مروان بن الحكم بن العاص- يتركون المدينة المنورة فور إعلان أهلها ولاءهم الجديد لابن الزبير، وراحت الأمصار الأخرى ترسل بيعاتها لهذا الخليفة الجديد الصامد في مكة المكرمة، واستقر المقام بهؤلاء الأمويين في مدينة تدمر، حيث راحوا يترقبون تدافع الأحداث وتلاطم أمواجها وتسارع وتيرتها ... فهذه مدن العراق قد طردت عمالها وعلى رأسها الوالي عبيد الله بن زياد، بل اختاروا عمالا مؤقتين ريثما يعين لهم الخليفة ابن الزبير ولاتهم ، وكذلك الحال في مصر التي تولاها عبد الرحمن بن جحدم لصالح ابن الزبير .... وكذا سائر الأمصار[130]، مثل خراسان ووواليها سلم بن زياد (و هو أخ لعبيد الله بن زياد) والذي تركها نهبا للصراعات حيث برز في خضمّها عبد الله بن خازم السلمي بولاء زبيري ...

- **بدء الاضطرابات بالشام (مؤتمر الجابية وموقعة مرج راهط):**

أما الشام –معقل الخلافة الأموية- فراحت هي الأخرى تتهاوى لما أعلنت كل مدينة ولاءها لابن الزبير (كالنعمان بن بشير في حمص، وزفر بن الحارث الكلابي في قنسرين شمال الفرات، وناتل بن قيس الجذامي

[129]- الطبري، تاريخ3، ص 254 و267-268 .

[130]- المصدر نفسه، ص 267 .

بفلسطين، بل وحتى الضحاك بن قيس في العاصمة دمشق نفسها)[131] ولم تبق منطقة خالصة الولاء للأمويين سوى الأردن التي كان على رأسها زعيم بني كلب حسان بن مالك بن بجدل، وكانوا أخوالا ليزيد، ولذا راح يدعو لمبايعة خالد بن يزيد وهو طفل صغير ، وقد انضم إليه روح بن زنباع الذي طُرد من فلسطين وكان عاملا بها لبني أمية.

ووسط هذه الأجواء المشحونة فكّر مروان –و هو بتدمر– أن يتصل بابن الزبير كي يبايعه ويأخذ منه أمانا لبني أمية، وأثناء تحركه لقيه عبيد الله بن زياد الهارب حينها من العراق فأقنعه بتولي الخلافة[132] ورجع إلى تدمر حيث رشح نفسه لتولي الأمر[133]، أما الضحاك حاكم العاصمة يومئذ فكان مترددا في إعلان ولائه الجديد للزبيريين، فكايده الوالي ابن زياد بأن أقنعه أن يرشح نفسه للخلافة عوض أن يدعو لغيره فازداد تردد الضحاك، ثم جاءه كتاب من حسان الكلبي يطالبه بإظهار حق بني أمية ومبايعتهم، وكانت لدى حامل الرسالة نسخة منها، فلما قام الضحاك في الناس ولم يعلن ما طُلب منه، قام الرجل معلنا به، وأيده بعض الموالين لبني أمية من بني كلب خصوصا واليمانية عموما ، وقد حاول الضحاك تهديدهم وسجنهم دون جدوى، لتنحاز إليه القبائل القيسية ، وهكذا ثارت العصبية بالعاصمة ، ولكن الضحاك بادر إلى إقناع أنصار بني أمية بالإجتماع معهم في مؤتمر بمنطقة الجابية (الجولان)، وذلك لتعيين خليفة أموي إرضاء لهم، فرضي الناس إلا أن القيسية أنكروا هذا العمل من الضحاك مما جعله في الأخير يمتنع عن الذهاب إلى المجتمعين في الجابية، وبقي ينتظر في مكان يسمى (مرج راهط) معلنا بيعة ابن الزبير، في الوقت الذي كان فيه حسان بن بجدل يتشاور مع الزعماء الموالين لبني امية حول الشخصية المناسبة لتلك اللحظة الحرجة حتى قال قائلهم : " والله لا تأتينا الناس بشيخ ونأتيهم بصبي " فأجمعوا عندئذ على مروان – وكان شيخا– على أن يتولى بعده الأشدق (عمرو بن سعيد بن العاص)– وكان كهلا– ويليه بعد ذلك خالد بن يزيد بن معاوية – وكان صبيا – ... وذلك في بداية شهر ذي القعدة من عام 64 هـ.

وتحت هذا الاتفاق انطلقت الجيوش الأموية لمواجهة القيسية المتجمعين بمرج رهط[134]، وقد دام الاقتتال عشرين يوما من شهر محرم 65 هـ 684م، حيث انتهت المعركة بمقتل الضحاك وكثير من زعماء القيسية وفر

---

[131]– المصدر نفسه، ص 268 .أنظر: محمود شاكر. التاريخ الإسلامي، المكتب الاسلامي 1985ط3 بيروت. ج4، ص 158–160. بلبياييف، العرب والإسلام ... ترجمة أنيس فريحة ، الدار المتحدة 1973 ط1 بيروت. ص 222–230. كاهن، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ترجمة بدر الدين القاسم، دار الحقيقة 1977ط2 بيروت. ص 30–35.

[132]– الطبري، تاريخ3، ص 267 .

[133]– المصدر نفسه، ص 272–273 .

[134]– المصدر نفسه، ص 268– 269 .

المنهزمون منهم نحو الشمال ، وقد قتل النعمان بن بشير قرب حمص، بينما ترك زفر الكلابي مدينة قنسرين ليستولي على مدينة قرقيسيا–و هي أيضا في شمال الفرات– وهناك تحصن بها مع من آوى إليه ....[135]

و التفت مروان إلى جنوبه حيث هرب ناتل من فلسطين لاجئا إلى ابن الزبير بالحجاز ، لتبايع الشام كلها المؤسس الجديد للخلافة الأموية –ألا وهو مروان– الذي أرسل الأشدق ليواصل زحفه إلى إقليم مصر فاستلمها من واليها الزبيري ابن جحدم الذي نفي عنها في بداية جمادى الأولى 65 هـ 685 م وكان مروان قد جعل ابنه القوي عبد الملك خلفا له على الشام وفلسطين وجعل الوالي على مصر ابنه الثاني عبد العزيز، ثم قرر أن يأخذ البيعة بولاية العهد لابنيه هذين، وقد تسنى له ذلك بمساعدة حسان الكلبي، رغم تحفظ خالد بن يزيد والذي كان هو صاحب ولاية العهد المتفق عليها في مؤتمر (الجابية) منذ نصف عام فقط ، لكن مروان احتاط لفكرته مسبقا، وتزوج أم خالد والتي اغتاظت هي أيضا من هذا القرار ، ولما توفي الخليفة مروان بعد ذلك بقليل –و بالضبط في شهر رمضان65 هـ– أشارت بعض الروايات إلى دور هذه المرأة في وفاته الغامضة، ولكن الخليفة الجديد عبد الملك بن مروان لم يلتفت إلى هذا الموضوع والأكيد في ذلك هو أن التحديات التي كانت بانتظاره قد أخذت بتلابيب ألبابه وكامل قواه وكل تركيزه[136].

• بدء الاضطرابات في العراق:

لقد سرى خبر وفاة يزيد مع نهاية ربيع الأول سريان النار في الهشيم، فكل الأمصار بلغها نبأ شغور منصب الخلافة فور استقالة معاوية الثاني ووفاته، مثلما بلغها نبأ إعلان ابن الزبير نفسه خليفة للمسلمين بينما كان بنو أمية في حالة ذهول والتقاط أنفاس، فما راعهم إلا تكالب الناس على إظهار ولائهم الزبيري بل وحتى الولاء الشيعي أوالخارجي في بعض الأقطار ...

و قد شعر والي العراق عبيد الله بن زياد بهذا التحول فحاول إحتواءه بما أسعفه به دهاؤه، ولكن دون جدوى، حيث خطب في الناس بالبصرة يدعوهم لمبايعته حاكما محليا مؤقتا، ريثما يستقر شأن الخلافة على شخص معين، فتظاهر الناس بموافقته على ذلك إلا أنهم سرعان ما أظهروا الخلاف وعدم الطاعة وبدأت

---

[135]– المصدر نفسه، ص 270–272. و أنظر : المقريزي، النزاع والتخاصم ، مكتبة الثقافة الدينية ط1 القاهرة 2004. ص 23. الصلابي، الأموية ، دار التوزيع والنشر – القاهرة ط 1، ج1، ص 686–690.

[136]– الطبري، تاريخ3، ص 307–308.

الامور[137] تفلت من يده، بل إنه شعر بالخطر على نفسه فأسرع إلى زعيم الأزد مسعود بن عمرو وسلّمه سلطة البصرة طالبا الحماية منه، فبسطها عليه، لولا أن القبائل هاجت ضد زعامته الجديدة وخاصة قبائل تميم، وذهب مسعود ضحية هذا الهيجان ، رغم محاولات الأحنف التميمي لتهدئة قومه وسائر الأقوام، وبعد هروب ابن زياد نحو الشام حصل إرضاء للأزد بمضاعفة الديات، ثم حصلإتفاق مؤقت بين جميع الأطراف على شخص يحكمهم، فوقع الإختيار على عبد الله بن الحارث ولقبه (ببة) وهو ذو نسب أموي هاشمي مشترك، وذلك مع بداية جمادى الآخر 64 هـ[138] إلى أن عين عليهم ابن الزبير من يتولى أمورهم مثل الحارث القباع؛ الذي ركّز جهوده على محاربة جماعات الخوارج في العراق وفارس والبحرين ، وكان المهلب الأزدي قائده العسكري في ذلك[139]، وحاول ابن الزبير أن يولي ابنه حمزة على البصرة، لكن ضعفه، وتفاقم الأمور حوله جعل ابن الزبير يعزله، ويعيد أخاه مصعب بن الزبير إلى هذه الولاية ليواصل حرب الخوارج، وينجح في استعادة الكوفة من أيدي الشيعة المختارية، استعدادا للمواجهة النهائية مع عبد الملك بن مروان ...[140]

أما مدينة الكوفة فإنها عند بداية الاضطرابات كانت محكومة بأحد نواب ابن زياد وهذا الأخير كان غائبا بالبصرة يومها، وأن البصرةاضطربت عليه حتى اضطرته للفرار نحو الشام ، وتسامع الكوفيون بالأخبار فاقترحوا تعيين حاكم مؤقت حتى تنجلي الأحداث، وكادوا أن يؤمّروا قائد الجيش الذي قتل الحسين –و هو عمر بن سعد بن ابي وقاص– لولا تحرك قبائل همدان ببكاء نسائها على الحسين، وتسلح رجالها للانتقام ، فقرر أشراف الكوفة أن يولّوا عليهم عامر بن مسعود بن أمية بن خلف وبعثوا بذلك إلى ابن الزبير الذي أقرهم على هذا الشخص عدة أشهر[141]، وكان الشيعة خلالها يبكون الحسين ويتنادون للثأر من الأمويين الذين هم بالشام فبايعوا أحد شيوخهم –وهو الصحابي سليمان بن صرد الخزاعي– خصوصا حين علموا باستقرار أمر الشام لصالح مروان، وأن هذا الأخير أرسل جيشا عظيما لإخضاع العراق بل وجعل قائده هو الوالي الاسبق عبيد الله بن زياد؛ مما زاد في تهييج الكوفة نحو التشيع، وهو الأمر الذي استفاد منه المختار الثقفي.

• اضطرابات شيعة العراق بالكوفة (التوابون والمختار):

يبدو أن المختار قد راسل أبرز أبناء الحسين؛ ألا وهو التابعي علي زين العابدين –كما راسل أحد أبرز إخوة الحسين غير الأشقاء– ألا وهو التابعي محمد بن الحنفية ، وطلب منهما تأييد تحركه لصالحهما نحو الكوفة

---

[137]– المصدر نفسه، ص 254–255 . أبو الغيط، الأحوال السياسية للدولة الأموية في خلافة عبد الملك، ص 174–193,

[138]– الطبري، تاريخ3، ص 256–262 .

[139]– المصدر نفسه، ص 266–267 .

[140]– المصدر نفسه، ص 359.

[141]– المصدر نفسه، ص 264 .

لجمع الناس لهما، فأما ابن الحسين فقد كان رفضه قاطعا، بينما كان رد ابن الحنفية غير واضح المعالم، خصوصا وأنه كان قد التقاه بمكة وأظهر له حينها نواياه تلك، فلم يجبه بالتأييد ولا بالرفض بل أوصاه بالتقوى والحذر من الدماء[142]، ويكفي أن نعرف هنا مدى طموح المختار وجموحه حين نعلم المفاوضات التي وقعت بينه وبين ابن الزبير قبل الحصار الأول، فقد حثه الجميع على مبايعته فلم يقبل بأن تكون بيعته له بشكل عادي أي كسائر الناس بل اشترط أن يبايعه على أن يكون أهم مستشاري هو أبرز ولاته ، ولما انتهى الحصار تأكد المختار أن ابن الزبير غير آبهٍ به[143]، فلم تمض سوى أشهر قليلة حتى أصبح المختار يسأل الناس عن أهل الكوفة فيقال له أنهم قد أصبحوا مبايعين لابن الزبير، ثم وجد من يخبره أنهم أيضا على استعداد لمن يجمعهم على غير ابن الزبير فقال المختار: " أنا أبو إسحاق أنا والله لها ..." وفي طريقه نحو الكوفة تحادث مع شخص يدعى (ابن العرق) حول تحليله للأوضاع وطموحاته الشخصية[144]، ولما وصل مدينة الكوفة كان اليوم هو يوم الجمعة منتصف رمضان 64هـ الموافق للسادس من مارس 684 م فمرّ بالأحياء الشيعية مسلّما على أهلها، مبشّرا إياهم بالنصر، ومتواعدا معهم على اللقاء بمنزله في المساء ... وفعلا، اجتمع أكثرهم عنده وأخبروه بالتفاف الشيعة حول الصحابي سليمان بن صرد الخزاعي الذي نادى بالثأر للحسين وذلك عبر توبة الكوفيين من خذلانهم له، مع استكمالهم لتلك التوبة بالخروج ضد الجيش الأموي الزاحف على العراق يقوده ابن زياد الوالي السابق والآمر بقتل الحسين ... لكن المختار أعلم أصحابه أن المهدي الحقيقي ابن الوصي (و يقصد ابن الحنفية أخا الحسين غير الشقيق) قد بعثه إليهم أمينا ووزيرا ومنتخبا، بل هو الذي أعطاه الأوامر بمقاتلة الملحدين وكلّفه بالانتقام لأهل بيته الطاهرين، ثم بيّن لهم أن سليمان بن صرد رغم إخلاصه وحماسته فإنما تنقصه الخبرة بالحروب، فضلا عن شيخوخته بل إن نية سليمان في تحركه هي تصريحه أنه سيقتل نفسه ويقتلهم معه ...[145]

و هكذا نجح المختار في استمالة كثير من الشيعة، ذلك أن سليمان بن صرد عسكر بظاهر الكوفة، فتجمع لديه بعد طول انتظار أربعة آلاف من مجموع ستة عشر ألفا، كانوا قد بايعوه على الخروج معه ضد الأمويين، خاصة إذا علمنا أن أكثر هؤلاء الأتباع يخضعون لروابط قبلية مع أشرافهم، وابن صرد نفسه كان يرفض الاستيلاء على قصر الكوفة أو إجراء مجزرة ضد الكوفيين المشاركين في كربلاء، لأنه اعتبر الشاميين وعلى رأسهم الوالي ابن زياد هم المسؤولون عن مقتل الحسين[146] ، وفي المقابل كان المختار يتحفز للانقضاض على السلطة في مدينة الكوفة ، وبعد أسبوع من وصول المختار كان ابن الزبير قد عيّن واليا له على هذه المدينة

---

[142]- البلاذري، أنساب، 5، ص279و218.

[143]- الطبري، تاريخ3، ص 289 .

[144]- المصدر نفسه، ص 288 .

[145]- المصدر نفسه، ص 291-292 .

[146]- الطبري، تاريخ3، ص 294-295 .

العراقية الكبرى وهو أنصاري يدعى عبد الله بن يزيد الخطمي، وجعل معه على رأس الولاية حفيد الصحابي طلحة، ويدعى إبراهيم بن محمد بن طلحة التيمي، الذي كان أبوه وجده من قتلى معركة الجمل 36 هـ = 656 م ولذا كان لدى إبراهيم التيمي نفور من أهل الكوفة لأنهم في نظره تحمّلوا وزْر هزيمة البصريين في تلك المعركة (الجمل) ولديه نفور أيضا من زميله الخطمي على رأس الولاية، فما كان من المختار سوى أن استغل هذا الظرف لصالحه[147] .

و لما انطلق جيش ابن صرد—المعروف بالتوابين- (التوابون) شمالا للاصطدام بالجيش الأموي الزاحف، ارتاب الكوفيون من تحركات المختار بينهم، وحامت شكوكهم حول نشاطاته، وتذكروا مساعيه بينهم لتهيئة الأمر للحسين يوم خذلوه، ولذلك سارعوا بتقديم نصيحتهم للوالي قائلين : " إن المختار إنما يريد أن يثب (ينقض)عليكم في مصركم ...."[148] فأصدر قراره بالقبض عليه وسجنه، إلى أن جاءتهم أخبار أتباع سليمان بن صرد وهم (التوابون) حيث قُتل أكثرهم في معركة عين الوردة وعلى رأسهم قائدهم ابن صرد ....

• أسباب فشل حركة التوابين :

تمثلت عوامل إخفاق الشيعة الأوائل من التوابين في مايلي:

-موقف المختار الثقفي من التوابين: ذلك أن المختار وجدهم قد التفوا حول زعيم شيعي غيره (ابن صرد الخزاعي) فراح يثني عزمهم في الخروج بطريقة غير مباشرة.

-موقف ولاة ابن الزبير من التوابين: لم يعمل عمال ابن الزبير على تقديم أية مساعدة للتوابين سوى أنهم سمحوا لهم كي يتجهزوا ظاهرين لا يخافون أحدا.

-نادى قادة التوابين بأن هدفهم هو قتل من اشترك في دم الحسين ، والمعروف لدى الجميع أن من أحاط به وقتله هم جنود كوفيون، ولكن ابن صرد اعتقد أن المسئول الأول هو ابن زياد، وهكذا أُخذ عليه أنه لم يبدأ بأخذ الثأر من أهل الكوفة، بل إن أصحابه كانوا يرون التخلص من قتلة الحسين من سكان الكوفة أولاً، إلا أن سليمان أصر على أن ينتقم من الوالي والخليفة أولا.

-هذا كله هو ما جعل عدد التوابين ينزل إلى أربعة آلاف بعد أن كانوا ستة عشر ألفا !.

---

[147]- المصدر نفسه، ص 282-284 .

[148]- المصدر نفسه، ص 293 .

-ويضاف إلى ذلك كله تسرع التوابين في الخروج من الكوفة، فهم قد واعدوا إخوانهم البصريين وشيعة المدائن على أن يلتقوا في مكان محدد قرب الكوفة في آخر شهر ربيع الثاني، ولكنهم خرجوا أوائل ذلك الشهر ولم يلتحق بهم إخوانهم إلا بعد رجوع فلولهم من(عين الوردة)[149].

• ثورة المختار:

و في فترة السجن التي قضاها المختار بثّ دعاته بين الناس يؤكدون لهم أنه هو من سيتكفل بقتل الجبابرة جميعا وإقامة عمود الدين ولمّ شعث أتباعه ....ولم يُطْلَقْ سراحُه إلا بعد وساطة صهره الصحابي ابن عمر، وبعد ضمانة أشراف الكوفة، وبعد تقديمه أغلظ الأيمان ! وفي الأيام الأخيرة من رمضان 65 هـ بداية مارس 685 م جاء عبد الله بن مطيع ليتسلم ولاية الكوفة من زميليه الخطمي والتيمي، فخطب في الناس بأنه سيسير فيهم بسيرة عمر وعثمان لكن الكوفيين طالبوه بسيرة الإمام علي فاضطر لإظهار مسايرتهم على ذلك. وفي الأشهر التي تلت رمضان أرسل ابن مطيع شخصين لاستدراج المختار إليه ليعيد سجنه، لكن أحدهما وهو ثقفي(زائدة بن قدامة) تمكن بحكم صداقته للمختار من الإيحاء له برفض الاستدعاء، وفعلا تملص المختار من الحضور لدى الوالي بادعائه التمارض[150] .

و مع مطلع عام 66 هـ أي انتصاف شهر مارس 685 م أرسل الكوفيون إلى المدينة المنورة وفدا يستفسر من ابن الحنفية عن حقيقة العلاقة التي يدعيها المختار به، وتخوف المختار من الرد الذي سيعود به الوفد، فقد يكشف لهم الوفد عن كذبه، فتردد في المجازفة بإعلان الثورة لتكون أمرا واقعا، وتراجع عن ذلك ، فإذا بالوفد يعود بجواب غامض يقول فيه ابن الحنفية : " إن الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه "[151] وخطب أعضاء الوفد في الناس بذلك، وخطب المختار في أتباعه مستبشرا، وتضاعفت أعدادهم وكان من بينهم التابعي المشهور الشعبي (عامر بن شراحيل) وأبوه، واهتم المختار بأن ينضم إليه الزعيم إبراهيم النخعي – وهو ابن الأشتر الذي كان من قادة الإمام علي ومن زعماء الكوفة اليمانية – لكن هذا القائد (ابن الاشتر) اشترط على المختار أن يكون ذراعه العسكري، فكلمه المختار ومعه بعض الأشراف كالشعبي وأبيه، مبديا الموافقة مرفقة برسالة من ابن الحنفية إلى ابن الأشتر شخصيا يحثه على المبادرة ، ورغم الشكوك التي ساورته في البداية إلا أن

---

[149]- محمد جمعة عبد العزيز يوسف موسى: المعارضة في العصر الأموي... ص 122-123. فلهاوزن، أحزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الإسلام، ترجمة د.عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية القاهرة 1958 ص189-196. فلوتن، السيادة العربية والشيعة والإسرائليات ترجمة حسن ابراهيم حسن، مطبعة السعادة 1934 ط1 القاهرة. ص 110-111. أبو الغيط، الأحوال السياسية للدولة الأموية في خلافة عبد الملك، ص 33-48.

[150]- الطبري، تاريخ3، ص 317-318 .

[151]- المصدر نفسه، ص 319 .

ابن الأشتر أعلن انضمامه إلى حركة المختار[152]، فتحدد تاريخ منتصف ربيع الأول للثورة، وقد تسربت أخبار الاستعدادات إلى إياس بن مضارب رئيس الشرطة وإن لم يعرف موعدها، ولما أخبر الوالي (ابن مطيع) أمره أن يرسل ابنه راشد بن إياس إلى الكناسة (إحدى ساحات الكوفة) وأن يرسل بعض القبائل إلى ساحات قبائل أخرى تعرف هذه الساحات بـ (الجبانات) ، وأن يرسل شبث بن ربعي التميمي إلى (السبخة) وذلك قبل الموعد بيومين[153]، فاضطر ابن الأشتر لقتل رئيس الشرطة (إياس) حين أوقفه، مما حدا بالمختار إلى التعجيل بإعلان شعار الثورة : " يالثارات الحسين " وتراجعت قوات الوالي فسيطر المختار في اليوم التالي على السبخة وتواصل الزحف رغم محاولات الأشراف أن يمعنوا القتل في غير العرب (أي الموالي) مفسرين ثورة المختار بأنها ثورة لهم، ورغم محاولاتهم أن يمنعوا تواصل قوات ابن الاشتر بقوات المختار لكن المحاولات باءت بالفشل، فحوصر الوالي والأشراف بالقصر ثلاثة أيام ليختفي بعدها الوالي ابن مطيع، وأعطي الأمان للأشراف ليدخل المختار القصر حاكما، وتغاضى عن هروب ابن مطيع وتلقّى البيعة في المسجد[154].

حاول المختار إظهار الحرص على نشر الأمن والعدل، واسترضى الأشراف بتعيين بعضهم في الولايات التابعة للكوفة، واسترضى الموالي والعبيد بإشراكهم مع العرب في أعطيات بيت المال... وقد أجّل النظر في قضية الثأر من قتلة الحسين الكوفيين لتركيزه يومئذ على الجيش الأموي الزاحف بقيادة ابن زياد على العراق، ولتركيزه أيضا على الزبيريين الذين يحكمون البصرة جنوب العراق وقد بايعتهم أكثر الأمصار ...

و في هذا السياق التفت المختار إلى جنوبه حيث تقبع مدينة البصرة تابعة لابن الزبير، فأرسل إليها من يدعو أهلها إلى تحويل الولاء إليه، وكان هذا الشخص المكلف هو المثنى بن مخربة العبدي[155] الذي قاد سابقا التوابين البصريين نحو زملائهم لما قتلوا في معركة عين الوردة، ثم عاد إلى الكوفة مبايعا المختار قبيل ثورته ، ورغم اختلاف رواية الطبري عن رواية البلاذري[156] فإن المختار أو المثنى اقترح على الآخر فكرة تحريك البصرة التي استقر المثنى في أحد مساجدها أو قرب دار الرزق ، ليكثف نشاطه ويستميل بعض أشرافها وقبائلها ، ووقعت معركة بالسبخة مع قوات الوالي القباع (الحارث المخزومي) وحاقت الهزيمة بالمثنى العبدي الذي لجأ إلى قبيلته عبد القيس، وكادت أن تقع حرب داخلية بتلك المدينة الهامة، لولا نجاح التسوية التي سعى فيها الأحنف زعيم بني تميم وكذا ابن مطيع العدوي وعمرو بن عبد الرحمن بن الحارث المخزومي (وكلاهما ولاه ابن الزبير على الكوفة)

---

[152]- المصدر نفسه، ص 320-321 .

[153]- المصدر نفسه، ص 321-322.

[154]- الطبري، تاريخ3، ص 322-329 .

[155]- المصدر نفسه، ص345-347 .

[156]- البلادري، أنساب، ص6، ص366-377.

وانسحب الشيعة البصريون إلى صاحبهم المختار ورفض الأشراف كل مراسلات المختار لاستمالتهم، وهنا يضطر الأخير لمراسلة ابن الزبير بما يشبه الإعتذار الغامض، فأمر ابن الزبير الشخص المخزومي الذي سبق ذكره آنفا أن يتسلم ولاية الكوفة من المختار إختبارا منه لحقيقة إعتذاره فما كان منه سوى أن أرسل المال والجيش ليخيّر ذلك المبعوث بينهما، فاختار عمرو المخزومي المال وعاد أدراجه[157]، ومع كل ذلك عاود المختار مراسلاته لابن الزبير في مكة مخبرًا إياه بالجيش الأموي الآخر الزاحف على الحجاز، وأنه سيبعث جيشا من عنده ليحارب هناك العدو المشترك، وبالفعل أرسل المختار شرحبيل بن ورس الهمداني في ثلاثة آلاف للسيطرة على المدينة المنورة لصالحه تحت غطاء هذا التنسيق ، لكن جيشا زبيريا مماثلا بقيادة الصحابي عباس بن سهل الساعدي الأنصاري تحادث معهم شرق المدينة ناصحا إياهم بتركها للتوجه شمالا نحو العدو الأموي، إلا أن شرحبيل أصر على دخولها أولا تنفيذا للأوامر، فتظاهر عباس بالموافقة ثم باغتهم بالفتك وأمعن فيهم التقتيل[158]، فلما وصل خبر الفاجعة إلى المختار خطب منددا بالزبيريين، ثم راسل ابن الحنفية –و كان في مكة– يخبره بأنه كان يريد إنقاذه من الزبيريين، بل أستأذنه في إعادة المحاولة، فأجابه بجواب غير واضح[159]، وفي هذا الوقت تشدد عبد الله بن الزبير مع ابن الحنفية يطالبه بمبايعته، وألا يبقى على الحياد كما هو الظاهر من موقفه، وهكذا يضطر ابن الحنفية لإرسال نداء استغاثة إلى المختار وكانت فرصة سانحة لهذا الأخير لتأكيد شرعيته فبادر إلى إرسال مئات الجنود نحو مكة على أن يتركوا أسلحتهم خارج الحرم، ويتسللوا أفواجا أفواجا في أحياء مكة حاملين القضبان الخشبية ... وهو ماحدث فعلا، فلم يستطع ابن الزبير فعْل شيء وتركَهم يأخذون ابن الحنفية[160] حيث يريد؛ فاستقر جنوبا بعيدا عن كل التجاذبات السياسية ، ولهذا سمي أتباع المختار بـ(الخشبية) بسبب نوع الأسلحة التي حملها جنده في هذه الحادثة[161].

رغم تخوف المختار من الجيش الأموي الزاحف من شمال الفرات نحو وسطه، إلا أنه وجد متسعا من الوقت لإزعاج الزبيريين نظرا لما بلغه من انشغال الزاحفين بمحاصرة زفر بن الحارث وبقايا قيسية مرج راهط في مدينة (قرقيسيا)، وبعد عام قرر القائد الأموي رفع الحصار ومتابعة الزحف نحو الموصل أولاً فانسحب عاملها إلى تكريت مبلّغا المختار بذلك ، فتمّت على عجل تهيئة جيش بقيادة يزيد بن أنس الذي كان مريضا والذي اصطدم بطلائع الجيش الأموي قرب الموصل، فهزمهم وأمر بجميع الأسرى ليقتلوا صبرا أمامه، ثم توفي هو أيضا في ذلك اليوم أواخر عام 66 هـ (منتصف صيف 686 م) وتقرر الانسحاب لئلا يصطدموا بالجيش الرئيسي

---

[157]– الطبري، تاريخ3، ص348 .

[158]– الطبري، تاريخ3، ص 348-349 .

[159]– المصدر نفسه، ص 349-350 .

[160]– المصدر نفسه، ص350-351 .

[161]– البلاذري، أنساب6، ص397.

وعدته ثمانون ألفا، فوصلت الأخبار إلى الكوفة مضطربة وأعلن المختار حالة الاستنفار؛ ليتهيأ له جيش قوامه سبعة آلاف من أتباعه يقودهم إبراهيم بن الأشتر النخعي على أن يضم إليه في الطريق تلك الثلاثة آلاف المنسحبة ...[162]

في هذه الأجواء العصيبة قرر الأشراف إبداء تحفّظهم على سلطة المختار، وقد كلّمه شبث بن ربعي في سياسته معهم ومع مواليهم، فأظهر استعداده للاعتماد عليهم بشرط أن يُعينوه ضد الأمويين والزبيريين، إلا أن الأشراف لم يجيبوه إغتناما منهم لفرصة الموقف الحرج الذي آل إليه أمره[163]، كما أنه رفضوا نصيحة عبد الرحمن بن مخنف (من أشراف الأزد وعم والد أبي مخنف راوي أخبار تلك الفترة) حيث قال لهم : "إني أخاف أن تتفرقوا ... ومع الرجل والله شجعاؤكم .. ومواليكم ... وإن انتظرتموهقليلا ... كَفيتموه بغيركم ولم تجعلوا بأسكم بينكم "[164] وبينما كان ابن الاشتر منطلقا خارج الكوفة أعلن الأشراف ثورتهم داخلها، فاستغاث المختار بجيشه ليعود إليه، وفي المقابل راسل بعض الأشراف يتودد إليهم، مظهرا الاستجابة لمطلبهم بأن يتأكدوا من علاقته بابن الحنفية ، وهو يريد استغلال الوقت وإثارة الفرقة بينهم ، بل وأعلن للموالي أن الأشراف ثاروا عليه لأنه يتبنى قضيتهم وما عليهم سوى أن يتوحدوا معه ضدهم ...[165]

بدأ المختار هجومه بمن تهيأ معه ضد اليمانية المتجمعين بـ (جبانة السبيع) وترك قائده ابن الأشتر يهاجم المضرية بـ (الكناسة) مراعاة لأصوله اليمانية، بينما ترددت ربيعة في(السبخة) مما سهّل عليه هزيمة الأشراف، خصوصا وأن بعض أبنائهم كانوا مع المختار، بل إن بعض أتباعهم كانوا من الشيعة، فلم يعجبهم شعار الأشراف (يالثارات عثمان)، وزاد الطين بلة إختلاف الأشراف فيمن يؤمهم في الصلاة...[166]

و ما إن استقر الوضع للمختار ثانية داخل الكوفة حتى بلغه أن ابن الحنفية يستغرب شعاره الثأر للحسين وهو يجالس قتلته ! فاستغل الفرصة لإضفاءالشرعية على حركته، فأمر على الفور بقتل كل كوفي شارك في كربلاء ولو كان من الأشراف، فانطلقت بذلك عملية تقتيل ضخمة راح ضحيتها بضعة آلاف، وهرب عشرة آلاف كوفي نحو مصعب بالبصرة ...[167] أما المختار فتفرغ بذلك للخطر الداهم من الشمال والتقى جيشه – وقائده ابن الاشتر –بالجيش الأموي – وقائده ابن زياد – قرب الموصل عند نهر(الخازر) من فروع الفرات

---

[162]– الطبري، تاريخ3، ص 331-334 .

[163]– الطبري، تاريخ3، ص334 .

[164]– المصدر نفسه، ص 334.

[165]– المصدر نفسه، ص335 .

[166]– المصدر نفسه، ص335-338 .

[167]– المصدر نفسه، ص 338-345 .

ووقعت معركة كبيرة يوم عاشوراء مطلع 67 هـ الموافق للسادس من أغسطس 686 م وقد قتل فيها قادة الأمويين كابن زياد والحصين بن نمير وابن ذي الكلاع ... وهلك جلّ الجنود بمن فيهم الهاربون الذين غرقوا في النهر ، وكان من أسباب هزيمة هذا الجيش الكبير العدد والعدة أن ميسرته كانت تضم القيسية، وقائدهم عمير بن الحمام السلمي الذي أصبح في نهاية المعركة مع ابن الاشتر، واختلفت الروايات في تأثير هذا الموقف على الحسم العسكري[168].

وهكذا وصلت انطلاقة المختار إلى أقصى غاياتها الممكنة مع موقعة الخازر وأصدائها المدوية، مما حدا ببعض الغلاة من الأتباع إلى أن يرفعوا كرسيا ليطوفوا حوله زاعمين أنه كرسي الإمام علي، بل أصبح للكرسي سادن يخدمه ! وهو ما جعل ابن الاشتر وأكثر الشيعة يتحفَّظون من هذا الأمر، وتذهب روايات أبي مخنف[169] إلى جعْل المختار هو صاحب فكرة الكرسي لما طلبه بإلحاح من طفيل بن جعدة (حفيد أخت الإمام علي)، لكن رواية أخرى لدى الطبري عن غير أبي مخنف يصرح فيها طفيل بنفسه أنه هو من اقترح الفكرة لحاجته الماسة إلى المال[170] ...و قد أصبح المختار يتفاءل بهذا الكرسي ويجمع حوله الأتباع، بل ويستجلبه النصر[171]!.

ثم اضطر المختار للالتفات إلى جنوبه حيث تقبع مدينة البصرة وعلى رأسها مصعب بن الزبير فقد احتشد فيها الكوفيون الهاربون من المختار وعلى رأسهم أشرافهم وهؤلاء راحوا يحثون مصعبا بإلحاح كي يسترجع الكوفة، لكنه تردّد نظرا لتهديدات الخوارج الذين اهتم الجيش البصري الرئيسي بملاحقتهم في بلاد فارس، وكان على رأس هذا الجيش القائد المحنك (المهلب الأزدي)، الذي لم يقتنع بترك مهمته والمساعدة في القضاء على المختار، إلى أن جاءه ابن الأشعث مبعوثا من الأشراف مبينا له خطورة الأمر، وبذلك تسنى لمصعب أن ينطلق شمال البصرة بجيش كبير وفيه كثير من الكوفيين؛ بل إن الأشراف بعثوا عبد الرحمن بن مخنف (من آل أبي مخنف الراوي) ليخذل شيعة المختار عنه لكنه ذهب إلى الكوفة ولم يفعل شيئا[172].

هذا وقد حدث الاصطدام الأول بين الجيشين قرب (المذار) فانهزم الشيعة وقتل قائدهم أحمر بن شميط، وكان أكثر القتلى من الموالي وقائدهم كيسان (وهو الذي سميت به الفرقة الشيعية الكيسانيةالمختارية) أما المختار فقد حاول عرقلة تقدم أعدائه نحوه؛ بإفساد السدود النهرية للفرات إلى أن هيأ جيشه من جديد في (حروراء) حيث حاقت به الهزيمة الكبرى فتراجع إلى الكوفة، ولم يستطع الاستنجاد بابن الاشتر وهو الوالي على الشمال

---

[168]- الطبري، تاريخ3، ص 355-358 .

[169]- المصدر نفسه، ص 354 .

[170]- المصدر نفسه، ص 353-354 .

[171]- المصدر نفسه، ص355 .

[172]- المصدر نفسه، ص359-360 .

العراقي، وربما خذله في هذه اللحظة العصيبة، بل إن عامة الكوفيين فتحوا مدينتهم للبصريين، وهكذا حوصر المختار وبضعة آلاف من أتباعه بالقصر وأكثرهم من الموالي[173]، وبعد عدة أسابيع قرر المختار اختراق محاصريه بهجوم واحد مفاجئ رفض أتباعه أن يشاركوه فيه إلا تسعة عشر، وهم الذين استماتوا في القتال مع انتصاف رمضان 67هـ[174] مطلع أفريل 687 م، وكان من آخر كلامه لأحد مستشاريه لما سأله عن دوافع حركته كلها أنه قال : " رأيت ابن الزبير انتزى على الحجاز، ورأيت نجدة انتزى على اليمامة، ومروان على الشام، فلم أكن دون أحد من رجال العرب ... إلا أني طلبت بثأر أهل بيت النبي إذ نامت عنه العرب "[175].

أما الآلاف التي استسلمت لمصعب فقد أصر أشراف الكوفة على قتلهم جميعا، وصدر القرار بذلك – بعد تردد– فقتلوا [176]! بل إنه أمر بقتل إحدى زوجتي المختار لأنها أصرت على الثناء عليه[177]، أما القائد إبراهيم بن الأشتر فقد أبقاه ابن الزبير واليا على الشمال العراقي بولائه الجديد للزبيريين[178].

• نظرة تحليلية عامة لحركة المختار:

–اعتمد المختار في مغامرته على مستند من إمامة آل البيت والعمل باسم أحد أبناء علي والأخ غير الشقيق للحسين وهو محمد بن الحنيفة.

–كما رفع شعار الثأر لآل البيت من قتلة الحسين بصرف النظر عن الآمر والمنفذ وحرص على تطبيق ما يدعوا إليه بشكل استعجالي واستعراضي ...

–استفاد المختار من جهود التوابين في تكثير جموع الشيعة حول فكرة الأخذ بثأر الحسين ثم ضم إليه فلول جيش التوابين كما عمد إلى تحريض أقارب من استشهد منهم للأخذ بثأرهم.

–انجذب الموالي إلى دعوة المختار، لأنه عمل على كسب رضاهم حين سوى بينهم وبين العرب في العطاء وهذا الجانب كان لصالح الحركة حينما استعان بهم، لكن الجانب الآخر كان ضده وهو غضب الأشراف منه حيث اتفقوا على مواجهته عسكريا، ثم كان الفارون منهم وراء دفع مصعب دفعا حثيثا كي يقضي على المختار وشيعته قضاء مبرما بشكل حازم وحاسم وبطريقة مأساوية ونهائية...

---

[173]– الطبري، تاريخ3، ص360 .

[174]– المصدر نفسه، ص 364–365 .

[175]– المصدر نفسه، ص 366 .

[176]– المصدر نفسه، ص 367–370 .

[177]– المصدر نفسه، ص 368 .

[178]– المصدر نفسه، ص 367–368 .

-عمل المختار في البداية على ضم الأشراف إليه، ونجح مع بعضهم نسبيا مثل إبراهيم بن الأشتر، وقد اتبع كل السبل من أجل تحقيق ذلك، ولو كان عن طريق بذل الأموال، كما أنه زوّر رسالة على لسان ابن الحنيفة إلى ابن الأشتر يدعوه فيها إلى الانضمام لحركة المختار !...

إلا أن أخطاء المختار تراكمت عليه وتسارعت وتيرة نتائجها الوخيمة فقضت عليه، ومن أهم أخطائه إعلانه القطيعة مع أشراف الكوفة حتى أنهم ناصبوه العداء نتيجة ما ذكرناه من مواقفه إزاء مواليهم، ونتيجة أيضا لتكهنه ثم تخلي ابن الحنيفة عنه، وما سمع عنه من قوله السجع، حتى أنه حاول ادعاء الغيوب (وزاد أعداؤه أنه يدعي السحر وربما النبوة والمهدية !) واتبعه على ذلك شواذ من غلاة الشيعة وفي آخر لحظة تخلى عنه إبراهيم بن الأشتر بسبب كل تلك التراكمات[179].

- **اضطرابات خراسان :**

كان أحد إخوة عبيد الله بن زياد (والي العراق) واسمه سلم بن زياد واليا على خراسان، بشرق فارس وما وراءها، والذي ما إن علم بوفاة الخليفة يزيد وبدء الاضطرابات حتى حاول إقناع القبائل العربية كي يرضوا بولايته عليهم ريثما تنجلي الفتنة عن خليفة جديد ، لكن القبائل وإن أظهرت له الموافقة إلا أنها تراجعت عن ذلك، فاضطر لأن يتركهم لنائبه القائد الأزدي (المهلب) الذي لا تسنده قبيلة قوية هناك، ثم عيّن أيضا من قبيلة بكر رجلين أحدهما على مروالروذ وهو (سليمان بن حريث) والآخر على هراة وهو (أوس بن ثعلبة) ...

ثم لما خرج سلم من خراسان التقى في نيسابور بزعيم سلمي هو (عبد الله بن خازم) الذي عاتبه على تعييناته تلك إرضاء منه لقبائل ربيعة (بكر) أو القبائل اليمانية (الأزد) وعدم إرضاءه لقبائل الحجاز المضرية ، فأعطاه سلم عهدا بتوليته هو – مادام أصله مضريا– على خراسان كلها وسلّمه الأموال التي كان يحملها[180]، فانطلق ابن خازم واستمال تميم المضرية إلى جانبه، وهزم منافسيه من ربيعة في مرو الروذ، والذين لجأوا إلى (أوس بن ثعلبة) بهراة ، وكان لايرغب في محاربة ابن خازم الذي أعلن ولاءه للزبيريين ، لكن أوسا وتحت وطأة الثارات

[179]- محمد جمعة عبد العزيز يوسف موسى: المعارضة في العصر الأموي، ص 131-132. فاروق عمر، التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين، دار إقرأ 1985 ط2 بيروت. ص 83-102. أبو الغيط، الأحوال السياسية للدولة الأموية في خلافة عبد الملك، ص 81-49

[180]- الطبري، تاريخ3، ص275 عن شيخه ابن شبه عن المدائني عن شيوخه(مسلمة حفيد الوالي سلم وحفص الأزدي والمفضل الضبي). النجار، الموالي في العصر الأموي، دار النيل للطباعة ط1 القاهرة 1949.

القبلية أعلن عليه الحرب فحوصرت ربيعة في هراة عاما كاملا[181]، ثم استفزهم المضريون للخروج إليهم، فكانت معركة كبيرة انهزمت فيها ربيعة، لتصبح السيطرة كاملة لابن خازم على جل خراسان إنلم نقل كلها ... واضطربت مدينة البصرة من داخلها بسبب هذا الاضطراب، ومما زاد الطين بلة أن قبائل تميم في خراسانلم تقتنع بالمناصب التي كافأهم بها ابن خازم، لأن هذا الاخير لما جعل ابنه محمدا خلفا له على هراة جعل معه أيضا تميميان يتوليان الشرطة هما (شماس العطاردي) و(بكير بن وشاح)[182]، ثم أمرهما أن يمنعا قومهما من اقتحام هراة، فاختلفا في تنفيذ أمره، ثم لما حدث الاقتحام قتلت تميم محمدا ليولّوا عليهم الحريش القريعي[183]، واقتحموا مدينة مرو حيث أسرع إليهم ابن خازم هناك، وحاصرهم وحاربهم لمدة سنتين حتى اضطروا للخروج متفرقين ، فاتجه بحير بن ورقاء إلى نيسابور، وشماس إلى سجستان، وزهير بن ذؤيب ومعه ابن المحتفز إلى مدينة (فرتنا)أما الحريش فاتجه إلى مرو الروذ ، حيث قام ابن خازم بمطاردة الحريش إلى أن أخرجه من خراسان، ثم التفت ابن خازم إلى فرتنا فحاصرها حتى استسلم المتحصنون بها لكنه قتلهم جميعا ثأرا لابنه من تميم[184]، ثم اتجه إلى نيسابور لمحاصرة بحير بن ورقاء، وترك بكير بن وشاح نائبا له على مرو، واستمر القتال ضد بحير في مد وجزر إلى أن سيطر عبد الملك على العراق عام 72 هـ فأرسل الأخير إلى ابن خازم كي يبايعه فرفض رفضا قاطعا تغيير ولائه ، فكان أن أرسل عبد الملك إلى النائب على مرو (بكير) فاستجاب له بسرعة، وبايعه ليتم تعيينه واليا على خراسان، فأراد ابن خازم ان يتراجع إلى مدينة (ترمذ) حيث كان ابنه موسى بانتظاره، لكن بحير بن ورقاء وصل إليه وقتله، ليسرع منافسه بكير بإرسال الرأس إلى عبد الملك وتتمّ مكافأته ...[185] وانقسمت تميم على نفسها بينهما (أي بين بكير وبحير) مما دفع عبد الملك إلى إرسال وال جديد يحاول إقامة التوازنات القبلية بينهما وبين غيرهما من الزعامات في خراسان –ألا وهو أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد– وكان ذلك عام 74 هـ[186].

• اضطرابات الخوارج:

في وسط شبه الجزيرة العربية كان الخوارج –الذين سبق لهم أن حالفوا ابن الزبير في حصار مكة الأول– قد ثاروا وسط جزيرة العرب، وبالضبط في واحة (اليمامة) المشهورة، وذلك بعيد وفاة يزيد إذ ولوا عليهم واحدا منهم وهو (أبو طالوت) ثم راحوا يهددون اليمن في جنوبهم– مركّزين على حضرموت –كما هددوا البصرة في شمالهم – مركّزين على البحرين – ولما أصبح نجدة بن عامر الحنفي قائدا جديدا لهم عام 66 هـ قادهم نحو عدة

---

[181]– المصدر نفسه، ص 275–276 .

[182]– المصدر نفسه، ص 277–278 .

[183]– المصدر نفسه، ص 314 .

[184]– المصدر نفسه، ص 315 و351–352 .

[185]– المصدر نفسه، ص 400–401 .

[186]– الطبري، تاريخ3، ص412 .

انتصارات، منها أنه هزم جيشا لوالي البصرة الزبيري سنة 67 بل وصل به الأمر إلى أن قاد أتباعه ليؤدوا مناسك الحج في مكة سنة 68 هـ دون خضوع لابن الزبير؛ إذ كانت له رايته الخاصة[187]... وتفاقمت تهديدات الخوارج الآتية من قلب الجزيرة العربية حتى بعد مقتل نجدة على يد منافسه (أبي فديك) أو تهديدات إخوانهم الآتية من بلاد فارس المجاورة أيضا للبصرة[188] على أيدي نافع بن الازرق وقطري بن الفجاءة وبني الماحوز ...[189] ولكن الذي منعهم من التغلب على خصومهم الزبيريين ثم الأمويين إنما هو اختلافهم فيما بينهم على قضايا تفصيلية كالغنائم، أو تكفير المخالفين ، وكذا إقتتالهم ضد بعضهم البعض بناء على ذلك ...

• اضطرابات الشام والعراق في بداية عهد عبد الملك:

توفي مروان بن الحكم بعد أقل من سنة مليئة بالاضطرابات، مع امتداد النفوذ الزبيري المعارض في أغلب الأمصار الإسلامية، مما جعل ابنه عبد الملك يرث منه تركة ثقيلة، ولكن سياسته بمرور السنوات أكدت قدرته على تصفية كل أنواع المعارضة بعد إنهاكها ثم الإنفراد بكل منها ... فحينما انهزم جيشه في (الخازر) أمام الشيعة بالعراق مطلع 67 هـ ركّز عبد الملك على فلسطين التي بجانبه فاستعادها بسرعة بعد أن هزم والي ابن الزبير عليها وهو ناتل بن قيس الجذامي[190]، بل إن مصعب بن الزبير لم يجد بدّا من التراجع عن الشام كله نحو الحجاز ...

و يضيف البلاذري اضطرابات أخرى في الشام بجبال لبنان أثارها الروم البيزنطيون عن طريق عملائهم ممن يسمون (بالجراجمة) وكذا من انضم إليهم من الأنباط والعبيد ، وقد أشار الطبري إلى هؤلاء باختصار شديد وبغير سند وأنها حدثت أثناءانقلاب الأشدق على عبد الملك في دمشق عام 69 هـ[191] و حددت روايات أخرى لدى غير الطبري زمن وقوع الحادثة قبل ذلك بعام أو عامين[192]... ومهما يكن من أمر فإن عبد الملك قد

---

[187]- المصدر نفسه، ص 381-382 .

[188]- المصدر نفسه، ص372-376و 396-399 .

[189]- المصدر نفسه، ص 309-313 .

[190]- المصدر نفسه، ص 272 بغير سند. و أنظر: نايف معروف، الخوارج في العصر الأموي، دار الطليعة ط3 بيروت 1986 ص 131-150.

[191]- الطبري، تاريخ، ص 387 .

[192]- العريني (د. السيد الباز) الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية، بيروت 1982، ص158، ذكرت بعض المصادر أنها حدثت بعد ذلك بعام أو عامين، أنظر ابن العبري المتوفي 685هـ، تاريخ مختصر الدول، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997، ط1، ص100.

اضطر إلى مهادنة الإمبراطور البزنطي كي يسحب الجراجمة إلى داخل حدوده بينما يصدر هو عفوا عن كل من ساعدهم من أهل الشام[193] بل تعهد للإمبراطور بألف دينار أسبوعيا[194].

و هكذا لم تأت سنة 68 هـ حتى كانت سلطة عبد الملك تشمل الشام ومصر حيث توطدت فيهما بشكل نهائي، وراح خلالها يتطلع إلى مناطق النفوذ الزبيري المترامية الأطراف في سائر الأمصار لكنه نفوذ تزعزعه هجومات الخوارج في فارس والبحرين وتمردات عملاء الأمويين كما فعل (الجفرية) بالبصرة وعبيد الله بن الحر قرب الكوفة ...[195] إضافة إلى ولاءات غير مضمونة كابن الأشتر في شمال دجلة وزفر مع القيسية في شمال الفرات وابن خازم في خراسان ... فأراد عبد الملك ألا يتعجل في القضاء النهائي على أعدائه حتى ينهك بعضهم بعضا ، فكان أن أرسل سراياه إلى شمال الحجاز لإلهاء ابن الزبير هناك، فظل والي المدينة الزبيري في مد وجزر معهم، أما الجيش الأموي الرئيسي الذي جهزه عبد الملك في عاصمته دمشق فإنه انطلق به في بطء نحو الشمال الفراتي[196] بغية البدء بمحاصرة زفر بن الحارث والقيسية المتحصنين معه داخل مدينة قرقيسيا، وفي المقابل راح مصعب يتهيأ لملاقاته شمال الكوفة ثم حدث لكل طرف ماجعله يؤجل مواصلة الزحف ضد الآخر وكان ذلك في مطلع 69 هـ الموفق لصيف 688 م .

فقد حدث بالبصرة تمرد داخل المدينة قاده بعض عملاء الأمويين بقيادة خالد بن عبد الله بن أسيد ومعه بعض الأشراف وقبائلهم، ووقعت معركة قرب مربد البصرة في مكان يدعى (الجفرة) ودامت عدة أسابيع حتى سمي أصحاب هذه المحاولة بالجفرية، وقد تأخر عبد الملك في إرسال النجدة إليهم لانشغاله بالأشدق، بينما تأخر مصعب في الوصول إلى البصرة قبل حصول الاتفاق على انسحاب الجفرية منها نحو الشام ، فأمر مصعب بقتل من لحق به منهم ممن تأخر في الخروج[197].

هذا بالنسبة للحادثة التي شغلت مصعب بن الزبير ، أما الحادثة التي شغلت عبد الملك فهي تمرد ابن عمه عليه في دمشق ذاتها، فقد نصت إتفاقية (الجابية) التي تداركت الحكم الأموي قبل مرج راهط على جعل مروان خليفة، وأن يتولى الخلافة بعده خالد بن يزيد بن معاوية ثم يتولى بعده عمرو بن سعيد بن العاص الملقب بـ(الأشدق) إلا أن هذا الأخير–لما تغاضى عن جعل عبد الملك وليا للعهد بدل خالد بن يزيد– قرر في داخل نفسه ألا يسكت عن حقه في تولي منصب الخلافة، ولذلك راح يتحين الفرصة ليلفت انتباه عبد الملك إلى

---

[193]– البلاذري، أنساب7، ص42–43 .

[194]– الطبري، تاريخ، ص 387 .

[195]– المصدر نفسه، ص 376–381 .

[196]– المصدر نفسه، ص382 و388.

[197]– الطبري، تاريخ3، ص388–389 .

ضرورة توليته الملك بعده، وسواء تأكد الأشدق من رفض عبد الملك لطلبه لما كان معه بالعاصمة دمشق أو حصل له التأكد بعد انطلاقه معه في الجيش نحو الفرات ، فإنه –أيالأشدق–سارع إلى إعلان تمرده وتحصن بدمشق، فعاد عبد الملك أدراجه بجيشه محاصرا إياه لأكثر من أسبوعين ، وبعد مناوشات ومفاوضات تظاهر عبد الملك بقبول بعض المطالب ؛كجعله مستشارا خاصا وتعيينه على رأس بيت المال وتوزيع أتباعه على المناصب ... وحينما دخل عبد الملك قصره استدرج إليه خصمه الجديد باستدعائه إياه، حتى أتاه وقد تجرد من حرسه وسلاحه ، فتلطف معه حتى قيده بقيود ذهبية تحت غطاء مساعدته على إبرار قسمه السابق بوضعه في القيد، وسرعان ما أمر عبد الملك بقتله ورمى برأسه وبالأموال إلى الحرس الذين كانوا ينتظرونه بخارج القصر ...[198].

• إلتفات عبد الملك إلى إنهاء الثورة الزبيرية بالعراق:

هكذا انتهت سنة 70 هـ بتثبيت عبد الملك لسلطانه في عاصمته وبين أفراد الأسرة الأموية، لينطلق بعد ذلك في جيشه نحو الفرات، حيث معسكره السابق لايزال بمنطقة (بطنان حبيب) قرب مدينة قنسرين، ليواصل إقناع القيسية المتحصنين في مدينة قرقيسيا بقيادة زفر بن الحارث كي يخضعوا له ، أما مصعب فكان ينتظره في معسكره بمنطقة (باجميرا) قرب مدينة تكريت، ولم يتوقف عبد الملك عن مراسلة أشراف المدن العراقية ليقنعهم بالتخلي عن مصعب أثناء المعركة، ورغم أن القائد ابراهيم بن الأشتر قد كشف لمصعب مراسلة عبد الملك له، وحذره من بقية الأشراف، إلا أن مصعبا لم يلق لها بالا ، ورغم أن الأحنف بن قيس طالبهم باستدعاء جيشه الذي يطارد الخوارج في فارس بقيادة المهلب الازدي فإنه—أي مصعب– أبى ذلك مراعاة منه لإلحاح الأشراف بأن يتركه يواصل مهمته، حتى لا تكون ظهورهم عارية للخوارج أثناء المواجهة العراقية ضد الأمويين[199].

و مع انتصاف عام 72 هـ أي سبتمبر 691 م اندلعت معركة كبيرة بين الجيش العراقي الزبيري والجيش الشامي الأموي في مكان يسمى دير الجاثليق بمنطقة (باجميرا) قرب تكريت، وانضم خلالها الأشراف شيئا فشيئا إلى عبد الملك ولم يثبت في إخلاصه لمصعب إلا قليل منهم، على رأسهم ابن الاشتر الذي قُتل في المعركة، وحاول عبد الملك إعطاء الأمان لمصعب وابنه عيسى، مدعما ذلك ببعض الوعود المغرية كالولايات، لكنهما استبسلا في القتال حتى قُتلا الواحد تلو الآخر، وجيء برأس مصعب إلى عبد الملك، الذي حزن عليه نظرا للصداقة القديمة التي كانت بينهما .

---

[198]– المصدر نفسه، ص 382–386 . و أنظر: دكسن، الخلافة الأموية، دار النهضة العربية 1973 ط1 بيروت. ص 203–206.
أبو الغيط، الأحوال السياسية للدولة الأموية في خلافة عبد الملك، ص 216–226.

[199]– الطبري، تاريخ3، ص 390–391 .

و في مدينة الكوفة استقبل عبد الملك الوفود المبايعة بالخلافة وعين الولاة والعمال ...[200]كما بادر إلى إرسال جيش مكون من ألفي مقاتل بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي ليسرع بهم نحو عبد الله بن الزبير المتحصن في مكة[201] حيث ستبدأ النهاية الحتمية للثورة الزبيرية وسط معقلها الأخير.

• الحصار الثاني لمكة ومقتل عبد الله بن الزبير:

استقر الحجاج بجيشه الشامي في مدينة الطائف التي تسكنها قبيلته ثقيف، وانطلاقا منها ضيق الخناق على ابن الزبير بشكل تدريجي بأن بث السرايا حول مكة ، وذلك ابتداء من أول ذي القعدة 72هـ الموافق لبداية الأسبوعالأخير من شهر مارس 692 م وبعد تردد شديد في مهاجمة الحرم المكي مراعاة لقدسيته، بعث هذا القائد إلى خليفته بدمشق يستأذنه في تشديد الهجومات، ومطالبا إياه بالمزيد من الإمدادات ، فأذن له عبد الملك بذلك وبعث إليه بجيش يقوده طارق بن عمرو[202]، فاستطاع الحجاج أن يقترب من مكة، ويزيدَ من محاصرتها بالمنجنيق، حتى تضرر بنيان الكعبة، التي كان ابن الزبير بصدد إنهاء إعادة بنائها ، وتخوف جند الشام من بعض الصواعق فزادهم الحجاج تثبيتا وطمأنهم، وفي الوقت الذي كانت الأغذية تتناقص عند أهل مكة كان محاصروهم يتمتعون بما يأتيهم من أغذية الشام والطائف...

وظل الحجاج يحث المكيين على أن يتخلوا عن ابن الزبير ، وتحقق له بعض ما يصبو إليه مع ازدياد الأوضاع سوءا حيث ترك عشرة آلاف من الزبيريين صفوفهم وانضموا إلى أهل الشام بمن فيهم بعض أبناء عبد الله بن الزبير[203]، مما دفع هذا الأخير إلى الخروج لقتال محاصريه، مظهرا شجاعة فائقة مع من بقي ثابتا معه كأصغر أبنائه، وبمقتل عبد الله وصلب جثته[204] انتهى اخطر وأطول تمرد هدد الخلافة الأموية في بداية عمرها وكان ذلك في 17 من جمادى الاولى سنة 73 هـ أي 18 سبتمبر 692 م.

---

[200]- المصدر نفسه، ص391-393 .

[201]- المصدر نفسه، ص 399 .

[202]- المصدر نفسه، ص 400 .

[203]- الطبري، تاريخ3، ص 406-407 .

[204]- المصدر نفسه، ص408، حبشي، تاريخ العالم الإسلامي، مطبعة نهضة مصر 1952 القاهرة ط1. ص 80-84 و 139-144. سوي (خير الدين يوجه)، تطور الفكر السياسي عند أهل السنة، دار البشير 1993 ط1 الأردن. ص 48-58 و 83-86. عبد الرزاق حميدة. سيف بني مروان الحجاج الثقفي، دار الفكر العربي 1947 القاهرة. ص 29-190.

• نظرة تحليلية عامة لثورة الزبيريين في بداية العهد المرواني :

لعل أهم الأخطاء الاستراتيجية التي وقع فيها عبد الله بن الزبير هي عدم مهاجمته للأمويين في بلاد الشام، وذلك في الفترة التي اضطرب فيها البيت الأموي فور وفاة معاوية الثاني، فمثلا نجدهابن الزبير لم يبذل أيّ جهد لصالح ابن جحدم– واليه على مصر – عندما هاجمه مروان، وبهذه الطريقة السلبية يكون قد قدّم عونا للأمويين على الإنفراد بالأقاليم الإسلامية، إلى أن تسنى لهم القضاء على نفوذ ابن الزبير فيها واحدا تلو الآخر.

– وأكثر من ذلك، أننا نجد ابن الزبير قد أساء أحيانا في اختيار ولاته وخاصة في الكوفة، فقد كان له فيها واليان متنافسان هما : عبد الله بن يزيد، وإبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله مما فسح المجال واسعا لتحرك التوابين، ثم من بعدهم المختار، بكل سهولة.

– هذا بالإضافة إلى عدم تعامله رضي الله عنه مع أنصاره ومؤيديه بالشكل الذي يحفزهم على الولاء له، كما في موقفه من أشراف العراق لما أتوا مع مصعب إذ أساء استقبالهم ولم يرحب بمبايعتهم له !.

– وإلى جانب هذا كله، نضيف عدم تأييد بني هاشم لعبد الله بن الزبير، بل إنه زاد الطين بلة بسوء معاملته لهم، عندما ألح عليهم في طلب البيعة له، فلما رفضوا اشتد في تحامله عليهم تحاملا شديدا.

– وقبل هذا وبعده فإننا نجد أن الأمويين قد اتبعوا –كعادتهم– أسلوبين متوازيين في القضاء على حركة ابن الزبير: المواجهة العسكرية من جهة والإغراء بالأموال من جهة أخرى[205].

[205] - محمد جمعة عبد العزيز يوسف موسى: المعارضة في العصر الأموي... ص 83-84.

المحاضرة الخامسة:

الخلافة في العهد المرواني

كانت سياسة والي العراق الحجاج القاسية تتبع بلا هوادة حركات الخوارج فتجهضها سواء في العراق أو ما يتبعها من نجد او فارس لكن أكبر ثورة كادت تعصف بنجاحات عبد الملك هي تلك التي جاءته من جيش عراقي أرسله الحجاج نفسه لفتح بلاد الأفغان و يقوده عبد الرحمن بن الأشعث الكندي بعد سنة 80هـ و سبب الثورة أن الجنود أرادوا التكيف مع صعوبة التضاريس و المناخ فتمنو أن تكون العمليات العسكرية متمهلة تساعدهم على الراحة و الرجوع فاصطدموا بالرفض القاطع من الوالي الحجاج و كان قائدهم ابن الأشعث موافقا لهم على هذا الإحتجاج ؛ فبدأ الزحف في بلاد فارس ضد العراق و انضم جميع الثائرين إليهم و فشل الحجاج في صدهم و كانوا في البداية ينادون بخلعه فلما انتصروا أصبحوا يطالبون بخلع الخليفة نفسه، و لقد أرسل هذا الأخير إليهم أخاه و ابنه في جيش عظيم بل كاد أن يستجيب لمطلبهم الأول بخصوص الحجاج لولا أنهم رفضوه فأعطيت الصلاحيات للحجاج كي يقود المعركة النهائية و التي انتهت لصالحه في موقعة (دير الجماجم) قرب الكوفة منتصف 82 هـ 701م و حدثت مقتلة عظيمة في الثوار و على رأسهم القراء أما ابن الأشعث فإنه فر إلى حاكم الأفغان لكن الحجاج فاوض الحاكم على تسليمه و كاد أن يسلمه إياه لولا انتحاره...

حاول عبد الملك مواصلة الفتوحات الخارجية لكن محاولاته كانت تتباطأ بسبب تركيزه على الاضطرابات الداخلية، ففي الشمال الافريقي استشهد الفاتح عقبة قرب بسكرة أثناء عودته من أقصى المغرب فانقلب أكثر البربر بقيادة كسيلة ثم الكاهنة على من بعده من القادة فاستشهد أحدهم بالساحل الليبي على يد الروم أثناء التراجع وهو زهير بن قيس البلوي بينما انهزم حسان بن النعمان في البداية امام الكاهنة لكنه انتصر عليها في الأخير بسبب الدعم الذي أمده به عبد الملك من جهة و بسبب اقبال البربر على الإسلام من جهة أخرى خصوصا بعد اتباع الكاهنة لسياسة الأرض المحروقة و بموتها سهل على حسان فتح بلاد المغرب الأوسط نهائيا و تصفية القواعد البيزنطية في السواحل التونسية...

أما حدوده مع الروم فقد ثبتها عبد الملك بهدنة مع الإمبراطور جستينيان الثاني مقابل سحب قوات المردة (الجراجمة) وهو ماسهل على المسلمين بعد انتهاء الهدنة استئناف حملاتهم الدورية المنظمة، و كذلك

الحال في حدوده مع أقصى المشرق إذ تقدمت الفتوحات بطيئة وراء خراسان... هذا وقد كان اهتمام عبد الملك مركزا بعد الاستقرار على الذفع بعجلة تطوير المؤسسات الإدارية خاصة منها الدواوين الخمسة التي ورثها عن سابقيه ، و أبرز ما قام به هو تعريب دواليب الإدراة و تعريب النقود (العملات).ثم كانت وفاة عبد الملك أواخر 86هـ 705م ليتم تثبيت ولاية العهد بتنصيب ابنه الوليد الذي حكم عقدا من الزمن يمكننا اعتباره امتدادا لأبيه من جهة استقرار الأمور داخليا و استمرار الفتوح خارجيا لكنه كان أكثر ميلا لتشييد العمران و إصلاح الطرق و حفر الآبار و توصيل المياه (توسعة الحرم النبوي ، بناء الجامع الأموي ...) هذا و قد برزت في عهده أسماء لقادة عسكريين لامعين فتحوا أقاصي المشرق و المغرب، فهذا قتيبة بن مسلم الباهلي يعيد فتح طخارستان و يغزو بخارى و يصالح سمرقند و يفتح مدن خوارزم إلى كاشغر حيث لامس حدود الصين... و هذا موسى بن نصير يضع اللمسات الأخيرة على فتح المغرب الأقصى و ينشر الإسلام بين الأمازيغ و يبعث بهم فاتحين نحو الأندلس بقيادة أحدهم وهو طارق بن زياد فينتصر هذا الأخير على القوط و تستسلم له و لقائده موسى مدائن الأندلس كلها إلى حدود الفرنجه (فرنسا)... و هذا الشاب محمد بن القاسم و هو ابن أخ للحجاج يقود الجيوش برا و بحرا نحو مصب نهر السند (كراتشي حاليا) فيفتح مدينة الديبل و صالحته مدن أخرى كالبيرون و غيرها بالضفة الشرقية للنهر حيث مداخل بلاد الهند و إن لم يتوغل فيها المسلمون إلا بعد قرون...

أما في شمال الشام فقد نشطت الفتوح ضد بيزنطة بإرسال الوليد عمه محمد بن مروان ليتم فتح أرمينيا و إرسال أخيه مسلمة بن عبد الملك ليحاول التوجه نحو العاصمة القسطنطينية دون أن يتمكن من الوصول إليها فاكتفى بالمحاولة و التهديد ... و في منتصف عام 96هـ تولى سليمان الخلافة بعد وفاة أخيه الوليد فعزل كافة ولاته بمشورة ابن عمه عمر بن عبد العزيز و التابعي رجاء بن حيوة ، واهتم باستقرار الدولة و اطلاق سراح المعارضين كما ضاعف أعطيات الناس.. ولئن قام بتجميد فتوحات أقاصي المشرق و المغرب فإنه ركز جهوده كافة على العاصمة البيزنطية محاولا فتحها دونما جدوى و توفي سليمان مطلع 99هـ ليتولى الخلافة بتوصية منه ابن عمه التقي العادل عمر بن عبد العزيز الذي عده العلماء خامس الخلفاء الراشدين، و كان أول ما أمر به هو إيقاف محاصرة القسطنطينية إلى جانب إبقائه على تجميد الفتوحات و انفتح على معارضيه ليقنعهم و يقنعوه و تسامح مع أهل الذمة و نشط الدعوة إلى الإسلام في المناطق المفتوحة... وزاد على ذلك بناء الخانات على طرق القوافلب للتكفل بالمسافرين فيها يوما كاملا و حرص على الرفق في تحصيل الضرائب بل و إلغاء غير الشرعي منها ... لكنه توفي رحمه الله منتصف 101هـ ليواصل أبناء عبد الملك عملية التربع على عرش الخلافة ،

فهذا يزيد بن عبد الملك حكم أربع سنوات دون أن يتحمس لإصلاحات سابقه بل إنه كان متعصبا للتحالفات القيسية التي كان يمثلها الحجاج سابقا فتمرد عليه جنوب العراق و جنوب فارس بقيادة يزيد بن المهلب أحد الولاة السابقين من العصبيات اليمانية في ثورة تكاد تذكرنا بثورة ابن الأشعث و تكفل مسلمة أخ الخليفة بالقضاء عليها...أما الجبهات الحدودية فكان يشوبها التردد... فلم تكن هناك فتوحات تذكر ، بينما تحرك محمد بن علي حفيد الصحابي ابن عباس سرا في مجال تجميع قوى المعارضة من كافة الناقمين على الخلافة الأموية ليهيء الظروف لإسقاطها و إحلال أسرته العباسية محلها فيما بعد... لولا أن الخليفة الذي أعقب يزيدا و هو أخوه هشام طال عهده من 105 إلى 125هـ و كان حازما و بصيرا بالأمور بل حريصا على توازن الدولة، و كان من إصلاحاته تنشيط الفتوحات حتى توقفت بفرنسا في موقعة بلاط الشهداء، وبعث الأساطيل إلى جزر البحر المتوسط مع زيادة الضغط على الحدود البيزنطية و تحصينها أكثر ،كما أنه شدد قبضته على الداخل بواسطة ولاة قساة و دهاة في المشرق و المغرب و قد فشلت ثورة شيعية بقيادة زيد أحد أبناء علي زين العابدين قرب الكوفةبأحداث تكاد تشبه مجزرة كربلاء التي حصلت لجده الحسين رضي الله عنه...هذا و لم يعر هشام انتباها لاحتجاجات الأمازيغ البربر على سياساته مما جعلهم يولون وجوههم شطر الخوارج... و هكذا تلبدت غيوم المعارضة لتندلع رعودها في شكل ثورات مختلفة فور وفاة هشام و تولي الوليد بن يزيد للخلافة و قد كان عابثا و زاد في الأعطيات و كان يميل إلى العصبية القيسية فانقض عليه يزيد بن الوليد بن عبد الملك عام 126 و هو يميل إلى اليمانية و سمي الناقص لأنه أنقص الأعطيات و لكنه توفي فجأة نهاية ذلك العام و عمت الأقاليم كلها ثورات متنوعة فلجأ البيت الأموي إلى شيخ من شيوخهم كان يحكم شمال العراق و هو مروان بن محمد بن عبد الملك فزحف على العاصمة المضطربة دمشق و نصب نفسه خليفة في الوقت الذي كانت فيه جيوش الثوار في خراسان بقيادة أبي مسلم الخراساني تحمل شعارات الثأر لآل البيت و الخروج على الظلم و إعادة العدل و العمل بالكتاب و السنة مع مناداتهم بشعار (الرضا من آل محمد) فالتفتْ حوله كل الرايات بفارس و فشل الوالي نصر بن سيار في مواجهتهم...أما الخليفة مروان فكان يقمع الثورات هنا و هناك و لا يأبه كثيرا لما يحدث في أقصى المشرق بخراسان حتى اتسع الخرق و حاول تدارك الأمر باكتشافه لمحرك الثورة والذي هو ابراهيم الإمام من أبناء محمد بن علي حفيد ابن عباس، و قد قتله لكن سائر إخوته التحقوا سرا بالكوفة التي كانت قد انضمت إلى الثوار، و في شمال العراق تفاقمت الأمور على الجيوش الشامية و انهزم الخليفة مروان منتصف 132هـ مطلع 750م في معركة الزاب و كشف العباسيون عن أنفسهم بأنهم هم قادة الثورة و أعلن

عن أبي العباس السفاح خليفة للمسلمين و قُتل الأمويون بالشام كما قُتل الخليفة مروان بمصر أثناء فراره، ليتم اسدال الستار على الخلافة الأموية.[206]

• أسباب سقوط الخلافة الأموية :

1- التنافس داخل البيت الأموي : كان التحاسد و التنافر داخل عائلات بني أمية يظهر بين الفينة و الأخرى منذ وفاة المؤسس معاوية (السفياني/ المرواني/ الأشدق) و حتى داخل البيت المرواني قبل عمر بن عبد العزيز و بعده و لما تولى يزيد الثالث أفصح عن علاقته السيئة بأبناء عمه الخليفة السابق هشام فتكتلوا ضده حتى قتلوه و في خضم تصدع البيت الأموي و تصارع أفراده نودي بأحد أبناء عمهم البعيد و هو مروان ليجمعهم و ينقذ حكمهم دون جدوى...

2- و لاية العهد لاثنين: كان مروان بن الحكم أول من عين للخلافة بعده اثنين من أولاده (عبد الملك و عبد العزيز) لكن عبد الملك جعلها لابنيه من بعده، و رغم عودة الخلافة لأحد أبناء عبد العزيز و هو عمر فإن أبناء عبد الملك سرعان ما استعادوها، وراحت عملية تعيين اثنين تثير أحقاد الخليفة الجديد ضد الذي جعل معه في الوصية بالخلافة كما حدث لهشام مع يزيد الثالث و هكذا تجزأت قوى العائلة الأموبة مقابل توحيد العباسيين لأنفسهم بل و توحيدهم لسائر قوى المعارضة...

3- العصبيات القبلية: كانت القبائل العربية المستقرة حديثا بالأقاليم المفتوحة منقسمة فيما بينها إلى عصبيات تنتهي إما إلى أصول يمانية متحالفة مع بعضها أو إلى أصول حجازية (قيسية) و كان الحكم الأموي منذ البداية يعتمد على تنافس العصبيات في إظهار الولاء فقد اعتمد معاوية على قبيلة كلب اليمانية بالشام و مضت بعده لعبة التوازنات القبلية بادية للعيان بين كل خليفة و آخر و لكن أحفاد عبد الملك لم يتقنوا هذه اللعبة فانفجرت في وجوههم.

4-النزعة العربية في السياسة الأموية: حكم الأمويون الأقاليم المفتوحة باسم العرب و قدموهم على الموالي و هم المسلمون من سكانها و يتبين ذلك في عدة مجالات ففي المجال السياسي لم يتم التعامل مع من يعتنق الإسلام بما ينبغي من المساواة فحرموا من بعض الوظائف و بعض الأعطيات بل و فرضت عليهم الجزية... فشاع التذمر بينهم شيئا فشيئا حتى قطف العباسيون ثماره حيث اعتمدوا عليهم بعد ذلك، أما المجال الاقتصادي فإنه رغم المرتبات المخصصة للموالي إلا أن الحجاج و بعض الولاة فرضوا الجزية عليهم رغم إسلامهم حفاظا

[206] د- العش (يوسف) الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها، دار الفكر دمشق 1998 الاعادة الخامسة للطبعة 2 سنة 1985 ص 227 - 314

بزعمهم على استقرار موارد بيت المال و الخراج... و هناك جانب اقتصادي آخر تمثل في نزوح أهل الأرياف من الموالي إلى المدن حيث كثرت أحياؤهم و فشت فيهم البطالة و استغلتهم المعارضة... ويظهر المجال الاجتماعي جليا في موالي العراق و فارس حيث قضى الفاتحون على النظام الطبقي الذي اعتمدته الإمبراطورية الفارسية سابقا فتحرر العمال و الزراع البائسون و سكنوا المدن و ازدادت ثرواتهم و ساهموا في الثقافة الإسلامية و زاحموا العرب و كونوا طبقة وسطى و سيكونون عماد الدولة العباسية فيما بعد.

5- الخلافات المذهبية: شهد العصر الأموي تطور اتجاهات سياسية متنازعة، أولها أنصار بني أمية و الثاني أنصار العلويين الذين يحصرون الخلافة في نسل علي، و الثالث أنصار العباسيين، و الرابع جماعات الخوارج الذين لايحصرون الخلافة في أسرة معينة بل يؤكدون على اختيار الأمة... وقد أنهكت كل هذه الخلافات المذهبية الدولة الأموية (السنة، الشيعة، الخوارج، القدرية، المرجئة ...) ليظهر حينها العباسيون مستغلين الواجهة الدينية لشعاراتهم.[207]

[207] - د. طقوش (محمد سهيل) ، التاريخ الاسلامي الوجيز ، دار النفائس بيروت 2002 ط1 ص 139 – 145

مقتطفات من (المنظومة الملحمية في أخبار ملك بني أمية)

فصل في استقرار الخلافة لعبد الملك وابنه الوليد

وســـاس عبـــد الملـــك الأمـــورا ... مســـتخدما حجاجـــه المبيـــرا
فـــي حصْـــر مكـــة بهـــا الزبيـــري ... وقتْـــل عبـــد الله أهـــل الخيـــر
ولَّاه مشـــرقا بظُلمـــه عثـــا ... وبـــين عقدَيْـــه أثـــار الأشـــعثا
ديـــر الجمـــاجم حـــوى الجماجمـــا ... خليفـــة الشـــام احتـــوى الجراجمـــا
وعـــرَّب الـــديوان والنقـــودا ... ولـــم يكـــن جنـــوده رقـــودا
مـــعْ قائـــد المغـــرب أي حســـانِ ... هـــذا ابـــن نعمـــان بنـــي غســـان
و ورِث الوليـــدُ عبـــدَ الملـــكِ ... فـــزاد فـــي مُلْـــك أبيـــه المَلِـــكِ
كـــلَّ المغـــارب بموســـى بْـــنِ نُصـــيرْ ... مـــعْ طـــارقٍ لا يطـــرُقَنْ إلا بخيـــر
إذ كـــان واليـــه بـــأرض طنجـــه ... أغـــزاه الانـــدلس والفرنجـــه
وبقـــي الحجـــاج واليـــا علـــى ... كـــل المشـــارق فويـــل ابـــن جـــلا
قائـــده جـــاء إلـــى بخـــارى ... للفـــتح فاستشـــار واســـتخارا
قتيبـــةُ بـــن مســـلم مـــن باهلـــه ... محتكمـــا للســـيف والمباهلـــه
مســـتنقذا مـــدائن الأتـــراك ... مثـــل ســـمرقندَ مـــن الإشـــراك
قائـــده الآخـــر قاســـمُ الفتـــى ... اِبـــن أخـــي الحجـــاج للســـنْد أتـــى
إذ لـــم يكـــن مـــنْ فـــتْح هنـــدٍ بُـــدُّ ... فانهزمـــتْ هنـــادكٌ والبُـــدُّ
وأخضـــع البنجـــاب والملتانـــا ... وهـــدم الأوثـــان والبهتانـــا
وفـــتح الـــديبل والبيرونـــا ... وقـــال: ديننـــا الـــذي ترونـــا
توقـــف الفـــتحُ بـــذي الحـــدود ... بموتـــة الحجـــاج فالوليـــد

فصل في خلافة بقية أبناء عبد الملك

وابن أخيه عمر بن عبد العزيز رحمه الله

أخُ الوليـــد أيْ ســـليمان الـــذي ... بِســـيْر مـــن ســـبقه لا يحتـــذي
إذ عـــزل القـــادة بـــل وأمعنـــا ... فـــي حصْـــر قســـطنطين زاده عنـــا
لمـــا أحـــس بـــدُنُوِّ الأجـــلِ ... عهِـــد لابـــن عمـــه المبجـــل
أضـــحى خليفـــةً وراشـــداً عمـــرْ ... إذ ســـاس الامـــة بســـيرة عمـــر

مـــن أرض ســـند وإلـــى الأنـــدلسِ ... روَوْا عـــن العـــدل بـــلا مـــدلس
بالسُّـــمِّ مـــن بنـــي أميـــة هلـــك ... والحُكـــم عـــاد لبنـــي عبـــد الملـــك
مثـــل يزيـــد فـــي ســـنيه الاربـــعِ ... عشـــرون عامـــا لهشـــام اَتبـــعِ
للـــروم بالصـــوائف الشـــواتي ... فـــتْحُ الفـــرنج لـــيس بـــالمواتي
لا فـــرْق بـــين مقتـــلِ الســـبط وبـــيْنْ ... مقتـــل زيـــدِ بـــن علـــيِّ بـــن الحســـينْ

فصل في سقوط الخلافة الأموية بالمشرق

وبعـــد ربْـــع القـــرن والمئـــة قـــلْ: ... خلافـــةٌ بعـــد هشـــام لـــم تَطُـــلْ
خَلَفَـــهُ الوليـــد ثُمـــة يزيـــدْ ... مـــنَ ابواهمـــا يزيـــد ووليـــد
وثـــار جـــل النـــاس فـــي البقـــاع ... واتســـع الخـــرق علـــى الرقـــاع
آخـــر ثلْـــث القـــرن مـــن بعـــد المئـــهْ ... كشـــيعة خـــوارج ومرجئـــه
وثـــار قيســـيٌّ علـــى اليمـــاني ... بفـــارس فـــي ثـــورة الكرمـــاني
ويمـــن الحجـــاز فـــي انتشـــار ... أوقـــدها حمـــزة ذاك الشـــاري
وثـــارتِ البربـــر والمـــوالي ... مـــن مغـــرب لمشـــرق مـــوالي
وكـــان مـــروانُ خـــتام مـــن حَكَـــمْ ... نجـــل محمـــد بـــن مـــروان الحكـــمْ
فإنـــه حـــاول إخمـــاد الفـــتنْ ... لكـــن جنْـــده أُصـــيبوا بـــالوهن
كراهـــة المـــوت وحـــب الـــدنيا ... فـــانهزموا بـــالزاب عنـــد اللقيـــا
أمـــام مـــن نـــادى (الرضـــا مـــن آل ... محمـــد) مـــن عـــرَب مـــوالي
بنـــو حفيـــدٍ لابـــن عبـــاس ومـــن ... هـــو بـــأمر هـــؤلاء مـــؤتمن
ســـاقوا أميـــةَ إلـــى التقتيـــلِ ... وقتلـــوا مـــروان قـــرب النيـــل

الخلافة الأموية في أقصى اتساعها

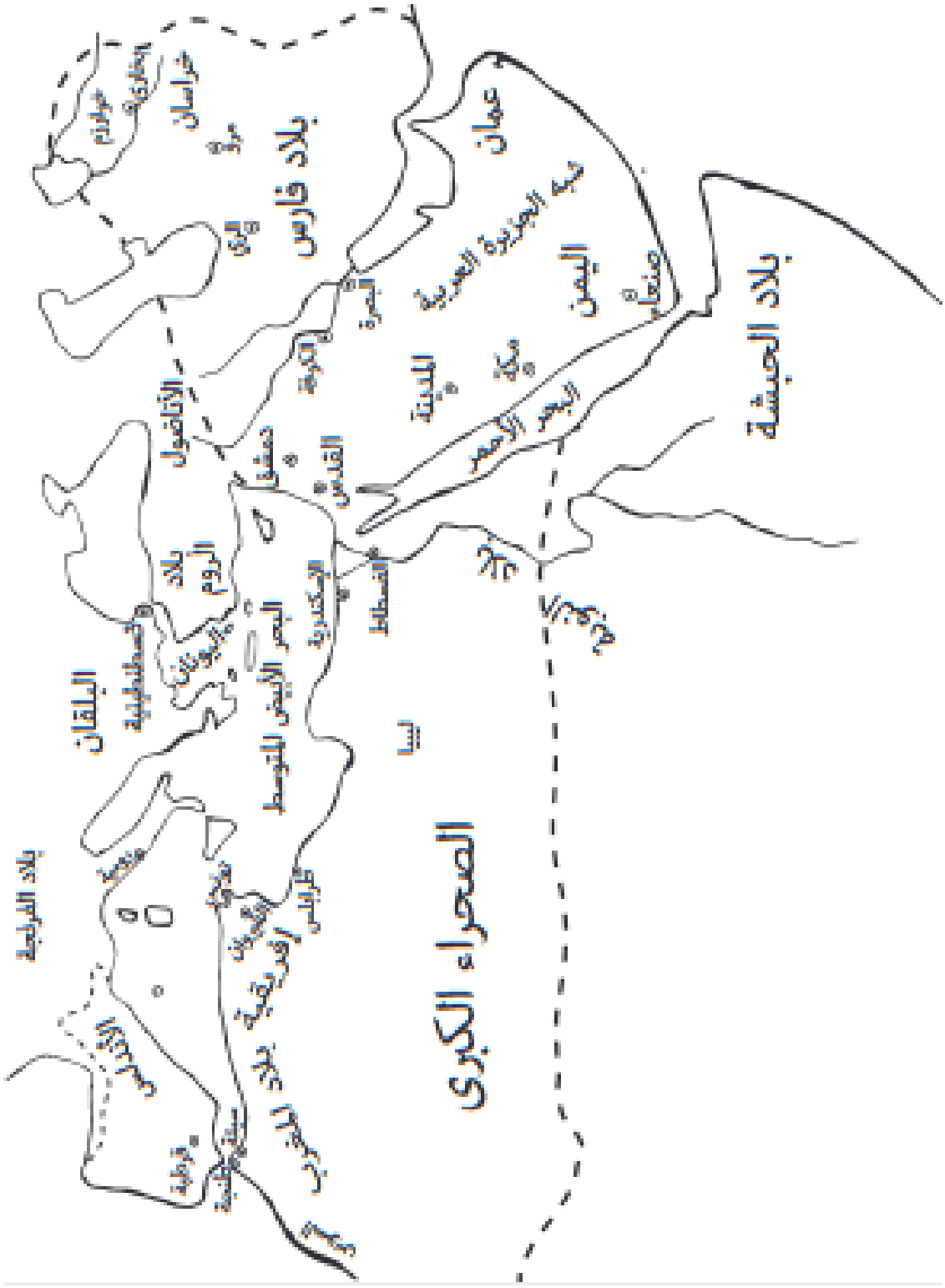

محاضرات الخلافة العباسية

المحاضرة الأولى :

العصر العباسي الأول132 – 232 هـ/750 – 850 م

- **نجاح الثورة العباسية :**

تميز القرن الأول من حياة الخلافة العباسية بقوة خلفائها، بدءا بالسفاح وأخيه المنصور، وانتهاء بالمعتصم وابنه الواثق، مرورا بالمهدي ابن المنصور وابنيه الهادي والرشيد، ثم ابني هذا الأخير الأمين والمأمون... واذا كانت هذه الدولة العظمى قد تأسست بداية عام 132 هـ فان نسج خيوطها سرا كان قبيل مطلع القرن الأول أي قبيل عهد عمر بن عبد العزيز وبعده بقليل، وذلك حينما تسلم محمد بن علي حفيد الصحابي ابن عباس خيوط الشبكة الشيعية المنتشرة خلاياها في العالم الاسلامي من أحد زعماء العلويين – وهو أبو هاشم عبد الله بن محمد– و الذي هو من أبناء ابن الحنفية . وفي أجواء من النشاط السري واصل أحد أبناء محمد العباسي وهو الامام ابراهيم تهيئة ظروف الثورة فور تضعضع أحوال الخلافة الاموية، وخاصة بعيد وفاة هشام ، مما شجع أصحاب هذه الثورة على إعلانها تحت شعار (الرضا من آل محمد) دونما تحديد لشخص بعينه، مما جعل الشعار جذابا، خصوصا مع الوعود برفع الظلم وتطبيق الدين وتحقيق المساواة بين العرب والموالي... هذا وقد كان اقليم خراسان (شرق فارس) مهدا للثورة المسلحة بقيادة الفتى أبي مسلم الخراساني – وهو من الموالي– فانتصر على الوالي نصر بن سيار الذي ذهبت تحذيراته لدى الخلافة هباء وسدا، وذلك لانهماكها في معالجة تفاقم اضطرابات أخرى... ولما وصل أبو مسلم إلى العراق لم يتمكن آخر الخلفاء (مروان بن محمد) من صد هذا الزحف، رغم كشفه عن الزعيم السري لهذه الثورة (ابراهيم الامام) بل وإعدامه، أما وزيره الذي كان يقود الثورة بالعراق –أي أبو سلمة الخلال – فإنه تردد قليلا في إعلان أحد إخوة ابراهيم خليفة عباسيا فراسل بعض زعماء البيت العلوي، ثم عاد وحزم أمره بإعلان أبي العباس عبد الله السفاح خليفة للمسلمين، وهذا بدوره بادر إلى إرسال الجيوش مع عمه ليهزم آخر خلفاء بني أمية في معركة الزاب – شمال الفرات – ويطارده في الشام ويقتله بمصر، مع قتل أكثر بني أمية بالعاصمة دمشق، لتصبح الكوفة عاصمة مؤقتة للعالم الاسلامي...

• الدولة العباسية في عهود السفاح والمنصور والمهدي :

فور استلام أبي العباس السفاح لمنصب الخلافة وجَّه جهوده في الفتوحات ضد تدخلات الصين في أقصى شرق آسيا الوسطى وأوقع بهم الهزيمة فانكفأوا إلى بلادهم ولم يعودوا للتفكير في المسلمين. أما حدود بيزنطة مع الشام فقد حاول امبراطور القسطنطينية استغلال الاضطرابات الحاصلة لصالحه، لكن السفاح أعاد تنظيم حملات الصوافي والشواتي ... ومما أضافه السفاح لنظام الحكم هو تثبيته لنظام الوزارة على النمط الفارسي الساساني، كما عهد بولاية العهد لأخيه أبي جعفر الذي تولى سنة 136 هـ ، ويمكننا القول أن أبا جعفر هذا هو المؤسس الحقيقي للخلافة العباسية لأنه واجه التحديات الكبرى بدهاء وصبر واجتهاد، فهذا عمه يقود الجيوش ضده فيكلف الخليفة الجديد قائده أبا مسلم بسحق التمرد، ولم يكتف بسجن عمه بل قتله، ولما شعر بقوة القائد أبي مسلم ونفوذه بين الموالي الفرس استدرجه حتى أوقع به وقتله، وكان لمقتل هذا العسكري ارتدادات على شكل ثورات بين الفرس (الراوندية ، سنباذ ، استاذسيس) قضى عليهم أبو جعفر المنصور بسهولة. وأخطر ما واجه المنصور هو ما حدث عام 145 هـ من اعلان الفرع الحسني من العلويين الثورة عليه، انطلاقا من المدينة المنورة على يد محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم انطلاقا من البصرة جنوب العراق، وقد استجاب لهم الكثير من الناس هنا وهناك، إلا أن دهاء المنصور كان أقوى منهما، إذ استخدم ولي عهده عيسى بن موسى – وهو ابن أخيه – وأمدَّه بالأموال والجيوش فقضى على النفس الزكية بالمدينة منتصف ذلك العام وعلى ابراهيم في (باخمرا) قرب الكوفة نهاية العام، وبمقتلهما خمدت مؤقتا نوايا الثورة لدى العلويين، وخاصة هذا الفرع الحسني الذي لم يهضم تولي العباسيين دونهم ... وفي أواخر عهد المنصور أجبر ابن أخيه على خلع نفسه من ولاية العهد ليقوم المنصور بتولية محمد المهدي ابنه مكانه، ولكن أهم منجزات المنصور هي بناؤه لمدينة بغداد وجعلها عاصمة الاسلام وسماها (دار السلام) ونمَّاها بكل المتطلبات، وكان موقعها عند اقتراب دجلة والفرات من بعضهما أي في نصف العراق وذلك في منتصف عهد المنصور. أما وفاة هذا الأخير فكانت مع نهاية عام 158 هـ ليحكم ابنه محمد المهدي 10سنوات، انتقل فيها تدريجيا من القسوة إلى اللين، فأصدر العفو واسترضى الناس وردَّ المصادرات وزار دمشق والقدس واهتم بمحطات طرق الحجيج والتجارة مثلما اهتم بالمستشفيات والسجون والمدارس ... وسن سنة كسوة الكعبة سنويا بل إنه جلس للمظالم ... ولعل أبرز انجازات المهدي هي تعقّبه بلا هوادة للزنادقة (أعداء الدين) والشعوبية (أعداء العرب) وإن ارتبطت الظاهرتان بصورة أكبر بالفرس الذين تزداد عداوتهم للواقع كلما فشلت لهم ثورة، بل إن عبارات الحقد على الاسلام عموما والعرب خصوصا والخلافة بالأخص كانت تتفشى في مناقشاتهم أو في تأليفاتهم، فكوَّن المهدي ديوان الزنادقة وضيَّق عليهم الخناق

بالمحاكمات وأمر العلماء بالانتصاب للرد عليهم بالمناظرات والمؤلفات ... وكانت ثورة المقنع الخراساني الفاشلة إحدى تداعيات تلك المرحلة.

أما علاقة الخلافة ببيزنطة فقد استغل المهدي اضطرابا حاصلا عندهم فأرسل جيشه بقيادة ابنه هارون ليجعل الامبراطورة (إيريني) تقبل بالصلح و الجزية و تبادل الأسرى، وهو ما حدث فعلا، و توفي المهدي مع بداية 169هـ وكان قد عهد بالمنصب لابنيه موسى الهادي ثم هارون الرشيد.

• الخلافة العباسية في عهد ابني المهدي (الهادي والرشيد)

لم تتميز السنة التي حكمها موسى الهادي عما سبقها إلا بثورة العلويين بقيادة الحسين اخي النفس الزكية فقضى عليهم في موقعة (فخ) بالحجاز وطاردهم أما أخوه هارون الرشيد فحاول استمالتهم لكن ادريس أخا النفس الزكية احتمى بالمغرب الاقصى و أسس لذريته دولة هناك، مثلما احتمى أخوه يحي بشمال فارس عند الديلم. ولما تبين لهارون أن الشمال الافريقي يخرج من يده لكثرة ثورات الخوارج المتتالية سمح لأحد قادة جيوشه بتونس (وهو ابراهيم ابن الأغلب التميمي) كي ينفصل بالبلاد على أن يعترف بتبعيته لبغداد اسميا. و تكفل هارون بالخروج بنفسه للقضاء على بعض ثورات أقصى المشرق (سواء للخوارج أوغيرهم) حتى أنه توفي بخراسان في الطريق منتصف 193 هـ. أما الروم البيزنطيون فقد أجبرهم الرشيد مرارا على طلب الهدنة والصلح، بل فرض عليهم الجزية، وكان الامبراطور نقفور مترددا في تثبيت الحدود والعلاقات معهم، لكن علاقات الرشيد كانت تتوطد بشكل حسن مع شرلمان ملك الفرنجة ضد الأمويين في الأندلس.لكن أبرز حدث اشتهر به الرشيد – رغم كثرت منجزاته – هو قتله لوزيره الأعظم جعفر بن يحي البرمكي، ونكبته لأسرة البرامكة التي نشأ هو في أحضانها بل وشاركته تسيير شوؤن حكمه، والدافع لذلك هو شكوكه حول أصولها الفارسية وربما زندقتها وشعوبيتها، والمهم في ذلك كله هو شكوكه حول محاولتها السيطرة عليه وعلى سلطته...

• الخلافة في عهود أبناء الرشيد (الأمين والمأمون والمعتصم) :

هذا، وتبقى مسألة ولاية العهد الملغمة هي أخطر ما تركه هارون لمن بعده، حيث جعل ابنه محمد الأمين هو الخليفة بعده – وأمه عربية – ووزيره فضل بن الربيع عربي أيضا.كما جعل ابنه الثاني عبد الله المأمون واليا على المشرق وأمه فارسية ووزيره الفضل بن سهل فارسي أيضا، وقد حذر هذا الأخير المأمون من مغبة الاستجابة لاستدعاءات أخيه له، وهكذا أعلنت الحرب بينهما، وانتهت بانتصارات متتالية لجيوش المأمون ثم محاصرتها لبغداد واقتحامها وقتلها للخليفة الأمين بداية197 هـ ، وهكذا حكم المأمون المشرق كله مدة عشرين

سنة بدأها بإرضاء الشيعة فجعل أحد أحفاد جعفر الصادق(علي الرضا) وليا لعهده، ثم تخلص منه بالسم لما رأى تصاعد الغضب عليه داخل بيته العباسي، بل إنه كاد أن يبدل شعار العباسيين وحتى عاصمتهم، ثم تراجع عن ذلك بسرعة. ورغم قمع المأمون لبعض الثورات – شيعية وغيرها – في اليمن ومصر والشام فإنه تأخر أيضا في قمع ثورة الغجر(الزط) قرب البصرة، بل إن أخطر ثورة انهكت الخلافة يومئذ هي ثورة (بابك الخرمي) بشمال فارس و شارك فيها الناقمون على السلطة و الشعوبيون و الزنادقة... و إذا كان بيت الحكمة و تنشيط الترجمات من لغات العالم و التأليف في مختلف العلوم ببغداد هو أهم منجزات هذا الخليفة فإن تدخله الشخصي في المذاهب الاعتقادية بل وتسليطه المعتزلة على علماء أهل السنة في مسألة خلق القرآن هي أهم مجازفات هذا الخليفة الذي توفي في منتصف عام 218 هـ أثناء تهديده للحدود البيزنطية، لأن الروم يومها كانو يمدون ثورة بابك بالعون...

و قد واصل المسيرة بعد المأمون أخوه المعتصم بالله مدة تقارب عشر سنين، فركز على الجوانب الحربية بجهاده للروم بل وفتحه لعاصمتهم العسكرية عمورية و أنقرة و زبطرة، مما اضطر الامبراطور إلى طلب الهدنة ...كما قام المعتصم بالقضاء على ثورة بابك الخرمي نهائيا، إلا أن أهم ما فعله هذا الخليفة هو تشجيعه للأتراك وسط آسيا كي يأتوا للعراق ليكوّن منهم جنود الدولة بل و قادة جيوشها، حتى أنه بنى لهم عاصمة خاصة قرب بغداد سماها سامراء(=سر من رأى) و منذ ذلك الوقت تكاثر الوجود التركي في الحدود مع الروم (أناضول تركيا حاليا) بل سيكون القادة العسكريون لاحقا من الأتراك هم من سيُعيّن الخلفاء بل ومن يُسيّر الحكم.[208]

• لمحة عامة عن عصور الضعف :

خاصة بعد وفاة الخليفة الواثق ابن المعتصم دون أن يعين وليا للعهد فكان القرن التالي 232 – 333هـ هو قرن ضعف الخلفاء العباسيين و سيطرة القادة الأتراك على السلطة في بغداد، إلى جانب ما حصل في ذلك القرن من كثرة الثورات و انفصال الأقاليم- وازداد الخلفاء ضعفا في القرن الذي تلاه 333-444 هـ حينما استنجدوا بالدولة البويهية المجاورة و هي فارسية شيعية فكانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار.ولذلك كان القرن الذي بعده 444-555 هـ متميزا بالاستنجاد بالدولة السلجوقية و هم أتراك سنة...و هكذا انتقل الخلفاء العباسيون من ضعف إلى ضعف حتى قضى المغول التتار الوثنيون من شمال الصين على عاصمة الخلافة بغداد سنة 656 هـ و قام عساكر المماليك في مصر بإيقاف زحف المغول و أحيوا الخلافة العباسية الضعيفة

[208] - د. الدوري (عبد العزيز) العصر العباسي الأول ، مركز دراسات الوحدة العربية 2006 بيروت ص 61 - 262

بالقاهرة لمدة قرنين و نصف إلى غاية 923 هجرية =1518م حينما تسلم السلطان العثماني سليم الاول مقاليد الخلافة من المتوكل آخر خلفاء بني العباس.

مقتطفات من منظومة (رفع الخفاء ودفع الالتباس عن الأوائل من خلفاء بني العباس)

وبعدُ،خـــذ مـــن التـــواريخ العبـــرْ فهـــذه منظومـــة تحـــوي الخبـــر
خلافـــة العبـــاس كـــاد زيتُهـــا يضـــيء فـــي التـــاريخ قـــد ســـميتها:
(رفْـــع الخفـــا ودفـــع الإلتبـــاسِ عـــن الألـــى مـــن خلفـــا العبـــاس)

لمحة عامة عن خلفاء بني العباس

فالتســـعةُ الاوائـــلُ العظـــامُ كـــان لهـــم بـــين الـــورى نظـــام
وللصـــحابيِّ ابـــن عبـــاس انتمَـــوْا ســـفاحُ منصـــورُ ومهـــديُّ ســـمَوْا
هـــادٍ رشـــيدُ وأمـــينُ فَثِقُـــوا مـــأمونهم معتصـــمٌ و الواثـــق
وبعـــد قـــرنِ هـــؤلاءِ ضَـــعُفَتْ خلافـــةٌ فـــي نســـلهم حتـــى عَفَـــتْ
عليهمـــو القـــرونُ فـــي بغـــداذا لخمســـةِ القـــرونِ ثـــمَّ لاذا
نســـلٌ بمصـــرَ مثـــل نصـــف المـــدَّه عـــددُهم خمســـون إنْ تَعُـــدَّهْ

فصل في أول أمر دعوة بني العباس

و بـــدءُ دعوتهمـــو رأس المئـــه لمـــا اهتـــدَوْا لشـــيعة مختبئـــه
لمـــا أبُـــو الهاشـــمِ زاره الحِمـــامْ مـــن ولـــد ابـــن الحنفيـــة الإمـــام
أوصـــى محمـــدًا بســـرِّ الأمـــر نجـــلَ علـــيِّ ابـــن الصـــحابِي الحَبْـــر
بـــأمْرِ دعوتـــه والـــدعاةِ لهـــدْم حُكْـــم أمـــويِّ عـــاتي
فأكملوهـــا دون تعيـــين الإمـــامْ بـــل هاشـــميا ضـــد حكْـــمٍ لهشـــام
ثـــم أعـــدُّوا للخـــروج عُـــدَّه ليســـوا كمـــا الخـــوارج المحتـــده

فصل في ثورة العباسيين على الخلافة الأموية

و كـــان إبـــراهيم مـــن بعـــد أبيـــهْ ... محمـــدٍ هـــو الإمـــام يـــا نبيـــه
أثـــار كـــل النـــاس بالمشـــارقِ ... و لـــم يكـــن للشـــام بالمفـــارق
فثـــارتِ العـــراقُ بعـــد فـــارسِ ... و خضـــعوا لقائـــد بـــل فـــارس
هـــو الخراســـانيُّ جـــا بالنصْـــرِ ... سَـــمِّ أبـــا مســـلمِ ضـــد نصْـــر
نصْـــر بـــن ســـيارِ لمُلْـــكٍ حـــذَّرا ... لكـــنَّ نُصـــحه هبـــاءً نُثـــرا
وقَتَـــلَ المـــروانُ إبراهيمـــا ... وسِـــرُّه فاســـأل بـــه عليمـــا
عنـــد أبـــي ســـلمةَ الخَـــلَّالِ ... مـــن كـــان داعيـــا لكـــل الآل
آوى إليـــه – فـــي تـــردُّدٍ – أخـــاهْ ... هـــو أبـــو العبـــاس ســـفاحًا دعـــاه

فصل في أخبار أوائل خلفاء بني العباس

فـــي مولـــدٍ خَطَـــبَ أهـــل الكوفـــه ... ومعلنـــا بأنـــه الخليفـــه
بعـــد اثنتـــين وثلاثـــين ســـنه ... ومئـــة مـــن هجـــرة بـــلا سِـــنَهْ
أربعـــة الاعـــوام للســـفَّاح ... والأخُ قـــد خلَفـــه يـــا صـــاح
هـــو أبـــو جعفـــرٍ المنصـــورُ ... قـــد زيَّنـــتْ بغـــدادَه قصـــورُ
وجـــاوز العشـــرين عامـــا حكْمُـــهُ ... ظهـــر فيهـــا عزْمُـــه و حزمـــه
وثـــار بالحجـــاز ذاك الحســـنِي ... محمـــدُ الـــنفسُ الزكيـــةُ الســـنِي
أخـــوه إبـــراهيم جـــاء البصـــره ... فانتهيـــا لمقتـــل و حسْـــره
والابـــن مهـــديٌّ بعَشْـــرِ حِجَـــجِ ... ضـــد العـــدا بالســـيف أو بـــالحُجج
مـــن كـــان ذا زندقـــة شُـــعوبي ... أو كـــان فـــي البيعـــة كـــاللعوب

فصل في خلافة ابني المهدي (الهادي والرشيد)

تـــلاه ذاك الابـــن موســـى الهـــادي ... فـــي عامـــه لـــم يَـــرْضَ بالسُّـــهاد
فالحســـنيُّ واقـــعٌ بـــالفخ ... إذ أوقعتْـــه وقعـــةٌ بـــ (فـــخ)
ففـــرَّ إدريـــسٌ و أبنـــاءُ الأَخ ... هـــو ســـليمان لمغـــرب ســـخِي
بـــين أميـــةَ همـــو بالانـــدلسْ ... وخـــارجيٍّ بتَهَـــرْتَ سَـــجْلَمَسْ
أخٌ لموســـى اِســـمه الرشـــيدُ ... هـــارون صـــفه ملْكـــه مَشـــيد
بـــدْء الخلافـــة بيـــوم المولـــدِ ... فـــي عـــام ســـبعين و قـــرن فاهتـــد
دامـــت لربـــع قـــرنٍ الخلافـــه ... بـــالغزو و الحـــج غـــدت إيلافـــه

فـــلا يُـــرى ملازمـــا أرائكـــه بـــل ناكبـــا لأســـرة البرامكـــه

فصل في خلافة أبناء الرشيد (الأمين والمأمون والمعتصم)

ثـم ابنـه الأمـين فـي بضـع سـنينْ أي قبـل رأس المئتـين يـا فطـين
و الإِبـن الآخـر هـو المـأمونُ أعانـه مَشـرقُه المـأمون
مـعَ وزيـره ابـنِ سـهل فضْـلِ ضـدَّ الـوزيرِ ابْـن الربيـع فضـلِ
نـال الخلافـة بقتلـه أخـاهْ و رأي معتزلـةٍ قـد ارتضـاه
مـأمون فـي العشـرين عامـا قـد حكـمْ تسـعٌ تَلَتْهـا لأخيـه المعتصـم
مـن كـان هازمـا لكـل بـابكي بـل جـاء يـا أنقـرةٌ لبابـك

فصل في استمرار الخلافة في بني المعتصم ببغداد فالقاهرة

و بِـابْنِ هـذا واثـقٌ قـرنٌ خُـتِمْ و كـلُّ تـالٍ قـد أُهـين أو شُـتم
فمتوكـلٌ أخـوه قـد وَهَـنْ و مُلْـك الأَربعـين بعـده ارتهـن
ومتوكـلٌ أخيـرُ جـاءهُ سـليمُ تُـرْكٍ قاطعـا رجـاءه
برفْعـه فـي ربْـع قـرن عاشـرْ معشـر عثمـان علـى المعاشـر
والله غالـب علـى أمـورهِ تقليبُـه للمُلْـك مـن تـدبيره

الخلافة العباسية في أقصى اتساعها

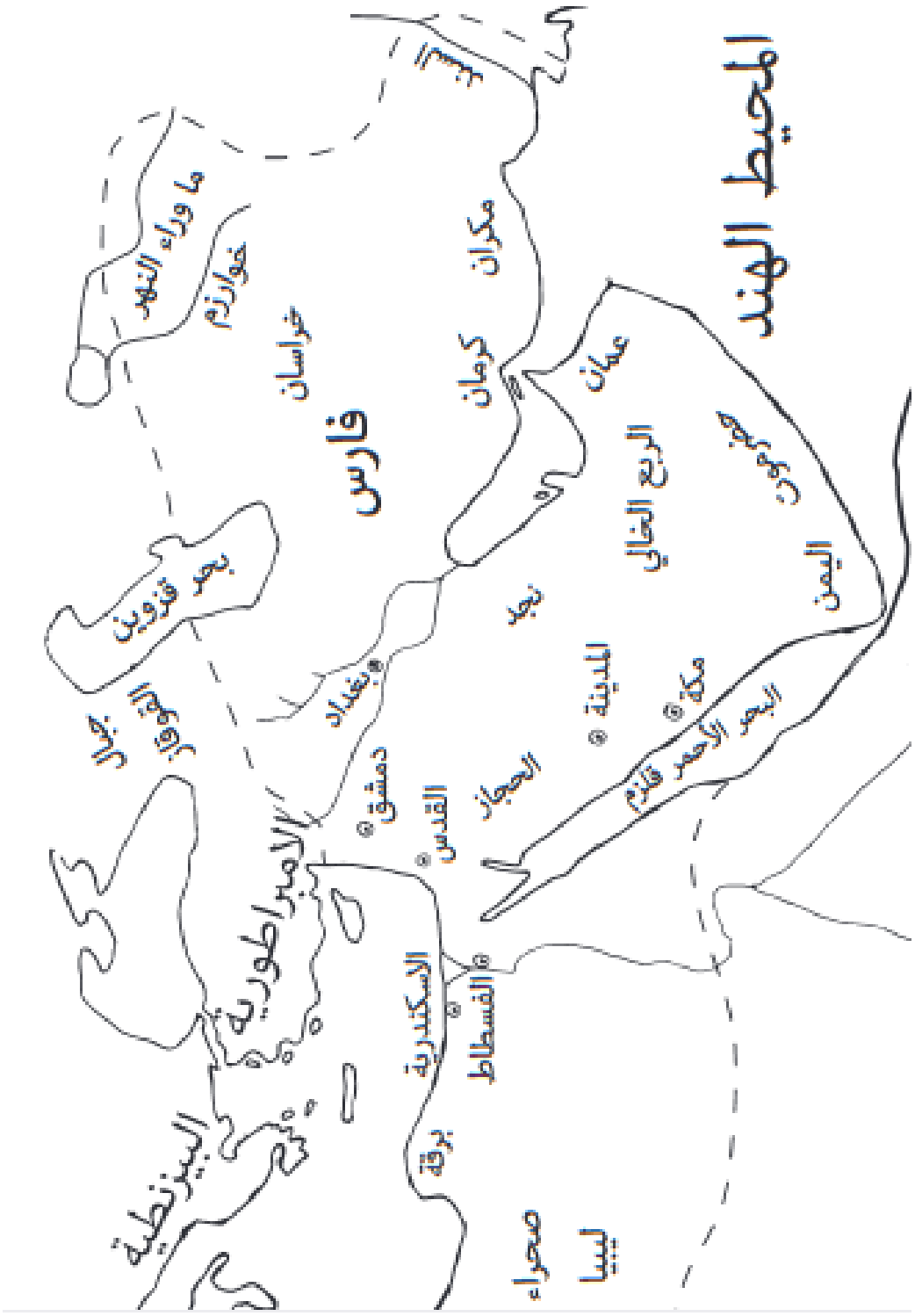

عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بغالب بن فهر(قريش)بن مالك بن النضر

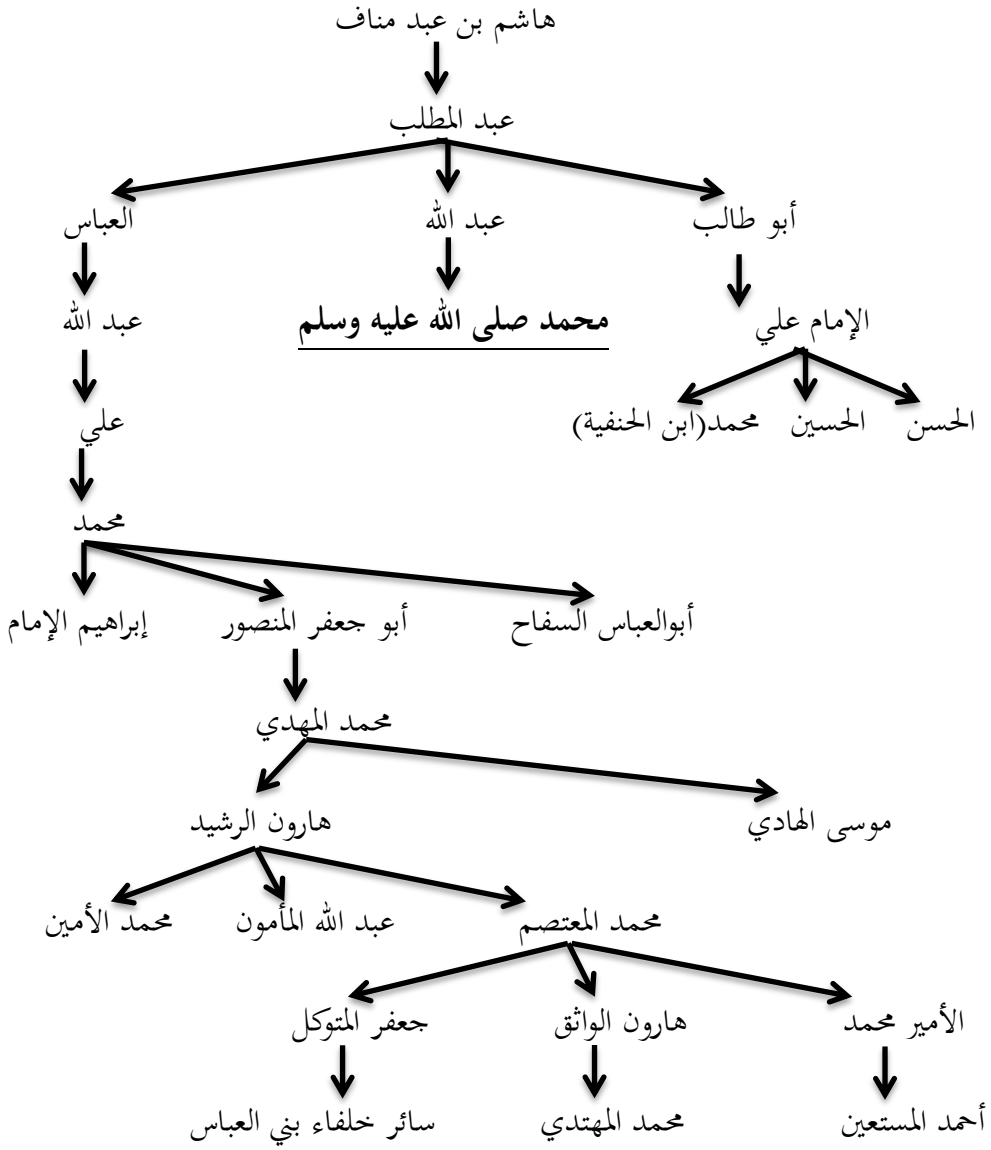

المحاضرة الثانية :

العصر العباسي الثاني 232هـ-334هـ

سيطرة القادة العسكريين الأتراك على الخلفاء

- **تعاقب الخلفاء الضعفاء على منصب الخلافة :**

توفي الخليفة الواثق مريضا فخلفه اخوه المتوكل مدة 15 سنة، وكان حريصا على إنهاء نفوذ المعتزلة ومحنة (خلق القرآن) فنجح في ذلك، إلا أنه فشل في أمر آخر ألا وهو إبعاد وصاية قادة الجيش عليه – وهم الأتراك ، بل إنهم تخلصوا منه فقتلوه بمساعدة ابنه المنتصر الذي حاول بدوره التخلص منهم فتخلصوا منه بعد أشهر، ونصبوا مكانه المستعين ابن عمه(وعمه هو محمد بن المعتصم) حوالي سنة 250 هـ لكن هذا الأخير ترك سامراء وعاد إلى بغداد ليعيد هيبة الخلافة، ففشل إذ بايع القادة أحد أبناء المتوكل واسمه المعتز، وحاول هذا الأخير التخلص منهم، فعينوا مكانه المهتدي ابن الواثق، وكان صالحا بل ومحاولا لإصلاح دون جدوى، فقتله القادة و بايعوا احد أبناء المتوكل و هو المعتمد والذي حكم حوالي ربع قرن، فنجح نسبيا في قمع الثورات خارج العاصمة بغداد، وكبح جماح القادة الأتراك داخلها وداخل سامراء، وكذلك واصل المعتضد – وهو ابن الموفق أخ المعتمد _ تلك المسيرة لعشر سنين، وكذلك فعل ابن المعتضد وهو المكتفي لبضع سنين أخرى، لكن تركيزه على قمع الثورات جعل القادة يستعيدون قوتهم، فنصبوا بعده أخاه الصغير المقتدر، وبقي هذا في الخلافة ربع قرن كان مليئا بالدسائس والمؤامرات داخل البلاط وبتدخل النساء، فاشتدت سطوة القائد (مؤنس الخادم)، و لما قُتل الخليفة جعلوا مكانه أخاه القاهر، ثم سمل القادة عينيه و خلعوه وبايعوا الراضي بن المقتدر، و الذي أوجد منصب (أمير الأمراء) لعله يستجمع صلاحيات الوزراء و القادة، و عليه بدأ الخلفاء يستعينون بأقوى الولاة في العراق كي يولوه المنصب (ابن رائق أمير واسط/ البريدي أمير الأهواز/ناصر الدولة الحمداني بالموصل) وفي المقابل حاول قادة الجيش الأتراك أن يولوا في هذا المنصب أحدهم (بجكم/توزون/ابن شيراز) ثم انهم بعد وفاة الراضي وقع اختيارهم على أخيه المتقي فلم يتمكن من ضبط الصراع على المنصب الجديد فخلع، وتمت تولية المستكفي—وهو ابن عمه المكتفي- عام 333هـ فكان هو الذي تولى إسدال الستار عن العصر العباسي الثاني، وذلك حينما قام باستدعاء البويهيين الشيعة بفارس ليسيطروا على العراق وبغداد بمباركة من الخلافة العباسية ذاتها.

• أهم الثورات ضد الخلافة: (ثورات الزنج و القرامطة)

بدأت حركة الزنج عام 255هـ بخليط من العرب و الفرس والعبيد الزنوج، يقودهم شخص يدعى علي بن محمد، و يدعي النسب العلوي من جهة، و يتظاهر بمبادئ الخوارج من جهة أخرى، لكنه في ذروة الانتصار كشف عن زندقته، أما دوافع هذه الثورة فهي سياسية و اجتماعية و اقتصادية... فالسياسية هي تصاعد نفود القادة الاتراك على حساب الخلفاء، و أما الاجتماعية فهي بؤس العبيد وأشغالهم الشاقة في المستنقعات، وأما الاقتصادية فهي تدهور الأوضاع المالية وزيادة حدة التباين الطبقي...وهكذا نجحت ثورة الزنوج جنوبي العراق و فارس لمدة عشر سنوات أو أكثر، ثم ركز عليها أخو الخليفة المعتمد وهو الموفق الذي صابر و ثابر إلى أن قضى عليهم نهائيا وقتل قائدهم سنة 270هـ، ليبدأ غلاة الشيعة أعمالهم السرية في استقطاب الناقمين، استعدادا للثورة، و هو ما حدث على يد القرامطة المنسوبين إلى قائدهم حمدان قرمط في المشرق ،و حدث أيضا مع الفاطميين بالشمال الافريقي و الذين نجحوا في إقامة دولتهم هناك على أنقاض الدول المستقلة بالمغرب و افريقية (الأغلبية و الرستمية و الادريسية ...)وذلك سنة 297هـ.

ومن جهة أخرى تولى الحسن الأطروش الزيدي حكم طبرستان بشمال فارس (أي جنوب بحر قزوين) سنة 250 مؤسسا لدويلة علوية تمكنت من الصمود بصعوبة أمام ولاة الخلافة كالحكام السامانيين و الذين حكموا أقصى المشرق (أي خراسان و خوارزم) لصالح العباسيين.[209]

علاقات الخلافة العباسية بالدول المنفصلة عنها بالمشرق:

في مطلع القرن 3هـ وافق المأمون على إعطاء فارس و خراسان (ولاية المشرق) لقائده طاهر بن الحسين فكان له بها شبه استقلال مدة نصف قرن، لكن أبناءه لم يتمكنوا من الحفاظ عليه أمام النزعات الانفصالية لبلاد فارس على يد الصفّاريين بعد منتصف ذلك القرن، إذ انهمكت الخلافة في مشاكلها و في ثورات الزنج، فأعلن الثائر يعقوب بن الليث الصفار الزحف على الخلافة التي اضطرت إلى مهادنته، وأعطت بلاد خراسان للقائد نصر بن أحمد الساماني ليؤسس بدوره دولته (السامانية) سنة 261هـ ولم ينته القرن حتى تمكن الطرفان(السامانيون و الخلافة) من القضاء نهائيا على هذه الدويلة المزعجة (أي الصفارية) أما دولة نصر الساماني فقد دام حكمها قرنا و ثلث قرن بين القوة و الضعف، ولكنها تمكنت من التوفيق بين الاستمرار في

[209] - د. العبادي (أحمد مختار) في التاريخ العباسي والفاطمي ، دار النهضة العربية 1971 بيروت ص 123 – 127

طاعة الخلافة السنية و تشجيع الطابع الفارسي داخلها، كما نجحت في بعض فتوحاتها مع التركستان و قمع بعض الثورات الداخلية و الجانبية، إلى أن حل محلها الغزنويون حوالي 390هـ...

أما الناحية الغربية للمشرق (وهي مصر) فقد قامت بها ثورات في عهد المأمون فأعاد إخضاعها عدة مرات، لكنها بعد انتصاف القرن الثالث تولى عليها أحد القادة العسكريين الاتراك وهو أحمد بن طولون فأعلن استقلاله عن بغداد، وبنى عاصمته الجديدة قرب الفسطاط و سماها (القطائع) ، وأصلح الجوانب العمرانية و الاقتصادية وبنى جيشا قويا، ثم اصطدم بالخلافة عندما أراد ضم الشام إليه لكنه تمكن من ذلك بالطرق الدبلوماسية، بل إنه فكر في نقل الخليفة الضعيف من العراق إلى مصر ولم ينجح في تنفيد فكرته، وقد واصل ابنه خمارويه سياسته، لكن نهاية القرن شهدت انتصار الخلافة على الأسرة الطولونية وتهديمها لعاصمتهم القطائع.

هذا ،وبعد ربع قرن أي في سنة 323هـ اضطرت الخلافة لشدة ضعفها إلى تسليم مصر لقائد تركي اخر هو محمد بن طغج (الاخشيد) الذي فعل ما فعله ابن طولون تقريبا ونجح في تأسيس دولة لذريته حين توفي سنة 334هـ لولا أن خادمه وهو عبد أسود يدعى كافور و ينسب إليه فيقال (كافور الاخشيدي) تولى الحكم باسم أبناء سيده باعتباره الوصي عليهم، وكان ناجحا في الحفاظ على تماسك الدولة الاخشيدية تاركا شمال الشام للحمدانيين ليكونوا حاجزا بينه وبين البيزنطيين، وبعد وفاته سنة 357هـ لم يتمكن أبناء الاخشيد من مواجهة الفاطميين (العبيديين الشيعة) الزاحفين من المغرب الأدنى فقضي على هذه الدولة المصرية.

وتبقى الاشارة في الأخير إلى أن الحمدانيين هم أسرة عربية من قبيلة تغلب حكمت شمال العراق و شمال الشام (الموصل وحلب) بل إنها تدخلت في شؤون خلفاء بغداد الضعفاء، فلما وقعت بغداد في يد البويهيين سنة 334هـ أصبح سيف الدولة حاكما مستقلا ومنافسا قويا لبني بويه وكان ناجحا في مقارعته لبيزنطة و محافظته على الحدود الاسلامية معها، كما أنه كان مهتما بالجوانب الثقافية أيضا فهذا ابن عمه أبوفراس كان شاعرا، في الوقت الذي اشتهر فيه الشاعر المتنبي صديقا له ...وبعد انتصاف القرن الرابع توفي سيف الدولة و حاول ابنه ثم حفيده الحفاظ على حلب أمام الفاطميين بل إنهما حالفا بيزنطة ضدهم لكن الفاطميين أسقطوا تلك الدولة مع انتهاء ذلك القرن أي 4هـ .[210]

[210] - العبادي ، نفسه ص 128 – 151

مقتطفات من منظومة (الزهر المورق
في أخبار دول الاسلام بالمشرق)

فصل في بيان الدول التي تعاقبت على أقصى المشرق
في القرن الثالث وما تلاه

وبعـــدُ، هـــذا نظـــم (زهـــرٍ مـــورقِ ... لـــدول الإســـلام–قـــلْ–بالمشـــرق)
مبـــــدؤها توليـــــةُ المـــــأمون ... مَشْـــــرِقَه لقائـــــدٍ مـــــأمون
فدولـــة الطـــاهر نصـــف قـــرن ... قـــد حَكَمـــتْ مشـــرِقَه بـــالإذن
أي طـــاهر وابنـــاه والحفيـــد ... والابـــن طـــاهر بمـــا يفيـــد
يعقـــوبُ اِبـــنُ ليثِـــه الصـــفّاري ... فـــي المتطـــوِّعين والعيَّـــاري
قـــد خلـــف الطـــاهر فـــي المشـــارقِ ... كـــاد يُـــرى إلـــى الخلافـــةِ رقـــي
أخـــوه عمـــرُو بخراســـانَ اكتفـــى ... وفـــي بَنِيهِمَـــا انـــزواءٌ وانطِفـــا
ومِـــن ورائهـــم بنوســـامان ... أحفـــادُ ذاك الأســـد الساســـاني
مـــن نســـله نصـــرٌ عـــلا بالنصـــر ... وآلُ إســـماعيل مثـــلُ نصـــر
ونـــوحُ عبـــدُ ملـــكٍ منصـــورُ ... تكـــررتْ أســـماءُ لا بـــدور
وقـــرنُ غزنـــةَ بـــدا فـــي الطـــالع ... لغـــزو هنـــدٍ فـــي انتصـــاف الرابـــع
سُـــبُكْتكين فابنـــه محمـــود ... مســـعودٌ الِأول فـــالمودود
ثُمـــةَ إبـــراهيم فـــالبهرام ... وآل خســـرو للخســـار رامـــوا
وأورثـــوا غزنـــةَ آلَ الغـــوريِ ... مـــن أوغلـــوا فـــي الهنـــد بـــالثغور
بـــل جـــاوزوا دلهـــي إلـــى البنغـــال ... وبـــذلوا للـــدين كـــل غـــال

فصل في ضعف خلفاء بني العباس
أمام القادة العسكريين الأتراك

وكـــلُّ والٍ منهمـــو تـــولّى ... أقصـــى المشـــارق فمـــا تـــولى
أمـــا انفصـــالهم فكـــان قـــد بـــدا ... لمـــا الخلافـــةُ بهـــا ضـــعْف بـــدا

ثالـــثُ أبنـــاء الرشـــيد معتصـــمْ ... بجلْبِـــه الأتـــراكَ للأمـــر قصَـــمْ
إذ زاحمـــوا مَـــنْ بعْـــدَهُ كـــالواثق ... أي ابنـــه فلـــم يكـــن بـــالواثق
بـــه انتهـــتْ مئـــةُ عـــامِ الخُلَفَـــا ... قـــلْ تســـعةٌ ثُمـــةَ ســـمِّ الضُّـــعَفا
بـــالِابْنِ الآخـــر انـــزوى المعتزلـــهْ ... ولـــم تكـــن سُـــنَّتُهُ معتدلـــهْ
أيْ متوكِّـــلُ قضـــى فـــي النصـــف ... مـــن ثالـــث القـــرون دون وصـــف
فقـــادة الجـــيش وهُـــمْ أتـــراكُ ... أضـحى لهـم فـي المنصـب اشـتراكُ
إذِ الخلافـــة غـــدتْ فـــي مَهْمَـــهِ ... فَخُلِـــعَ ابنـــاه كـــذا ابـــن عمـــه
منتصـــــرٌ معتـــــزُّ مســـــتعينُ ... لـــيس بســـامراء مـــن يعـــين
ومهتـــــدٍ لواثـــــقٍ ومعتمِـــــدْ ... لمتوكـــلٍ وقـــد طـــال الأمـــدْ
فـــي قمْـــع زنـــجِ بيـــد الموفـــق ... أخـــي الخليفـــة بهـــم لـــم يرفـــق
لـــمَّا بـــه معتمِـــدٌ قـــد اعتضـــدْ ... نـــال الخلافـــةَ ابنُـــه أي معتضـــد
أبنـــاءُ هـــذا مكتفِـــي ومقتـــدرْ ... وطـــال عهـــده وقـــاهرٌ قُهِـــرْ
ولـــم يكـــن رأيهمـــو بالمجـــدي ... فـــي حـــرب قـــرمطِ ســـوادِ نجـــدِ
وابنـــانِ مِـــنْ مقتـــدرٍ إئتمـــرا ... بـــأمر قائـــدٍ أميـــر الأمـــرا
راضِـــي ومتقِـــي فنجـــلُ المكتفِـــي ... سَّـــمهِ مســـتكفِي إذا كنـــتَ تفـــي

أقاليم شرق الخلافة العباسية

المحاضرة الثالثة :

العصر العباسي الثالث: 445/334 هـ

- **الخلافة العباسية في العصر البويهي**

في مطلع العقد الأخير من العصر العباسي الثاني و بالضبط سنة 323هـ سطع نجم ثلاثة إخوة من القادة العسكريين في الدولة الزيارية (من ديلم شمال فارس) و هم علي و أحمد و الحسن أبناء أبي شجاع بويه الديلمي،و ما هي إلا سنوات قليلة من المغامرات العسكرية و التقلبات السياسية حتى استولى كل واحد منهم على أقاليم فارسية كبرى بشمال إيران و وسطها و جنوبها ... و لم تتوقف حظوظهم عند إعتراف الخلافة العباسية بشرعيتهم، بل وصل أمرهم إلى حد إستنجاد الخليفة المستكفي بأحدهم، و هو أحمد بن بويه الذي دخل العاصمة بغداد، و استولى على حكم كامل العراق،و لُقّب بمعز الدولة، بينما لقب أخوه الحسن بركن الدولة و لقب علي بعماد الدولة، وكانوا شيعة زيدية أي معتدلين ... ليبدأ عهد جديد في الخلافة العباسية سنة 334 هـ.

إفتتح معز الدولة عهده بقتل الخليفة المستكفي و تعيين أحد أبناء المقتدر وهو المطيع مكانه، وعمل على إضعاف الدولة الحمدانية في الشمال العراقي و على طرد الأمراء البريديين من الجنوب العراقي بل وصل نفوذه إلى سواحل عمان الإباضية، و هدد غلاة الشيعة من قرامطة البحرين، و قد أعانه أخواه من بلاد فارس شمالها و جنوبها (عماد الدولة و ركن الدولة)...

و بعد أكثر من عشرين عاما توفي سنة 356 ليخلفه إبنه أبو منصور بختيار، و لقب بعز الدولة لكنه أهمل شؤون الحكم و لم يواصل سياسة أبيه، و استولى الفاطميون يومها على مصر و الشام سنة 358 بل إنه عزل الخليفة المطيع و عين مكانه ابنه الطائع و ازدادت نزاعات الشيعة مع السنة ببغداد و نزاعات الجند الأتراك مع جند الديلم في طلب رواتبهم...و لما وصل إلى طريق مسدود استنجد ببني عمومته (بويهية فارس) لكنه لما شعر بقوة تدخل عضد الدولة (و هو ابن عمه ركن الدولة)استنجد بخصومه الحمدانيين شمال العراق و انهزم و قتل سنة 367 فامتلك عضد الدولة بغداد و العراق لسنوات قليلة (إضافة إلى السنوات الطويلة التي قضاها في حكم فارس) ثم تعاقب أبناؤه الثلاثة على حكم العراق (أبو كاليجار صمصام الدولة و شرف الدولة و أبو نصر

بهاء الدولة) و قد تنافس هؤلاء فيما بينهم، و مدة الأوّليْن قصيرة، أما بهاء الدولة فطال عهده مدة ربع قرن ، حيث عزل الخليفة الطائع سنة 381 بل صادر ممتلكاته وعين مكانه عمه القادر ابن المقتدر... و ازداد استبداد بهاء الدولة على صلاحيات هذا الخليفة كما ازداد اعتماده على القادة الاتراك دون الديلم، بل و عمل ضد إخوته و سائر بني عمومته فاضطربت العراق و فارس ضده، بل و تفاقمت الخلافات الشيعية السنية في العاصمة نفسها،ثم خلفه ابنه سلطان الدولة إلى سنة 411 ثم ابنه الآخرمشرف الدولة إلى 416 و هذا الاخير كان منافسا لأخيه السابق مثلما نافسهما إخوتهما على الحكم طوال تلك السنين، و لقد توفي كل منهما بعد تجاوزه سن العشرين و كذلك هو سن أبيهما من قبل...

هذا، وقد حاول أخوهما أبو طاهر جلال الدولة إثبات نفسه كأبناء إخوته (مثل عماد الدولة بن سلطان الدولة و أبي كاليجار بن مشرف الدولة) و كقادة العساكر من الاتراك... و قد تحقق له الأمر و لكن بصعوبة بالغة، وفي عهده توفي الخليفة القادر سنة 422 ليصبح ابنه القائم خليفة و تطول مدة خلافته أكثر من أربعين سنة – مثلما هو حال أبيه القادر من قبل –.

أما جلال الدولة فقد توفي سنة 435 و لم يصمد إبنه أمام أبي كاليجار المذكور آنفا، وقد حكم هذا الأخير سنوات قليلة لم يتحمس له فيها الخليفة القائم،خصوصا مع زحف السلاجقة الأتراك على كامل بلاد فارس، فكان أبو كاليجار مترددا في مواجهتهم ليواصل ابنه أبو نصر خسرو فيروز ذلك التردد،و تردد الخليفة في تلقيبه بالملك الرحيم، ثم استقر الأمر على ذلك اللقب،لكن هذا الملك الرحيم دخل في منازعات مع إخوته فسهل على السلاجقة القضاء عليه، بل و سهل عليهم دخول بغداد العاصمة و إنهاء حكم بني بويه في العراق و فارس سنة 447 هـ كما أُجهضت بعدهم محاولة القائد العسكري البساسيري الإنقلاب على العباسيين و السلاجقة في بغداد لصالح الفاطميين و الشيعة سنة 450 هـ .[211]

• تطورات دول أقصى المشرق في العصر البويهي

كانت الدولة السامانية نهاية ق3هـ قد بسطت نفوذها من سمرقند في معظم أقاليم أقصى المشرق مستندة إلى ولائها العباسي، فقد قضى مؤسسها نصر بن احمد بن أسد بن سامان و اخوه إسماعيل ثم إبن هذا الاخير أحمد مدة 40 سنة في تقوية دولتهم الناشئة على حساب الصفاريين غربا، و في مطلع ق 4 هـ قضى نصر الثاني بن أحمد و ابنه نوح مدة 40 سنة أخرى في إخماد الثورات و في الصمود لنجم البويهيين الصاعد الذين وافقوا الخليفة الطائع على تثبيت ملك بني سامان في خراسان و ما وراءها...

[211] - العبادي نفسه ص 161 – 175

و خلف نوحا ابناه طيلة ربع قرن(أي ابنه عبد الملك قبيل منتصف ق4هـ ثم ابنه الآخر منصور بعيد ذلك المنتصف) و حاولا الحفاظ على ذلكم الاستقرار الداخلي بصعوبة خصوصا في مواجهة البويهيين رغم كثرة التصالح معهم، و تجلت ملامح ضعف الدولة في عهد نوح الثاني ابن منصور الذي حكم اكثر من 20 سنة و نظرا لصغر سنه كثرت الدسائس في البلاط كالنساء و الوزراء و القادة بل و كثرت الثورات هنا و هناك فترنحت الدولة أمام أطماع الأتراك و البويهيين بل و حتى أطماع البيت الساماني في ما بينهم و تفاقم الامر بعيد وفاته سنة 387 هـ فتهاوى ابنه منصور الثاني و ابنه الآخر عبد الملك الثاني امام قادة الجيش و أمام صعود نجم محمود الغزنوي و دولته الفتية (الغزنوية)...

و لم تأت سنة 390 هـ إلا و الدولة السامانية قد أصبحت في خبر كان ، لكن إنجازاتها كانت عظيمة حيث انتعشت اللغة الفارسية و آدابها (كتاب الشاهنامه للفردوسي و مختصر تاريخ الطبري للبلعمي وزير منصور بن نوح) أما كتب الطب عندهم فكانت بالعربية إذ أهدى أبو بكر الرازي كتابه المنصوري للوالي الساماني على سجستان بينما نشأ ابن سينا في عهدهم بل في بلاطهم وما أدراكم ما ابن سينا في مجالي الطب و الفلسفة.[212]

[212] - العبادي نفسه ص 152 – 155

مقتطفات من منظومة (الزهر المورق
في أخبار دول الاسلام بالمشرق)

فصل في أحوال الخلافة العباسية

تحت سلطان دولة بني بويه والسلاجقة

وابنـــــانِ مِـــــنْ مقتـــــدرٍ إئتمـــــرا ... بـــــأمر قائـــــدٍ أميـــــر الأمـــــرا
راضِـــي ومتقِـــي فنجـــلُ المكتفِـــي ... سَّـــمهِ مســـتكفِي إذا كنـــتَ تفـــي
هـــو الـــذي اســـتدعى بويـــهَ الفـــرْسِ ... لشـــيعة الـــديلم ملْكـــا يرســـي
صـــار الخليفـــة لهـــم مطيعـــا ... ســـمّ بنـــي مقتـــدرٍ مطيعـــا
مـــعَ ابنـــه الطـــائع نصـــف قـــرن ... عـــادوا إلـــى مقتـــدرٍ فـــي الإبـــن
مـــعْ قـــادر أربعـــة العقـــود ... وكـــان مثـــل العـــاجز المفقـــود
فـــالإبن وابْـــنُ الإبـــن مثـــلُ الفـــرض ... ذريـــةٌ أيْ بعضـــها مـــن بعـــض
والكـــلّ هـــان فـــي عهـــود لاحقـــهْ ... مـــع بنـــي البويـــه فالســـلاجقةْ
كقـــائم فـــي نصـــف قـــرنٍ قـــد دعـــا ... أتـــراك ســـلجقٍ لـــه كـــانوا الوعـــا
فمقتـــدي مســـتظهرٍ مسترشـــدِ ... وراشـــدٍ ومقتفـــي مســـتنجد
ومستضـــيء ناصـــرٍ والظـــاهرِ ... مستنصـــرٍ مستعصـــم فـــي الآخـــرِ

المشرق الاسلامي في العصور العباسية التالية

المحاضرة الرابعة :

العصر العباسي الرابع: 447-590هـ

الخلافة العباسية في عصر السلاجقة

• ظهور السلاجقة الأتراك في عهد طغرلبك

كانت الشّعوب التّركية البدوية تعيش في الصّحاري الباردة والسّهوب الواسعة، بين بحر قزوين ومنغوليا، وتسمى المنطقة كلّها بإسمهم (التركستان)، وفي القرن 3 هـ أسلم أفراد وجماعات من هذه الشّعوب المحاذية لثغور بلاد ما وراء النّهر (خوارزم) وكانوا يعتنقون الدّين الإسلامي على المذهب الحنفي الماتريدي...

ومع نهاية ق 4 هـ نزحت قبائل من الغزّ الأتراك، تتزعمهم أسرة سلجوق بن دقاق، وأرادوا إستيطان شمال خراسان – شرقي فارس – ولما انهزم أمامهم الغزنويون في معركة (دندقان) 431هـ إعتراف بهم الخليفة العبّاسي أنداك وهو القائم، فتوسعوا بسرعة نحو العراق على حساب البويهيين، وكان يقودهم (طغرلبك) الذي دخل بجيوشه العاصمة (بغداد) إستجابة لإستدعاء الخليفة القائم لهم، بل إنّه نصّبه سلطانا سنة 447هـ على حساب بني بويه، فلم يعد للشّيعة ما يشجّعهم على إظهار طقوسهم وإزعاج أهل السنة، كما كانوا يفعلون طيلة العهد البائد مدّة قرن.

ونظرا لإنشغال طغرلبك بتمرّد أخيه (إبراهيم ينال) في شمالي كل من فارس و العراق، قام أحد قادة الجيش في بغداد بالإنقلاب على الخلافة العباسية، وبالخطبة للخليفة الفاطمي الموجود بالقاهرة، وكان هذا القائد هو أبو الحارث البساسيري، لكّن ثورته هذه انتهت بالفشل الذّريع مع عودة طغرلبك إلى بغداد ثانية، وإنقاذه للخليفة القائم بشكل نهائي عام 451هـ، فانتعش المذهب السني بشكل كبير في العالم الإسلامي، مثلما تدفق الأتراك بقبائلهم من التّركستان وتوجهوا بكثافة نحو الحدود البيزنطية شمالي كلّ من العراق و الشّام بإسم الجهاد والحماسة الدّينية.

• دولة السلاجقة في عهدي ألب أرسلان وملكشاه

وتولى السّلطنة (ألب أرسلان) بعد طغرلبكَ وهو إبن أخيه لمدة عشر سنين، حاصر فيها مدينة حلب حتى استسلمت له فأخدها من الفاطميين، وبعث بالقائد (أتسز) فأخد مدينة القدس وحاصر دمشق ...إلاّ أنّ

خطر الرّوم البيزنطيين تفاقم فجأة بمجيئ الإمبراطور (رومانس) نفسه بجيش جرّار، فحاول ألب أرسلان أن يهادنه لكنه أبى إلاّ القتال، وعندئذ كانت معركة ملاذ كرد (منزكرت) بأرمينيا مؤذنة بتسارع إنهيار الحكم البيزنطي في الأناضول كلهْ (آسيا الصّغرى) وحاليّا هي تركيا... وذلك سنة 463هـ فانساحت جموع الأتراك وقبائلهم للسيّطرة على ما يتمّ الزّحف عليه من الأراضي البيزنطية، وقد كانت العمليات تتمّ بإشراف أحد أبناء عم ألب أرسلان وهو (سليمان بن قتلمش) السلجوقي، والذي من نسله سيظهر حكّام المنطقة فيما بعد باسم دولة (سلاجقة الرّوم) .

أمّا ألب أرسلان فإنه التفت بعد ذلك إلى ما وراء بلاد فارس شرقا، ثم توفي أثناء إعادة إخضاع خراسان موليّا إبنه (محمد ملكشاه)، وبفضل الوزير (نظام الملك) استمرت قوة السلاجقة في تصاعد وازدهار، ولذلك سماه ملكشاه (بالأتابك) أي الأمير المربي، وقد حكم ملكشاه عشرين سنة، وكانت سلطته تمتد من كاشغر الصينية إلى أنطاكيا المتوسطية... وفي نفس الفترة تولى سدة الخلافة العباسية المقتدي(وهو حفيد القائم من ابنه الأمير محمد ذخيرة الدين الذي توفي في حياة أبيه) و قد تزوج المقتدي من ابنة السلطان السلجوقي، وهذا الأخير تمكّن من إخماد الثورات الداخلية، وشجع العلوم، وأنشأ المدارس النظامية، وحرص على تأمين التجارة، وحفر الآبار وخاصة في طرق الحج...

- **الدولة السلجوقية في عهدها الأوسط :**

وشهدت سنة 485هـ مقتل الوزير نظام الملك على يد الباطنية (الحشاشين) عملاء الفاطميين، ثم وفاة السلطان ملكشاه نفسه، فتنافست زوجتاه على تنصيب ابنيهما خلفا له، وقد تجاوزا سن العاشرة بقليل، وهما محمود وبركياروق، فانقسم الوزراء والقادة بينهما، ورجّح الخليفة المقتدي كفة محمود، الذي توفي بعد مدة قصيرة بمرض الجدري، كما توفي أيضا الخليفة، فتولى مكانه ابنه المستظهر مدة ربع قرن، قضى نصفها الأول مع السلطان الصغير بركياروق، الذي أنهى تمرد عمه (تتش) ضده، ثم عين أخاه (سنجر) على خراسان، والتفت إلى أخ آخر يدعى (محمد) نافسه على العرش مدة خمس سنوات، وهي السنوات التي فوجئ فيها المسلمون بانقضاض الصليبيين من أوربا على القدس خاصة وسواحل الشام عامة، فاضطر بركياروق لتقاسم منصب السلطنة مع محمد بتدخل من الخليفة المستظهر، هذا الخليفة الذي قضى النصف الثاني من خلافته مع محمد بن ملكشاه، إذ انفرد بالسلطنة بعد وفاة أخيه، وقام بمحاربة الباطنية وإخضاع إمارة عرب جنوب العراق، ووجّه أتابكيات شمالي العراق والشام إلى توحيد جهودهم ضد الصليبيين، جاعلا القيادة لمودود أتابك الموصل...

هذا وقد توفي محمد بن ملكشاه في أصبهان آخر سنة 511هـ فخلفه ابنه (محمود) وكان صغيرا، وفي نفس الوقت تقريبا مات الخليفة المستظهر، وخلفه ابنه المسترشد، الذي حاول أن يبقى مستقلا نسبيا عن السلطان وصراعاته وحروبه ضد عمه سنجر، ثم ضد تمرد أخيه مسعود، والتي آلت كلها إلى الصلح و العفو... ومع ذلك كله وقعت المواجهة الحربية بين الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي وآل الأمر إلى تصالحهما، ليلتفت السلطان إلى باطنية فارس فيأخذ منهم حصن (ألموت) سنة 524هـ ومات في السنة التي تليها، حيث خلفه أخوه مسعود.

• سلاجقة الشرق (العراق وفارس) في عهدهم الأخير:

حينما تولى مسعود بن محمد بن ملكشاه السلطنة بادر إلى مواجهة خليفة بغداد المسترشد فانتصر عليه في المعركة، بل وأسره وربما كان وراء اغتياله، ولما تولى ابنه الراشد الخلافة خلعه السلطان بعد عدة أشهر سنة 530هـ ليولي أحد إخوة المسترشد وهو المقتفي ابن المستظهر على سدة الخلافة، والذي حكم لمدة ربع قرن ،حرص خلالها على عدم المواجهة مع السلاطين السلاجقة، لأنهم ازدادوا ضعفا، خصوصا عند وفاة مسعود قبيل انتصاف ق 6هـ.[213] والمحاولات الفاشلة لعمه سنجر بعد ذلك المنتصف بقليل، حيث مات سنجر كمدا سنة 554 هـ وهو يرى الغوريين والخوارزميين بأقصى المشرق يأخذون منه خراسان وفارس... وأما من تلاه من السلاجقة الضعفاء فهم أحفاد محمد بن ملكشاه من ابنه طغرل الأول أي سليمان وأرسلان شاه وطغرل الثاني... وهؤلاء لا ذكر لهم أمام الخليفة المستنجد ابن المقتفي، وقد تولى الخلافة عقدا من السنين، انتعشت فيه أتابكية زنكي بإحياء الجهاد ضد الصليبيين شمالي العراق والشام، وكذلك هو الحال في خلافة ابنه المستضئ، والذي تولى عقدا آخر شهد زوال الدولة الفاطمية على يد الأيوبيين... أما خلافة ابنه (الناصر لدين الله) فهي أطول مدة حكم في التاريخ العباسي 575-622هـ وأهم ما جرى في عهده هو القضاء النهائي على سلاجقة العراق وفارس عام 590هـ بفضل مساعدة الدولة الخوارزمية، ورغم محاولة هذه الأخيرة الحلول محل السلاجقة في عملية السيطرة على الخلافة العباسية، إلا أن الخليفة الناصر حال دون ذلك ... وفي هذا الخضم ظهر الخطر المغولي التتري (الوثني) من وراء أقصى المشرق ليكتسح الجميع مع انتصاف القرن 7هـ.

[213] - العبادي نفسه ص 179 - 193

مقتطفات من منظومة (الزهر المورق
في أخبار دول الاسلام بالمشرق)

فصل في دخول الأتراك السلاجقة إلى فارس والعراق

سلاجقٌ قد ورثوا البويها ... وسُنّةٌ قد ركنوا إليها
لسنّةٍ نادتهمو:" أروني ... نصرا " في نصف خامس القرون
"ياخيلُ للبغداد-قيل-سيري " ... فانقمعتْ ثورةُ باسَسِيري
وانبسطتْ يدُ ملوك التُّرك ... لأخْذ غرْبِ الأرض دون تَرْك
أتراكُهم غزوْا بلاد فارسْ ... تُرْكيُّهم بأرض رومٍ فارسْ
معْ طُغْرلٍ وألْبِ أرسلانِ ... ومَلِكِ الشاه بلاتوان
فذاك ألْبُ أرسلانِ المُرْدي ... جيوشِ رومٍ في (ملاذكرْد)
ومعْ وزيرِهِ (نظامِ الملك) ... قد رتّبا أُسَّ نظام الملك
مِن بعد وقعة (ملاذكرد) ... وأسْرِ رومانوسَ بدْءُ الطرد

فصل في دخول الأتراك السلاجقة إلى أرض الروم والشام

وذا مَلِكْشَاهٌ بشامٍ منتشي ... مع أرض روم لأخ قتلْمشي
وبرْكُيارُوقُ تلاه سنجرُ ... معْ خَلَفٍ بمشرق لا يُذْكر
فسلجقُ الروم غزا نيقيهْ ... قونيةٌ أرضٌ لهم نقيهْ
أتابكُ الشام ودانشْمندُ ... كم هابهم بين الفرنج جند
جوابُ جند الترك: من أتى بكْ؟ ... هو:" من الدين ومن أتابك"
ثغورهم لكل فتْق راتقهْ ... كبُرْسُقٍ مودودِ والأراتقهْ
ودولتا الزنكيِّ والأيوبي ... قد محتا ما كان من عيوب

فصل في الدول التي تعاقبت على حكم مصر والشام

وقبلُ في مصرَ القرون الأولى ... كانت يد العباسيين الطولى
بل غربُ بغدادَ لبدء المغرب ... في الانفصال مالهم من مَأْرَبِ

فالشـــام والحجـــاز دون فُرقـــةْ ومصـــر ضـــمَّت نوبـــةً وبرقـــةْ
والكـــلُّ للبغـــداد قرنـــا خاضـــعه وسُـــلِّمت لأُسَـــرٍ مُتابعـــةْ
لآل طولـــونَ وللإخشـــيدي وضـــمَّها جـــوهرُ للعبيـــدي
طغـــى العزيـــزُ حـــاكمٌ والظـــاهرْ مستنصـــرٌ مســـتعلِ ثـــم الآمـــرْ
قـــد ســـلبتهما الفـــرنج القدســـا والســـاحل الشـــاميُّ كـــاد يُنســـى
لـــولا الأتابـــك مـــن آل زنكـــي نـــورُ العمـــادِ فـــي عـــداه مُنكـــي
بضـــمِّه دمشـــقَ ثـــم مصـــرا عـــلا ابـــنُ أيـــوبَ بمصـــر قـــدْرا
ألغـــى خلافـــةَ عبيـــدٍ فاســـدْ لمـــا بعاشـــوراءَ مـــات العاضـــدْ
فـــي الســـبع والســـتين والخمســـمائهْ فلـــم تعـــد للـــرفض شـــوكةٌ فئـــهْ

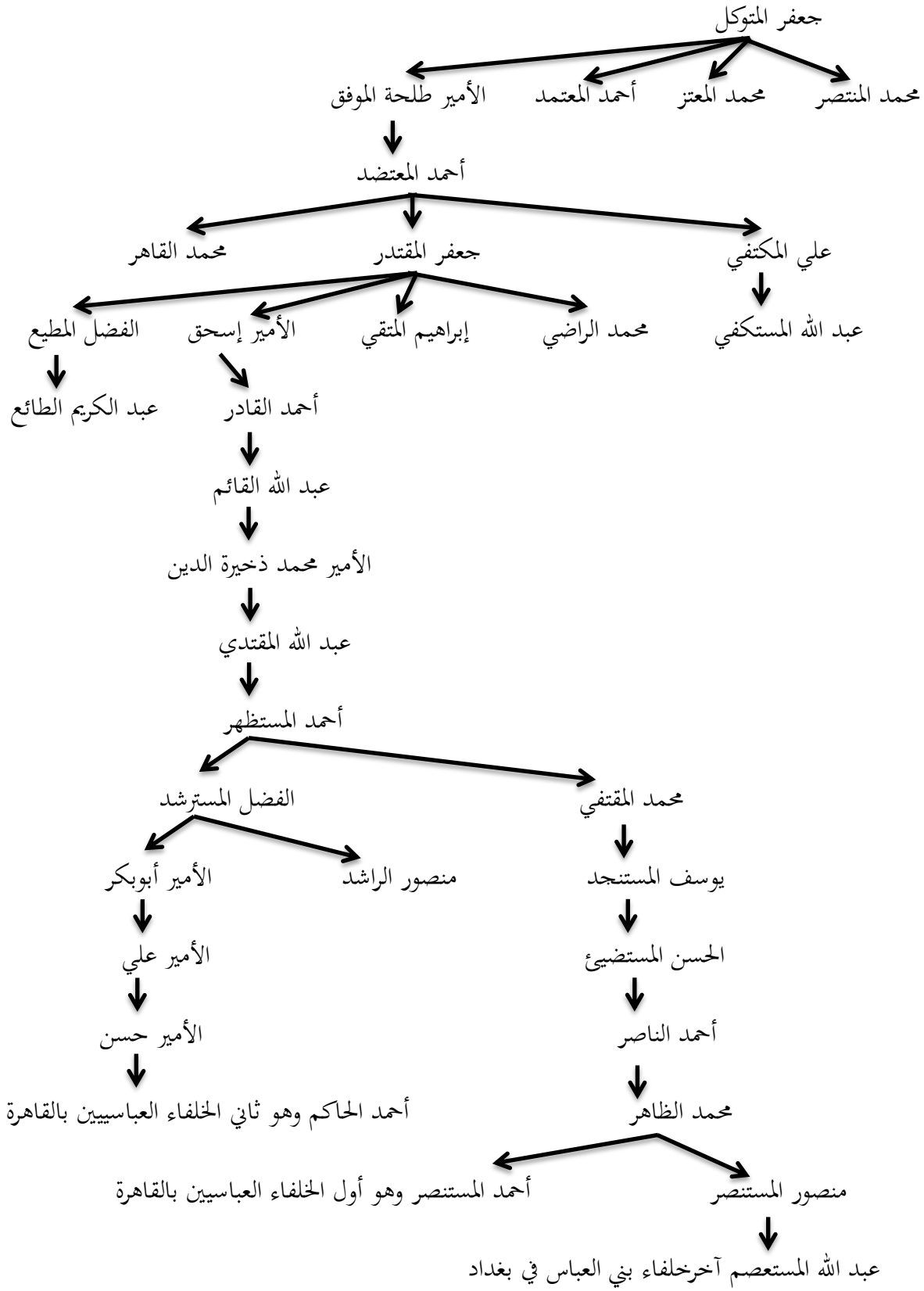
جعفر المتوكل
محمد المنتصر
محمد المعتز
أحمد المعتمد
الأمير طلحة الموفق
أحمد المعتضد
علي المكتفي
جعفر المقتدر
محمد القاهر
عبد الله المستكفي
محمد الراضي
إبراهيم المتقي
الأمير إسحق
الفضل المطيع
أحمد القادر
عبد الكريم الطائع
عبد الله القائم
الأمير محمد ذخيرة الدين
عبد الله المقتدي
أحمد المستظهر
محمد المقتفي
الفضل المسترشد
يوسف المستنجد
منصور الراشد
الأمير أبوبكر
الحسن المستضيئ
الأمير علي
أحمد الناصر
الأمير حسن
محمد الظاهر
أحمد الحاكم وهو ثاني الخلفاء العباسيين بالقاهرة
منصور المستنصر
أحمد المستنصر وهو أول الخلفاء العباسيين بالقاهرة
عبد الله المستعصم آخرخلفاء بني العباس في بغداد

المحاضرة الخامسة:

بداية الحروب الصليبية

- **الحركة الصليبية (ماهيتها و بواعثها)**

ليس الكلام عن حالة العالم الاسلامي في ق 10 م هو المدخل الطبيعي للكلام عن الحروب الصليبية بل العكس هو الصحيح، ذلك أن اوضاع أوروبا آنذاك هي مفتاح تلك الظاهرة التاريخية : فالانهيار الحاصل في الغرب الأوروبي في القرون 5-7م من العصور الوسطى المظلمة كان نتيجة تدفق امواج البرابرة ، ثم تعمق بالفتوح الاسلامية فكان ان ظهرت محاولات للبابوية في ايطاليا مع الامبراطورية المقدسة في فرنسا و المانيا لبعث الروح في مناحي الحياة الاوروبية المنهارة عبر تدعيم (الاقطاع) ليتكفل بتفاصيل يوميات الناس خلال ق 8-9 م وهكذا كانت الكنائس الكاثوليكية في ق 10 م تسيطر على الحياة في مقابل سلطات مركزية ضعيفة تعتمد هي أيضا على اقطاعيين مبثوثين في كل مكان ورعايا ينوءون باعباء التبعية المرهقة لهؤلاء و أولئك ، اما التجاذب بين الطرفين فلم يكن علنيا بما يكفي لحروب داخلية لكنه كان حادا ومتصاعدا لتاتي الحروب الصبيبية في وقتها وتوجه الطاقات المشحونة المتصادمة في وجهة خارجية نحو الشرق .

ولكن : ماهي هذه الحركة الصليبية ؟ هناك من يرى أنها حلقة من حلقات الصراع بين معسكري الشرق و الغرب منذ أعماق التاريخ القديم ولا علاقة له بالدين اذ كان الصراع موجودا منذ أيام الوثنيين مما يعني أنه صراع بين عقليتين مختلفتين. الا أن هناك من يرى أن الحركة ليست سوى هجرة من الهجرات الكبرى بعد سقوط روما ... لكن رأيا آخر يعتبرها حركة احياء ديني حاولت فيها الكنيسة البابوية المركزية تقوية سلطانها على الأطراف و تنشيط قواها بما في ذلك دفع افواج الحجيج إلى القدس بالمئات بعد ان كانوا افرادا لتتأكد للجميع ضرورة القوة لحماية قوافل الحج . هذا ،ويوجد رأي آخر يقول بأن الحركة ما هي إلا تحايل من الغرب للخروج من أوضاع العصور الوسطى إلى آفاق أرحب وحياة أفضل بعيدا عن وطأة الكنيسة والحلقة المفرغة للحياة البئيسة التعيسة التي يحيونها اذ من تمرد عليها كان محروما دينيا فلم تكن الحركة الصليبية سوى ايجاد حل لتلك المعادلة .

الباعث الديني : تركز النظرة التقليدية على الدين في معالجتها لهذه الظاهرة خصوصا بالنظر لاسمها و الدعاة لها و الروح السارية فيها ولذا نجد عند أصحاب هذه النظرة كثرة التركيز على أحوال الأقليات في الشرق الاسلامي

و ما تعرض له الحجاج الغربيون ... وهذا مدخل مضلل يصرف الباحث عن حقيقة الموضوع ، فقد عرف عن الاسلام سماحته و عن المسلمين تعايشهم مع أهل الكتاب باعتراف بطارقتهم المشرقيين في مراسلاتهم عكس ما يلاقيه اصحاب المذاهب المسيحية من اخوانهم المسيطرين على الامبراطورية ، ربما يشذ بعض المسلمين أو أحد حكامهم عن القاعدة كالمتوكل العباسي و الحاكم الفاطمي لكنها ترفض وسرعان ما تصحح من الرأي العام ... ثم انه لاوجود أصلا لتفاعل روحي وأخوي بين مسيحيي الشرق الاسلامي و الغرب الأوروبي كما انه لا حقيقة واقعية لتصوير الصليبيين كأتقياء منقذين ... وإذا كان لابد من أمر ديني فهو سياسي بالدرجة الاولى لان كنيسة روما شعرت بسلطانها المتزايد ثم رأت في استنجاد البيزنطيين بها فرصة لحكم العالم ويصبح البابا زعيما أوحد للمسيحيين أجمعين أما الجنود في تلك الحروب فإما أن تكون المطامع السياسية دوافعهم وإما الهروب من الديون أو الغرامات أو العقوبات وإما للخلاص من حياة الفقر تحت نير الاقطاع المتوحش... وإلا فأي باعث ديني وراء نهب الكنائس البيزنطية؟

الباعث الاقتصادي: تؤكد الوثائق أن القلب الاوروبي وما حوله من أقاليم كفرنسا كانوا ينوءون بمجاعات و أزمات غلاء وندرة الغلال حتى أكل الفقراء الأعشاب.... وازدادت الأحوال سوءا بكثرة حروب الاقطاعيين فيما بينهم فأضر بالتجارة الداخلية وأما المدن التجارية للسواحل الايطالية والمسيطرة على التجارة البحرية مع الشرق فإنها أعانت تلك الجيوش الصليبية بغرض الربح المادي و تنافست فيما بينها لكسبه فقط وبمعاهدات مقابل امتيازات خاصة في الموانئ التي يستولون عليها ووصل الأمر إلى المنازعات المادية والخصومات التجارية بينهم فلم تجد معها نفعا صيحات العقلاء .

الباعث الاجتماعي : يكاد المجتمع الاوروبي المسيحي برمته يتوزع على غالبية من الفلاحين وعموم الفقراء المعدمين من جهة وطبقتين من الحكام المحليين هم النبلاء الاقطاعيون ورجال الدين من جهة اخرى ، فجل الفلاحين إن لم نقل كلهم قبعوا في أكواخهم وقنعوا بأن يملكهم هذا الاقطاعي أو ذاك بحسب انتقال ملكية الأرض رغم أن مالكهم يسخرهم في الأشغال الشاقة المتنوعة كما يلزمهم بأنواع الضرائب ولذا ارتأى أكثر البائسين المشاركة في الحملات الصليبية أنى كانت وجهتها ومهما آلت اليه مخاطرها اذ اعتبروها طوق النجاة من بؤسهم ولو آلت أمورهم إلى الهلاك أو الهوان فذلك أفضل حتما مما هم فيه من شقاء .

الباعث السياسي : لقد شارك بعض الملوك الكبار من الأوروبيين في الحملات الصليبية لكنهم في الغالب كانوا يسكتون الحاح البابوات عليهم وابعاد شبح التلويح بالحرمان ، مع استثناء الفرنسي لويس التاسع الملقب بالقديس فإنه شارك مرارا بدافع من تدينه وفي مقابله نلاحظ الحرمان البابوي الذي تعرض فريدريك الثاني حتى

اضطره لقيادة حملة صليبية شكلية صرح فيها لأعدائه المسلمين بأنه مكره لا بطل... هذا بالنسبة للملوك، أما القادة الصغار و الأمراء فأغلبهم من الذين همشهم النظام الإقطاعي الذي يفرض انتقال ملكية الإقطاع كاملا إلى الإبن الأكبر لصاحبه المتوفي فيؤول أمر الورثة الباقين إلى أن يصبحوا أمراء بدون إقطاعيات وتكثر بينهم المؤامرات وتتعقد العلاقات، فإذا بالحملات الصليبية تفتح آمالا عريضة لأمثال هؤلاء خصوصا اذا علمنا أن كثيرا من أبناء الإقطاعيين تحولوا إلى الفروسية و الحروب الداخلية عوض القبول بالأمر الواقع أو القناعة بالبطالة و العطالة أو الاكتفاء بألقاب الإمارة الشرفية التي لاتقابلها ملكيات محددة ...[214]

• اوضاع المشرق الاسلامي قبل الحركة الصليبية

بزغ ق 10م بسطوع نجم خلافة شيعية بالشمال الافريقي (الفاطمية) بين خلافتين سنيتين الأموية بأقصى المغرب الاسلامي (الأندلس) و العباسية بالمشرق الاسلامي كله ، ثم شهد منتصفه انشغال خلافة الأندلس بتكالب نصارى الشمال عليها و انشغال العباسيين بانفصال الأقاليم المشرقية عنهم و تسلل الشيعة فيها مما سهل على الفاطميين توسيع نفوذهم السياسي على النصف المشرقي القريب منهم وانتشار دعوتهم في النصف المشرقي البعيد إلى درجة أن حكام بني بويه الفرس في ايران قد استولوا على بغداد عاصمة السنة رغم كونهم شيعة زيدية لكنهم لم يلغوا الخلافة فيها مراعاة لمصالحهم و مذهبهم ، وهكذا انتهى ق 10م بسيطرة شيعية مختلفة الأشكال على جل العالم الإسلامي ... هذا و قد بزغ ق11م يحمل في طياته بذور التحول الجذري حيث سيطر الغزنويون على خراسان و هم اتراك سنيون و انشغلوا بأفغانستان ثم ركزوا على السند تاركين الباب مفتوحا لقبائل تركية أسلمت و تدفقت على بلاد ما وراء النهر (خوارزم) واخترقت باسم الغزنويين ايران تحت قيادة اسرة آل سلجوق ، وفي منتصف القرن كان زعيم السلاجقة طغرل بك قد أعلن استقلاله عن الغزنويين المشغولين بالهند فاستجاب لاستغاثة الخليفة السني ببغداد كي ينقذه من الحكم البويهي الشيعي ، وهكذا اندفع الأتراك بعد القضاء على البويهيين ودخول العراق نحو استعادة الشام إلى الحظيرة السنية من القبضة الفاطمية بينما اندفع مغامرون كثيرون بقبائلهم التركية نحو أرمينيا و الحدود البيزنطية يستولون على الأقاليم اثناء فترة ركود كانت تمر بها القسطنطينية عاصمة البيزنطيين. ولم يمض عقد أو عقدان على انتصاف ذلكم القرن وما حصل فيه من تحول جذري بالمنطقة حتى كانت مدن الأناضول تتهاوى الواحدة تلو الأخرى بأيدي السلاجقة الأتراك يقودهم ألب أرسلان مما اصطر الإمبراطور الجديد في بيزنطة (رومانوس الرابع) إلى أن يقود الجيوش بنفسه لايقاف هذا الزحف دون جدوى رغم بعض النجاحات الصغيرة التي صادفها لكن أمواج السلاجقة كانت

[214] - د. سعيد عبد الفتاح عاشور : تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ، دار النهضة العربية 1976 ط1 بيروت ص 11 – 33

تتفادى الاصطدام به وتواصل عملها الدؤوب ثم كان لابد من الاصطدام النهائي الذي حدث في صيف سنة 1071 م فانهزم مائة ألف بيزنطي ووقع الامبراطور شخصيا في الأسر قرب (منزكرت= ملاذكرد) ورغم اطلاق سراحه إلا أن امبراطورا آخر حل محله قام بقتله بينما التفت ألب أرسلان إلى أقصى المشرق حيث توفي هناك فخلفه ابنه ملكشاه مدة 20 عاما، واذا بسلطان السلاجقة يمتد من حدود الصين إلى بحر ايجه قرب القسطنطينية وكان المشرف على عملية التوسع في الأناضول قريبه سليمان بن قتلمش ، بينما كلف ملكشاه أخاه تتش باخضاع الشام ، وهنا تبدأفي الوضوح ملامح أوضاع المنطقة عشية بدأ الحروب الصليبية .

ومن التداعيات المتسارعة لموقعة منزكرت = ملاذكرد أن بعض ولاة آسيا الصغرى رفعوا راية العصيان ضد الامبراطور الجديد في القسطنطية بل اعتبر بعضهم نفسه امبراطورا ودعمهم سلاجقة الروم الذين يقودهم سليمان بن قتلمش مقابل تنازلهم له عن بعض المدن فلما فشلت محاولاتهم وقضي عليهم أصبحت تلك المدن من نصيب سليمان ، بل وصل الأمر بالأمبراطورية إلى أن استعانت بالمغامرين النورمان الذين أزعجوها في حدودها الغربية لينقذوا حدودها الشرقية يقودهم رسل بليل الذي نجح في استعادة أنقرة ثم أعلن انفصاله عن الامبراطورية بل أسر عم الإمبراطور ليجعل منه امبراطورا منافسا اثناء الزحف على العاصمة مما حدا بالإمبراطورية إلى الاستنجاد بالسلاجقة والقضاء على هؤلاء المرتزقة... وهطذا وصلت حدود سليمان إلى السواحل القريبة من القسطنطينية فأنشأ هناك أسطولا لتهديدها وجعل عاصمته (قونية) ثم (نيقية) ليؤكد ثبات حدوده في أبعد نقطة يستولي عليها، مع أنه خلف وراءه مدنا كبيرة توالي بيزنطة مثل (أنطاكيه) في الساحل الأعلى لسوريا وكذلك (الرها) في الفرات الأعلى ... وهذه المناطق لم تجد بدا من الخضوع لحكام من الأرمن المسيحيين مثل فيلارتوس الذي صمد وسط هذه التقلبات في قليقية وملطية وسائر مدن جبال طوروس ... وقد تمكن سليمان من انتزاع مدينة (أنطاكيه) منه عام 1085م بينما اضطر حاكم الرها ثورس الأرمني إلى التظاهر بالخضوع للقائد السلجوقي تتش، وكذلك فعل جبريل الأرمني حاكم ملطيه... بينما أسس مغامر تركي وسط الأناضول قرب أرمينيا إمارة مستقلة سنة 1063م ويدعى الغازي أحمد الدانشمند وخلفه عليها ابنه كمشتكين متظاهرين بالولاء لملكشاه، واذا كان تتش قد سيطر نهائيا على الشام و فلسطين فإن اصطدامه بسليمان كان حتميا اذ انهزم هذا الأخير بسبب (أنطاكيه) وقتل قرب حلب 1086م وخلفه ابنه (قلج أرسلان) وكان صغيرا ، أما القائد تتش فقد عكر عليه انتصاره أن أهل حلب رفضوا تسليم أنفسهم إلا لأخيه السلطان ملكشاه الذي جاءهم من فارس و جعل حاجبه (أقسنقر) حاكما عليهم كما وزع (أنطاكيه) و(الرها) على قائديه(ياغي سيان) و(بوزان) ووصل الأمر بملكشاه أن يزوج ابنته للخليفة العباسي حتى يجعل حفيده منها خليفة بعده لكن مقتل وزيره القديم

والقدير (نظام الملك) على يد عملاء الفاطميين بالشام وفارس وهم الحشاشون ثم وفاة ملكشاه نفسه سنة 1092م أوقف مشروع السلاجقة في أقصى مداه حيث تغلب ابنه (بركيارق) على سائر اخوته في الأقاليم بصعوبة لكن مطالبة عمه تتش بالسلطنة أرهقته فقد زحف هذا العم بقادة الشام على العراق و فارس لولا تخلي القائدين (أقسنقر) و(بوزان) عنه لصالح بركيارق فتراجع تتش بينما اكتفى بركيارق بمطاردته إلى بغداد فقط و أرسل وراءه مع القائدين السابقين قائدا جديدا هو (كربوغا) لكنهم انهزموا أمام تتش قرب حلب فقتل القائدين و أسر كربوغا ، ثم انطلق تتش ثانية نحو العراق و فارس مجددا مطالبته بالسلطنة فكان لابد من المعركة الحاسمة قرب الري وانهزم فيها تتش بتخلي قادته عنه فقتل هناك واستعاد بركيارق حكمه للعراق أما الشام فتركه كعادته لقادته تاركا حلب لأبناء تتش مقابل اطلاقهم سراح كربوغا الذي أصبح حاكما على الموصل بينما حكم رضوان بن تتش حلب و هرب منه أخوه دقاق إلى دمشق و انفصل بها عنه في الوقت الذي تخلى فيه حاكم أنطاكية (ياغي سيان) عن رضوان وانضم إلى أخيه في صراعهما ،بينما بقيت المدن الساحلية في لبنان و فلسطين مستقلة بنفسها مع تبعية غير مباشرة للسلطة الفاطمية السابقة ، وبقيت القدس في يد القائد(ارتق) ثم ابنيه (سقمان)و(ايلغازي) اللذين انقض عليهما الفاطميون عندما ظهرت في الأفق الحملة الصليبية الأولى.[215]

• البدايات الأولى للحرب الصليبية

بعيد موقعة منزكرت 1071م استنجد ميخائيل 4 امبراطور بيزنطة بالبابا غريغوري 7(المتوفي في 1085) مقابل اعادة النظر في الخلاف القديم بين الكنيستين فوعده البابا بالاستجابة لكنه كان مشغولا بالصراع الخفي بين روما و سلطة الامبراطورية الرومانية المقدسة الذي تفاقم مع هنري 4 سنة 1076 وما هي إلا سنوات قليلة حتى كان على رأس بيزنطة امبراطور ذكي هو : ألكسوس كومنين وفي المقابل تربع على رأس البابوية أوربان 2 الأذكى فتراسلا في الموضوع عام 1090م بحيث أبدى الامبراطور تسامحا مع الكاثوليك وكنائسهم عنده و أعلن تودده للبابا ... وفي مطلع 1095 انعقد في بياكنزا شمال ايطاليا مجمع ديني حضره مبعوث القسطنطينية ليعيد على البابا وممثلي كنائسه في الغرب النداء البيزنطي ضد السلاجقة فتجاوب معه الحاضرون ثم انطلق البابا أوبان 2 إلى فرنسا حيث سينعقد مجمع أخر في كليرمونت ضد الملك الفرنسي فيليب وخطب هناك خطبته الشهيرة بترك المشاحنات وتوجيه الجميع من القادرين والفقراء نحو استعادت القدس فصاح الكل (تلك مشيئة الرب=) وطلب الأسقف أدهمار أن يكون ممثلا باباويا في هذا المشروع فقبل أوربان معلنا أن المشاركة تعني بالضرورة

[215] - د. سعيد عاشور ... ص 34 -76

غفران الذنوب و أمر بحمل الصليب كشعار رسمي ، وقد بادر أكبر أمراء فرنسا و هو ريموند أمير تولوز و بروفانس لتنفيذ المشروع باعتباره قد سبق له الحج إلى القدس و سبقت له محاربة المسلمين شمال الأندلس...

وهكذا انتهى 1095م وبدأ1096 بمساعي البابا في أرجاء المدن الفرنسية و معه ريموند الذي نبهه لضرورة دعم القوة البحرية حيث بادرت مدينة جنوة للاستجابة فحققت سبقا لم تستطع المدن المماثلة منافستها عليه ... وهكذا جلب البابا إليه جموعا غفيرة من المتطوعين الفرديين و النظاميين قبل رجوعه إلى روما نهاية العام و لعل بطرس الناسك يعتبر من الأوائل الذين قادوا المتحمسين من الفقراء حوالي خمسة عشر ألفا فانتقل بهم من وسط أوروبا إلى البلقان ونهبوا ما يلقونه في طريقهم من المدن و القرى وكذلك فعل والتر المفلس في هنغاريا (المجر) فبيزنطة التي تحملت مجيئهم الفوضوي و استقبلهم امبراطورها عند أسوار عاصمته في نهاية الصيف 1096 ونصحهم بانتظار الجيوش النظامية ثم تراجع عن نصيحته خوفا على العاصمة فتطوع بنقلهم إلى الجانب الأسيوي من البوسفور ورغم تكراره النصح لهم بالإنتظار إلا أنهم قرروا الزحف على نيقية و انتصروا في مناوشاتهم الأولى مع السلاجقة ولكن قلج أرسلان أباد أكثر من عشرين ألفا ولم ينج سوى ثلاثة آلاف احتموا بالحدود البيزنطية في خريف 1096م ... هذا وقد تبددت حملات أخرى فوضوية كانت في طريقها إليهم بقيادة فولكمار و جوشوك و اميخ .. راحت تستفز من يلاقيها من مخالفي الكاثوليكية كالأرثوذكس بل حتى اليهود .

وفي ذلك الخريف أيضا انطلقت في المقابل حملة نظامية من الحدود الألمانية – الفرنسية بقيادة الأمير (جودوفري دو بوايون) و أخيه (بلدوين) ومن نهر اللورين إلى نهر الدانوب عبر الجنود في انضباط كامل الأراضي الجرمانية و الهنغارية و البيزنطية حيث استقبلتهم رسل كومنين بالامدادات حسب درجة الانضباط ، وكذلك الحال عند توقفهم أمام العاصمة ،وتردد جودوفري في الالتقاء بالامبراطور خوفا على نفسه و خشية الحرج من اظهار الطاعة له و لما قطعت عنه الامدادات و ظهر الجيش البيزنطي له اضطر للتفاوض رافضا بلباقة أن يكون تابعا له لكنه تعهد عند استعادة الأراضي التي كانت بيزنطية بارجاعها له ، فأسرع كومنين بامداده بكل ما يحتاجه الجيش للعبور في أفريل 1097م نحو الضفة المقابلة لأن حملة أخرى كانت قد اقتربت يومها من عاصمته و لاينبغي أن يلتقي الجميع عنده.

ذلك أن أحد أمراء النورمان جنوب ايطاليا وهو (بوهيمند) الذي سبق له تهديد البيزنطيين سمع بتحرك حملة نظامية فترك المنافسات الايطالية وراءه و انطلق بجيوش منظمة و معه (تنكرد) إبن أخته لينزل الساحل البلقاني المقابلو يخترق الأراضي البيزنطية و قد قابل اساءة استقباله بانضباط شديد أزاح مخاوف الامبراطور منه ولما دعاه للتفاوض أمام العاصمة فبل دون تردد نهاية أفريل 1097 و لما طلب منه أن يقسم يمين الولاء له قبل أيضا فلما

طلب بوهيمند أن تكون له أنطاكيه أقطعه الامبراطور كل ما حولها فلما طلب قيادة كل الجيوش ربطها الامبراطور بمدى ما سيظهر من ولائه له ، أما الأمير الآخر (تنكرد) مثله مثل أخ جودوفري (بلدوين) فكان يظهر الرفض القاطع لكل ما وافق عليه خاله . وهكذا نقل البيزنطيون جنودالحملة إلى حيث ينتظر سابقوه في الضفة الأخرى لأن حملة جديدة ظهرت في الأفق .

فقد كان أمير تولوز و بروفانس (ريموند 4) أول من أعلن الاستجابة لنداء البابا الذي جعل معه الأسقف أدهمار مندوبا بابويا للمشروع الصليبي برمته فانطلق من شمال ايطاليا مخترقا البلقان ليلحق سابقيه إلى القسطنطينية فوجد الامبراطور في انتظاره ليفاوضه على مدى طاعته له و هو ما رفضه ريموند بشكل قاطع حتى ولو وصل الأمر إلى التقاتل بينما حاول القائد جودوفري و الأسقف أدهمار تهدئة الطرفين بينما أظهر بوهيمند مساندته للامبراطور ، ثم كان الحل الوسط أن يقسم القائد الجديد على احترام الامبراطور وألا يسيء جيشه للامبراطورية...

ولما انتقلت الجيوش إلى الضفة المقابلة وصلت حملة فرنسية أخرى بقيادة (روبرت) ابن (وليام الفاتح) النورماندي وقد أنزلته السفن الايطالية إلى الساحل البلقاني في أفريل 1097 مخترقا بسرعة نحو القسطنطينية دون مشاكل ، ولقي الامبراطور و أقسم له بما يريد وانتقل إلى زملاءه بجهة البسفور المقابلة حيث بدأ الجميع في محاصرة مدينة نيقية وهي العاصمة المتقدمة لسلاجقة الروم.[216]

• الحملة الصليبية الأولى

في بداية ماي 1097م حوصرت نيقية من قبل الجيوش الصليبية و كان حاكمها قلج أرسلان بعيدا عنها لانشغاله بالتنافس مع الدانشمند وكانت محاولاته يائسة لتداركها ، وفي نهاية جوان قررت المدينة الاستسلام للبيزنطيين فقط مم أغضب الصليبيين ، وهؤلاء تغاضوا عن ذلك لأنهم اصطدموا باتحاد سلجوقي دانشمندي في (دورولیوم) أول جويلية حيث جازف بوهيمند ليفوز وحده بالنصر فوجد نفسه مضطرا للاستنجاد بالباقين فانتصر الصليبيون انتصارا مدويا وواصلوا اختراقهم لآسيا الصغرى لكن السلاجقة أفسدوا الطرق و الأراضي والمدن أثناء انسحابهم فقد دخل الزاحفون (قونية) و (هرقلة) بسهولة ثم صعدوا نحو (قيصرية) لانقاذ حاكمها الأرمني من الحصار الدانشمندي في سبتمبر ثم (مرعش) في أكتوبر ... وقبل ذلك كان الأميران تنكرد (ابن أخت بوهيمند) وبولدوين (أخو جودفري) قد اتجها جنوبا نحو الساحل للاستيلاء على مدن (قليقية) و(طرسوس) و(أذنه)و (المصيصة) .... وترددا في تسليمها للبيزنطيين لولا تنازعهما على امتلاكها ثم التقيا بالجيوش الصليبية عند (مرعش) فانفصل بولدوين عنهم ثانية إلى مدينة (الرها) التي كان يحكمها (ثوروس)

[216] - د. سعيد عاشور ... ص 82 – 113.

الأرمني و هذا الأخير كان شيخا لاوريث له وكثير التخوف من الأتراك حوله ، ولما رفض بولدوين أن يكون مرتزقا عنده عينه وريثا على العرش فأظهر بولدوين عندئذ شجاعة ضد الأتراك في المدن المجاورة مما أعجب الأرمن الذين ثاروا على حاكم الرها وقتلوه فأصبح بولدوين حاكما شرعيا معلنا قيام أول إمارة صليبية في مارس 1098 و بعث إلى إخوانه الذين كانوا يحاصرون أنطاكيه يبشرهم و يثبتهم ويساعدهم ...

هذا وقد كانت الجيوش الرئيسية أواخر 1097 تتدفق حول أنطاكية التي حصن (ياغي سيان) دفاعاتها بينما كان البيزنطيون خلف الصليبيين يدعمونهم ويرشدونهم ليتسلموا منهم المناطق ... وقد كان التنافس جليا بين بوهيمند و ريموند على التظاهر بالقيادة العامة وبدرجة أقل :جودوفري و روبرت ثم سائر الأمراء ، فلما طال الحصار تظاهر بوهيمند بأنه سينسحب مما افزع الباقين فتوسلوا له ليبقى ووعدوه بأنطاكية وهنا لم يبق أمامه سوى المندوب البيزنطي الذي كان يتأهب كعادته لاستلام المدن ، فراح بوهيمند يستفزه ويوحي للقادة بأنه يتآمر مع المسلمين (السلاجقة والفاطميين) ضدهم فأسرع المندوب للانسحاب وانقطعت الامدادات البيزنطية و ازدادت الاتهامات ضد الامبراطور. وفي هذه الأثناء فشلت حملة (دقاق) حاكم دمشق و حلفائه للاستجابة لحليفهم ياغي سيان نهاية العام وكذلك انهزمت الحملة المتأخرة التي بعث بها (رضوان) حاكم حلب وحلفاؤه بداية العام الموالي 1098 أما حملة (كربوغا) حاكم الموصل فوصلت متأخرة بعد فوات الأوان لاضاعتها الوقت في محاصرتها للرها دونما طائل ، وقد تمكن بوهيمند من اقتحام انطاكية من برج محدد وقعت فيه خيانة أرمينية متفق عليها معه ووقعة المذبحة الرهيبة في المسلمين بها واستشهد حاكمها بداية جوان ، وبعد أيام قليلة فقط وصلت حملت كربوغا وانضمت له مدن الشام فأحكموا حصارهم على الصليبيين بأنطاكية ثلاثة أسابيع وأنهكوهم بالتجويع و زادهم الوباء انهاكا ولما مرض ريموند انفرد بوهيمند بالقيادة العامة كلها لكن قيادة كربوغا كانت متفككة فما إن خرج اليهم الصليبيون آخر جوان وبدأالقتال حتى حلت الهزيمة بالمسلمين مرة أخرى وأسرع قادتهم بالجيوش إلى مدنهم للاختباء فيها .

وقد بقي الصليبيون في أنطاكيه إلى أن انتهى العام لعدة أسباب :

– محاولات التغلب على الأوبئة والأمراض الناتجة عن كثرة الجثث وتأخر دفنها ، ولعل أبرز من فتك بهم الوباء الممثل البابوي (أدهمار)

– انتظار ما تسفر عنه المراسلات بين القادة والامبراطور البيزنطي للتملص من تسليمها له .

– تنافس القادة حول الأحقية بالمدينة والأحقية بالقيادة العامة فأسفر تنافسهم على جعل أنطاكيه لبوهيمند وقيادة الجيوش لريموند

– الخروج إلى ما حول أنطاكية لاستعراض القوة وقتل المسلمين واخضاع من بقي منهم .

وهكذا تحركت الجيوش – دون بوهيمند– ببطء مطلع 1099 ليتلقى ريموند باعتباره قائدا عاما تودد المدن التي في طريقه كشيزر وحاكمها ابن منقذ وطرابلس وحاكمها ابن عمار... لكن تركيز ريموند على الساحل اللبناني و توقفه لحصار بعض المدن دون جدوى جعل (جودفري) و الآخرين يفرضون عليه رأيا آخر وهو التوجه مباشرة بعيدا عن الساحل نحو الهدف النهائي وهو القدس . وخلال تلك الفترة لم يهضم الفاطميون التطورات المتسارعة فراسلوا البيزنطيين ثم قادة الصليبيين بغية التوصل إلى اتفاق لاقتسام الشام وتوقيف الزحف ... فلم يجدوا آذانا صاغية ، وهكذا تكاملت الجيوش حول مدينة القدس خلال الأسبوع الأول من جوان بينما أحكم الوالي الفاطمي تحصيناتها ، وفي المقابل استولت السفن الجنوية على مدينة (يافا) الساحلية ليتدفق منها الامداد و التموين و المتطوعة الجدد على الحملة الصليبية المنتشية برؤية المدينة المقدسة ، وأقيمت الأبراج الخشبية أثناء الحصار حتى اقتحمت الأسوار في منتصف جويلية 1099 م =شعبان492 هـ وكانت المذبحة في انتظار سكانها جميعا من المسلمين حتى النساء و الأطفال و الشيوخ بل و حتى اليهود ، ولم ينج منها سوى نصارى الشرق و كذلك نجا الوالي الفاطمي و جنوده لما أعطاهم ريموند الأمان حتى التحقوا بمصر ... وقد اتفقت المصادر على اختلافها أن عدد القتلى قارب السبعين ألفا ، ووصلت البشائر إلى روما أثناء تشييعها لجنازة البابا أوربان 2 صاحب الفكرة و المشروع في ظاهرة الحرب الصليبية. [217]

[217] - د. سعيد عاشور ص 114 – 197.

مسرح الحروب الصليبية في قلب المشرق

المحاضرة السادسة :

الخلافة العباسية في عهدها الأخير ببغداد

656-590هـ

شهد القرن الذي سبق سقوط عاصمة الخلافة (بغداد) محاولات من الناصر لدين الله الخليفة العباسي ووالده (المستضيء) وجده (المستنجد) لاستعادة مجد الخلافة ، مستغلين تركيز الأيوبيين على إلغاء الخلافة الفاطمية بمصر وعلى تقليص النفوط الصليبي في السواحل الشامية، كما استغل الناصر أفول نجم سلاجقة فارس وتراخي قبضتهم عليه،خصوصا وأن خوارزم شاه أراد أن يحل محلهم لكن الخليفة الناصر قاومه... وفي هذا الخضم ، وفي مكان بعيد جدا ، في شمال الشرق الأقصى الصيني، وبالضبط في سهوب منغوليا الوثنية، وتحديدا في السنوات القليلة التي سبقت وأعقبت رأس القرن7هـ/13م بزغ نجم اسم (تيموجين بن يسوكاي بنبرطام بهادر) في مغامرةناجحة لتوحيد البدو المغول والتتار تحت راية تحالفه القبلي ليتحصل على لقب جنكيز خان(بمعنى الحاكم المطلق) وذلك سنة 602هـ 1206م ، وأمضى عشر سنين في القضاء على امبراطورية الصين الشمالية، ليلتفت بعدها إلى الغرب لإخضاع دولة القره خطاي المجاورة التي تفصل بينه وبين المسلمين،وبعد ذلك حاولتنظيم العلاقة مع سلطان خوارزم وتنشيط تجارة المسلمين معه، ولكن السلطان محمدا(خوارزم شاه) المنشغل بمحاولته الفاشلة لإخضاع خليفة بغداد،استخف بالسفراء بل قتل أحدهم ونكب تجار المغول في حدود بلاده عام 615هـ 1218م لتنساح مع نهاية العام جيوش مغولية كبيرة جدا، ويقودهاجنكيز خان بنفسه والذي راح يمعن التقتيل والتدمير في المدن التي تحاول عرقلة إعصاره مثل سمرقند وبخارى ...وكل إقليم خراسان وكامل بلاد الأفغان...وبعث جيوشا لبلاد السند (بوابة الهند) تطاردبقايا الخوارزمية بل إن جيوشا أخرىتجاوزت شمالي إيران(فارس) إلى أذربيجان وجبال القوقاز...حتى وصلت مدينة كييف الأوكرانية عام620هـ 1223م ،بينما عاد جنكيز خان إلى عاصمته (قره قورم) بمنغوليا ليعيد تثبيت ملكه بالشمال الصيني في بضع سنين ليموت في رمضان 624هـ آخر صيف 1227م وبعد عام ونصف من مشاورات مجلس (القوريلتاي) عين ابنه (أوقطاي) خلفا له فدام حكمه أكثر من عشر سنين قضاها في استكمال ضم بقية الصين الشمالية لسلطانه وتم ذلك بإشرافه سنة631هـ 1234م ، أما جيوشه التي أرسلها إلى جنوب بحر قزوين فقد تسنى لها إجهاض آخر محاولة لأحد أبناء خوارزم شاه(واسمه جلال الدين منكبرتي) لاستعادة ملك أبيهم، ثم تقدمت هذه الجيوش إلى أذربيجان فأرمينيا تنشر الرعب وتهدد خلافة

بغداد في العراق، والأيوبيين في شمال الشام وكذا سلاجقة الروم...وفي الوقت نفسه كانت جيوش أخرى تسيطر على الأتراك الشماليين وهم القبجاق وكانوا وثنيين ثم عرفوا بالقطيع الذهبي وهؤلاء انضموا لقيادة (باطو) حفيد جنكيز خان في زحفه السريع على المدن الروسية والأوكرانية بل والمجرية يدمرون ما صادفهم من المدن بين موسكو وبودابست ...وآخرها في نهاية رمضان من سنة638هـ بداية أفريل 1241م ،ومع نهاية العام توفي أوقطاي ليتم اختيار ابنه الأكبر (كيوك) بعد سنوات من التجاذب ولكنه لم يحكم سوى سنوات قليلة ولم يقم إلا بترتيب البيت من الداخل مع محاولات فاشلة من الأوروبيين للتنسيق معه ضد المسلمين (كالبابوية والفرنجة) ...وبعد وفاته انتخب (منكو بن تولوي بن جنكيز) والذي أقر باستقلالية عمه (باطو) قائدا للقبجاق أي القبيلة الذهبية وما سيملكه من أوروبا، كما عين (هولاكو) على بلاد فارس ليقضي على قلاع الاسماعيلية الحشاشين جنوب قزوين وعلى الخلافة العباسية بالعراق وما سيفتحه من الشام ومصر وغيرهما...

وفعلا انطلقت جيوش هولاكو تدك قلاع الحشاشين شمالي إيران ثم التفت إلى شمالي العراق،و هناك راسل الخليفة المستعصم مطالبا إياه بالخضوع له، لكن المستعصم تردد بين رأي وزيره الشيعي (العلقمي) لما حثه على المسارعة للخضوع، وبين رأي وزيره السني (الدوادار) لما حثه على المقاومة، وقد حاول المقاومة فعلا ولكن دون جدوى ،إذ حوصرت العاصمة بغداد حصارا شنيعا وفظيعا وضيق عليها الخناق تضييقا مريعا ،فرضخ الخليفة لرأي العلقمي الذي كان يتوسط بين الطرفين، لكن هولاكو لم يقبل إلا بحضور المستعصم شخصيا لديه فخرج إليه ووقف بين يديه فأمره بإخراج قادته وحاشيته وجنده ،فلما أخرجوا أمر هولاكو بقتل الجميع بمن فيهم الخليفة ثم أمر بنهب بغداد وقتل سكانها فقام التتار بتنفيذ الأمر خلال عدة أسابيع بين محرم وصفر 656هـ أي بين فيفري ومارس1258م.[218]

• الدولة الغورية

قبائل الغور هي شعب جبلي في وسط بلاد الأفغان وكان أبناء زعيمهم عز الدين حسن قد صاهروا السلطان الغزنوي بهرام ،فلما قتل هذا الأخير أحدهم وهو قطب الدين محمد ثاروا عليه واقتحموا غزنة العاصمة ولما استعادها بهرام قتل من وجده بها منهم وهوسيف الدين سوزي ، فقام ثالث الإخوة وهو علاء الدين حسين بتخريب تلك العاصمة منتصف القرن 6هـ وتلقب بالسلطان الأعظم وولى ابني أخيه الرابع بهاء الدين سام وهما المحمدان غياث

[218] - د. حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ... دار احياء التراث العربي 1964 بيروت ط7 ج4 ص130 – 162

الدين وشهاب الدين على الولايات فاشتهرا بالعدل ورفضا أن يعزلهما عمهما بل إنهما هزماه ثم تركاه سلطانا حتى توفي سنة556هـ فخلفه ابنه سيف الدين محمد الذي قتل أثناء صده للأتراك ،فاضطر أحد الأخوين وهو غياث الدين لتولي السلطنة واستعاد غزنة من الأتراك الغز وتوسع نحو السند وكرمان ...وهو الذي أمر بقتل آخرالملوك الغزنويين خسروشاه سنة 582 فأصبح يحكم بلاد الأفغان وجنوب فارس ،بينما حكم أخوه شهاب الدين السند وشمال الهند من العاصمة الثانية لاهور تابعا لأخيه ، وقد تعاونت جيوش هذين الأخوين في مقارعة حصون الباطنية بفارس، وفي مصارعة الخوارزميين على خراسان ، ومع انتهاء ق6هـ واصل شهاب الدين الحرب على الخوارزمية لكن هؤلاء سلطوا عليه حلفاءهم الجدد الخطا الوثنيين فهزموه مرتين ، وكان في كل مرة يستعيد قوته بانتصاراته في الهند على من يتمرد عليه هناك ،ولما اغتاله بعض الهنود سارع القادة إلى العاصمة الأصلية غزنة لدفنه بها ، وإذ لم يكن له ولد فإنه تنافس على الحكم محمود ابن أخيه غياث الدين مع أولاد ابن عمه وهم في نفس الوقت أبناء أخته وكانوا أمراء في باميان وسط بلاد الأفغان ، وأثناء هذا التنافس تمرد عليه أحد أكبر قادته وهو من مماليكه ويدعى الدز ، كما تدخل الخوارزمية لمساعدة هذا الطرف أو ذاك حتى تم لهم القضاء على الدولة الغوريةنهائيا سنة612هـ .[219]

- **الدولة الخوارزمية**

كانت بداية ظهور أسرة خوارزمشاه إلى عام 470هـ حين كافأ السلطان السلجوقي أحد قادته الأتراك المقربين ويدعى أنوشتكين ليكون واليا شبه مستقل على مدن خوارزم ،وبعد عشرين سنة ثبت الملك لهذه الأسرة لما خلف الابن أباه بعد موته فقد لقب السلطان بركياروق الابن قطب الدين محمد بن أنوشتكين بخوارزمشاه وبعد ثلاثين سنة خلفه هو أيضا ابنه أتسز ثلاثين سنة أخرى قضى شطرها الأول في انسجام مع السلاجقة لكنه تمرد عليهم سنة 536 فقضى الشطر من حكمه في صراع مع سنجر لما كان واليا على خراسان وكذا لما أصبح سلطانا ...

هذا، ولما تصالحا توفيا في وقت متقارب جدا منتصف ق6هـ فحافظ ابنه إيل أرسلان على المملكة التي ورثها مستقلة لما يقارب عشرين سنة وكذلك فعل ابنه علاء الدين تكش مايقارب الثلاثين عاما إلى أن اقتربت نهاية ق6هـ ،ونشير هنا إلى أن تكش هو الذي قضى نهائيا على سلطان السلاجقة بالمشرق وبغداد.

ولعل أشهر وأظهر سلاطين هذه الدولة هو خوارزمشاه علاء الدين محمد بن تكش ،فقد حكم حوالي عشرين عاما مطلع ق7هـ ،كان في بدايتها محالفا لسلطان سمرقند ضد الوثنيين الشماليين الخطا فانهزم أمامهم بل وأسر ثم تخلص

[219] - د. حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ... 4 ص 163 – 177 .

من الأسر واستعاد سلطانه بسرعة وذكاء وحيوية ونشاط انطلاقا من خراسان ليضم لملكه أقاليم الدولة الغورية بعد إلغائها سنة 612هـ كما قضى على سلطان سمرقند بل قتل أهلها ...ثم التفت غربا إلى العراق مطالبا الخليفة العباسي الناصر لدين الله بالخضوع له كما كان الحال مع السلاجقة فأبى عليه ذلك ،فراحيلوح باعتناق المذهب الشيعي ويهددبتنصيب خليفة علوي لولا ظهور الخطر المغولي الوثني من الخلف .

ففي شمال البلاد الصينية كانت قد اتحدت القبائل المغولية البدوية تحت سلطة حاكم قوي اسمه جنكيز خان الصين انتصر على امبراطورية الصين واستفاد من خيراتها وخبراتها لتطوير امبراطوريته الوحشية الخاصة والتفت نحو الغرب إلى خوارزمشاه الذي ناصبه العداء لقتله بعض تجار التتار وبعض سفرائه إليه ، فجيش له الجيوش بل قادها هو بنفسه ولم يتمكن خوارزمشاه محمد من صده فراحت عواصمه تتهدم ومدنه تنهار وراحت جيوشه تنهزم وتتراجع بل وتتشتت والعدو لايتوانى عن مطاردته حى توفي بسواحل قزوين شريدا فريدا طريدا، وهو يرى ملكه قد انفرط عقده بشكل متسارع سنة 617 هـ . أما أبناؤه الثلاثة فهربوافي كافة الاتجاهات إلا أن أحدهم وهو جلال الدين منكبرتي عاد من الهند ليجمع بقايا دولة أبيه وبعض الحلفاء ليواجه المغول مواجهة أخيرة انتهت بانهزامه سنة 628هـ ثم مقتله بين الأكراد أثناء الفرار، ليسدل الستارعلى القرون الأولى من دول الاسلام بالمشرق لتأتي مرحلة من الدول ولكن بعد المغول الوثنيين أي بعد انتهاء هذا القرن ق7هـ.[220]

[220] - د. حسن ابراهيم حسن المرجع نفسه 4 ص 94 - 104

مقتطفات من منظومة (الزهر المورق
في أخبار دول الاسلام بالمشرق)

لــــولا الأتابـــك مـــن آل زنكـــي ... نـــورُ العمـــادِ فـــي عـــداه مُنكـــي
بضـــمِّه دمشـــقَ ثـــم مصـــرا ... عـــلا ابـــنُ أيـــوبَ بمصـــر قـــدْرا
ألغـــى خلافـــةَ عبيـــدٍ فاســـدْ ... لمـــا بعاشـــوراءَ مـــات العاضـــدْ
فـــي الســـبع والســـتين والخمســـمائهْ ... فلـــم تعـــد للـــرفض شـــوكةٌ فئـــهْ

فصل في أمر الحشاشين والدولة الخوارزمية
بالمشرق والهجوم المغولي

إخـــوانهم بمشـــرق قـــد عُرِفـــوا ... بالقتـــل غـــدرا والحشـــيشَ أَلِفـــوا
متّبعـــين الحســـنَ الصـــبّاحا ... إذ كـــلَّ منكـــر لهـــم أباحـــا
وســـمِّهم إن شـــئتَ آل مَـــوْتِ ... بفـــارسٍ فـــي حصـــن آلَـــمُوت
مُلْـــك الســـلاجقة بالشـــرق انطفـــا ... لمَّـــا الخـــوارزميُّ ملْكُـــه طفـــا
محمـــدُ بْـــنُ تُكُـــشٍ هـــو العَـــلا ... ابـــن العَـــلا علـــى الخلافـــة عَـــلا
حفيـــد أُتْسُـــزَ ابـــن قطـــب الـــدينِ ... محمـــــدٍ نجـــــلِ أنوشـــــتكين
طغـــى علـــى الجيـــران بالتبـــاهي ... فـــي عهـــد ناصـــرٍ لـــدين الله
مغالبـــا لهـــم بأوثـــان (الخَطـــا) ... فكـــان ذاك منـــه أول الخَطـــا
وحـــث نحـــو حتفـــه كـــل الخُطـــى ... وذا الخلافـــة عليـــه أســـخطا
لـــم يَنْـــهَ نفســـه عـــن التكبـــر ... ولـــم يقـــل "يـــا نفـــس ويحـــك احـــذري
يـــامن صـــغرت بـــئس مـــن كبـــرت" ... ورّثهـــا الجـــلالَ منكبرتـــي
جـــاء همـــا جنكيـــزُ خـــان التتـــرِ ... ذو وثـــن لـــم يـــك بالمســـتتر
جيوشـــه يســـبقها الهـــلاك ... فـــي الشـــرق إذ أكملهـــا هولاكـــو
قـــد نهـــب البغـــداد والعراقـــا ... وأهـــرق الـــدِّما بهـــا إهراقـــا
وقَتَـــل الخليفـــةَ المستعصـــما ... إذ بالخيانـــة وزيـــرٌ وُصِـــمَا

أي ابـــــنُ علقمـــــيِّ والنصـــــيرُ فالرافضـــــيُّ للعـــــدا نصـــــير
وكـــل ذلـــك بنصـــف الســـابعْ شـــرقُ الفـــرات للمغـــول تـــابعْ

فصل في أحوال الدولتين الأيوبية والمملوكية

وإحياء الخلافة العباسية بالقاهرة

غـربُ الفـرات قـلْ بمصـرَ قـد ظهـرْ مَـنْ للفـرنج والمغـول قـد قهـر
فحـــرر القـــدسَ صـــلاحُ الـــدين أيـــوبُ بعـــد النصـــر فـــي (حطـــين)
ثـــم المماليـــك الـــذين اســـتُجْلِبُوا لآل أيـــوب إلـــى أن غلبـــوا
بالصّـــد للمغـــول والتتـــار فـــي (عـــين جـــالوت) فـــلا تمـــاري
وأعلنـــوا خلافـــة العبـــاس رايتهـــا باقيـــة فـــي النـــاس
ثـم انتهـى الأمـر إلـى الـذي غلـبْ ســلطانُ عثمــانٍ بــدابقٍ حلــب
ســليمُ تُــركٍ أخــذَ الأمصــارا واســم الخلافــة إليــه صــارا

أول خلفاء بني العباس بالقاهرة هو أحمد المستنصر الثاني (عم آخر خلفاء بغداد المستعصم ابن المستنصر) ثم خلفه من بعده أحمد الحاكم ابن الأمير حسن ابن الأمير علي ابن الأمير أبي بكر ابن الخليفة المسترشد ...

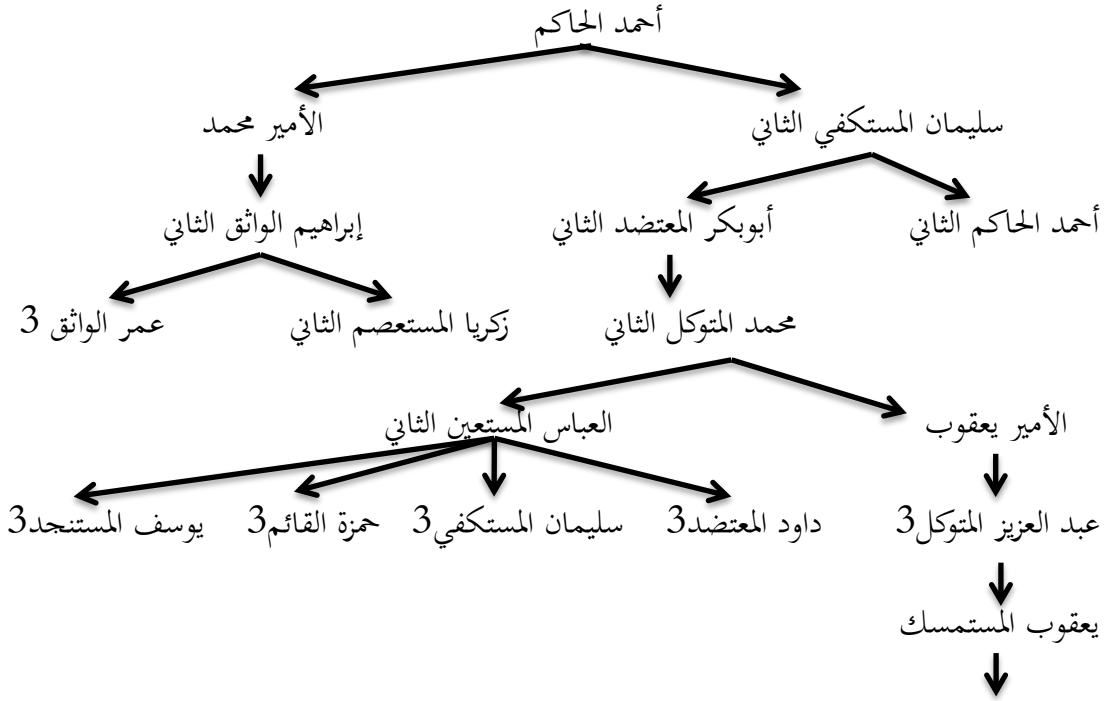

محمد المتوكل الرابع وهو الذي أخذه السلطان سليم العثماني إلى اسطنبول وأخذ منهظ شارات الخلافة.

خاتمة

بعد كل هذه المحاضرات في التاريخين الأموي والعباسي نصل إلى تلخيص أخبار هذه الدول الاسلامية من المنظومة الميئية لاختصار التواريخ الاسلامية والتي اوجزت فيها النظم كل المنظومات الخاصة بالأنبياء عليهم السلام والسيرة النبوية ودول الخلافة الراشدة والأموية والعباسية وسائر دول الاسلام... والمسماة بالألفية، وكنت قد اقتطفت منها للطلبة بعض أجزائها عقب تلك المحاضرات، وفي الختام نقتطف من مختصر الألفية والمسمى الميئية ملخصا شاملا للمقتطفات السابقة .

مقتطفات من المنظومة الميئية المختصرة للألفية

الأبيات المتعلقة بالخلافة الأموية

أمـــا الخلافـــة ومـــا فيهـــا جـــرى ... فأفضـــل الصـــحب همـــو مـــن هـــاجرا

فالراشـــــدون أفضـــــل الخلائـــــقْ ... مـــن بعـــد الأنبيـــا فهـــذا اللائـــق

صـــــديق والفـــــاروق ذو النـــــورين ... ثـــم علـــيٌّ والـــد الســـبطين

عليكمـــــو بســـــنتي والخلفـــــا ... الراشـــدين فاهتـــدوا بمـــن وفـــا

خلافـــةٌ فـــي شـــرعنا مستحســـنه ... بعـــد النبـــوَّة ثلاثـــون ســـنه

أمـــا التـــى بعـــد الجماعـــة فقـــل: ... مـــا بـــين رشْـــد و عَضـــود تنتقـــلْ

وعـــن خلافـــة غـــدتْ بـــالقهر ... نظمـــتُ مُلْكـــا دام ألـــف شـــهر

و عـــن ملـــوك بعضـــهم كالشـــمس ... نســـل أميـــةَ بـــن عبـــد شـــمس

هـــذا معاويـــة واليزيـــدُ ... بعـــد ابنـــه ســـميُّه الحفيـــد

ثـــم ابـــن عمهـــمُ مـــروان ملَـــكْ ... فـــي فتنـــة ثـــم ابنُـــه عبـــد الملِـــكْ

قـــد ورَّث الأبنـــاءَ ملْكـــا عظُمـــا ... أربعـــة فعقـــدهم قـــد نُظِمـــا

وليـــده ثـــم ســـليمان أمـــرْ ... يزيـــد فالهشـــام مـــن بعـــد عمـــرْ

أي ابـــن عـــمٍّ عمـــرُ العزيـــزِي ... واســـطة العقـــد لـــذي تمييـــزِ

وكـــان مـــروانُ خـــتام مـــن حَكَـــمْ ... نجـــل محمـــد بـــن مـــروان الحكـــمْ

مقتطفات من المنظومة الميئية المختصرة للألفية

الأبيات المتعلقة بالخلافة العباسية

قـــل مشـــرق بعـــد أميـــة صـــفا ... لأعظـــم العباســـيين الخلفـــا

هـــم تســـعة إلـــى ابـــن عبـــاس انتمَـــوْا ... ســـفاحُ منصـــورُ ومهـــديُّ ســـمَوْا

هـــادٍ رشـــيدُ وأمـــينُ فَثِقُـــوا ... مـــأمونهم معتصـــمٌ و الواثـــق

والأربعـــون ضـــعفاء بعـــدهم ... لســـبعة القـــرون مـــعْ أمـــر دهـــم

إذ قـــادة الجـــيش وهُـــمْ أتـــراكُ ... أضـــحى لهـــم فـــي المنصـــب اشـــتراكُ

والكـــلّ هـــان فـــي عهـــود لاحقـــهْ ... مـــع بنـــي البويـــه فالســـلاجقةْ

مشـــارقٌ لطـــاهرٍ صـــفَّاري ... ســـامانِ غزنـــةٍ بالاســـتئثار

مصـــرٌ لطولـــونَ وللإخشـــيدي ... وضـــمَّها جـــوهرُ للعبيـــدي

بالشـــام زنكـــيٌّ مـــع الأيـــوبي ... لـــم يبقيـــا فـــي مصـــر مـــن عيـــوبِ

مُلْـــك الســـلاجقة بالشـــرق انطفـــا ... لمَّـــا الخـــوارزميُّ ملْكُـــه طفـــا

مـــع تتـــر الجنكيـــز جـــا الهـــلاكُ ... بالشـــرق إذ أكملـــه هولاكـــو

غـــربُ الفـــرات قـــلْ بمصـــرَ قـــد ظهـــرْ ... مَـــنْ للفـــرنج والمغـــول قـــد قهـــر

هـــم المماليـــك الـــذين اســـتُجْلِبُوا ... لآل أيـــوب إلـــى أن غلبـــوا

وأعلنـــوا خلافـــة العبـــاس ... رايتهـــا باقيـــة فـــي النـــاس

ومتوكـــلٌ أخيـــرُ جـــاءهُ ... ســـليمُ تُـــرْكٍ قاطعـــا رجـــاءه

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصل اللهم وسلم على خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم باحسان إلى يوم الدين (سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين).

فهرس الموضوعات

مقدمة 1

محاضرات الخلافة الأمـوية 3

المحاضرة الأولى: نهاية الخلافة الراشدة 4

- أسباب الفتنة الكبرى 4
- تصاعد أحداث الفتنة الاولى أواخر عهد عثمان : 5
- تطورات احداث الفتنة في عهد الامام علي كرم الله وجهه : 6
- مقتطفات من منظومة (إخبار أولي الفطن بأخبار أولى الفتن) 8

المحاضرة الثانية: الخلافة الأموية في العهد السفياني 16

- أهم ملامح سياسة معاوية : 16
- أهم الفتوحات و التنظيمات في عهد معاوية : 16
- اضطرابات خلافة يزيد بن معاوية : 17
- الاضطرابات السياسية بعد يزيد : 19

ترتيب أهم أحداث اضطرابات نهاية العهد السفياني 60-64 هـ 21

ترتيب أهم أحداث اضطرابات بداية العهد المرواني 64 – 73 هـ 22

مقتطفات من (المنظومة الملحمية في أخبار ملك بني أمية) 25

المحاضرة الثالثة : 29

من تفاصيل نهاية العهد السفياني 29

- اضطرابات نهاية العهد السفياني: 30
- بداية الاضطرابات بالحجاز: 30
- بداية الاضطرابات بالعراق: 31
- خروج الحسين من مكة وتغير الموقف بالعراق : 33
- ثورة مبعوث الحسين بالكوفة وفشلها: 35
- مسيرة الحسين من مكة إلى الكوفة: 36
- وقعة كربلاء: 37
- أسرى كربلاء في الكوفة وفي دمشق: 39
- نظرة تحليلية عامة لاضطرابات العراق في نهاية العهد السفياني: 40
- بداية تحرك ابن الزبير في مكة: 41
- تصاعد المعارضة الزبيرية بمكة: 43
- بدء الاضطرابات في المدينة المنورة: 44

- تصاعد ثورة أهل المدينة:.....46
- موقعة الحرة: 47
- نظرة تحليلية عامة لاضطرابات الحجاز في نهاية العهد السفياني:.....50
- محاصرة ابن الزبير في مكة الحصار الأول:.....51

المحاضرة الرابعة : 56

من تفاصيل بداية العهد المرواني.....56

- نهاية الأسرة السفيانية: 56
- بدء الاضطرابات بالشام (مؤتمر الجابية وموقعة مرج راهط):.....56
- بدء الاضطرابات في العراق:.....58
- اضطرابات شيعة العراق بالكوفة (التوابون والمختار):.....59
- أسباب فشل حركة التوابين : 61
- ثورة المختار: 62
- نظرة تحليلية عامة لحركة المختار :.....67
- اضطرابات خراسان : 68
- اضطرابات الخوارج:.....69
- اضطرابات الشام والعراق في بداية عهد عبد الملك: 70
- إلتفات عبد الملك إلى إنهاء الثورة الزبيرية بالعراق: 72
- الحصار الثاني لمكة ومقتل عبد الله بن الزبير:.....73
- نظرة تحليلية عامة لثورة الزبيريين في بداية العهد المرواني :.....74

المحاضرة الخامسة: الخلافة في العهد المرواني.....75

- أسباب سقوط الخلافة الأموية : 78

مقتطفات من (المنظومة الملحمية في أخبار ملك بني أمية).....80

محاضرات الخلافة العباسية 83

المحاضرة الأولى : العصر العباسي الأول132 – 232 هـ/750 – 850 م.....84

- نجاح الثورة العباسية :.....84
- الدولة العباسية في عهود السفاح والمنصور والمهدي : 85
- الخلافة العباسية في عهد ابني المهدي (الهادي والرشيد).....86
- الخلافة في عهود أبناء الرشيد (الأمين والمأمون والمعتصم) :.....86
- لمحة عامة عن عصور الضعف :.....87

مقتطفات من منظومة (رفع الخفاء ودفع الالتباس عن الأوائل من خلفاء بني العباس).....88

المحاضرة الثانية : العصر العباسي الثاني 232هـ-334هـ.....93

- تعاقب الخلفاء الضعفاء على منصب الخلافة : 93
- أهم الثورات ضد الخلافة: (ثورات الزنج و القرامطة) 94

مقتطفات من منظومة (الزهر المورق في أخبار دول الاسلام بالمشرق) 96

فصل في بيان الدول التي تعاقبت على أقصى المشرق في القرن الثالث وما تلاه 96

فصل في ضعف خلفاء بني العباس أمام القادة العسكريين الأتراك 96

المحاضرة الثالثة : العصر العباسي الثالث: 445/334 هـ 99

- الخلافة العباسية في العصر البويهي 99
- تطورات دول أقصى المشرق في العصر البويهي 100

مقتطفات من منظومة (الزهر المورق في أخبار دول الاسلام بالمشرق) 102

فصل في أحوال الخلافة العباسية تحت سلطان دولة بني بويه والسلاجقة 102

المحاضرة الرابعة : العصر العباسي الرابع: 447-590هـ الخلافة العباسية في عصر السلاجقة 103

- ظهور السلاجقة الأتراك في عهد طغرلبك 104
- دولة السلاجقة في عهدي ألب أرسلان وملكشاه 104
- الدولة السلجوقية في عهدها الأوسط : 105
- سلاجقة الشرق (العراق وفارس) في عهدهم الأخير : 106

مقتطفات من منظومة (الزهر المورق في أخبار دول الاسلام بالمشرق) 107

فصل في دخول الأتراك السلاجقة إلى فارس والعراق 107

فصل في دخول الأتراك السلاجقة إلى أرض الروم والشام 107

فصل في الدول التي تعاقبت على حكم مصر والشام 107

المحاضرة الخامسة: بداية الحروب الصليبية 110

- الحركة الصليبية (ماهيتها و بواعثها) 110
- اوضاع المشرق الاسلامي قبل الحركة الصليبية 112
- البدايات الأولى للحرب الصليبية 114
- الحملة الصليبية الأولى 116

المحاضرة السادسة : الخلافة العباسية في عهدها الأخير ببغداد 120

- الدولة الغورية 121
- الدولة الخوارزمية 122

مقتطفات من منظومة (الزهر المورق في أخبار دول الاسلام بالمشرق) 124

فصل في أمر الحشاشين والدولة الخوارزمية بالمشرق والهجوم المغولي 124

فصل في أحوال الدولتين الأيوبية والمملوكية وإحياء الخلافة العباسية بالقاهرة 125

خاتمة 127

مقتطفات من المنظومة الميئية المختصِرة للألفية الأبيات المتعلقة بالخلافة الأموية 127
مقتطفات من المنظومة الميئية المختصِرة للألفية الأبيات المتعلقة بالخلافة العباسية 128